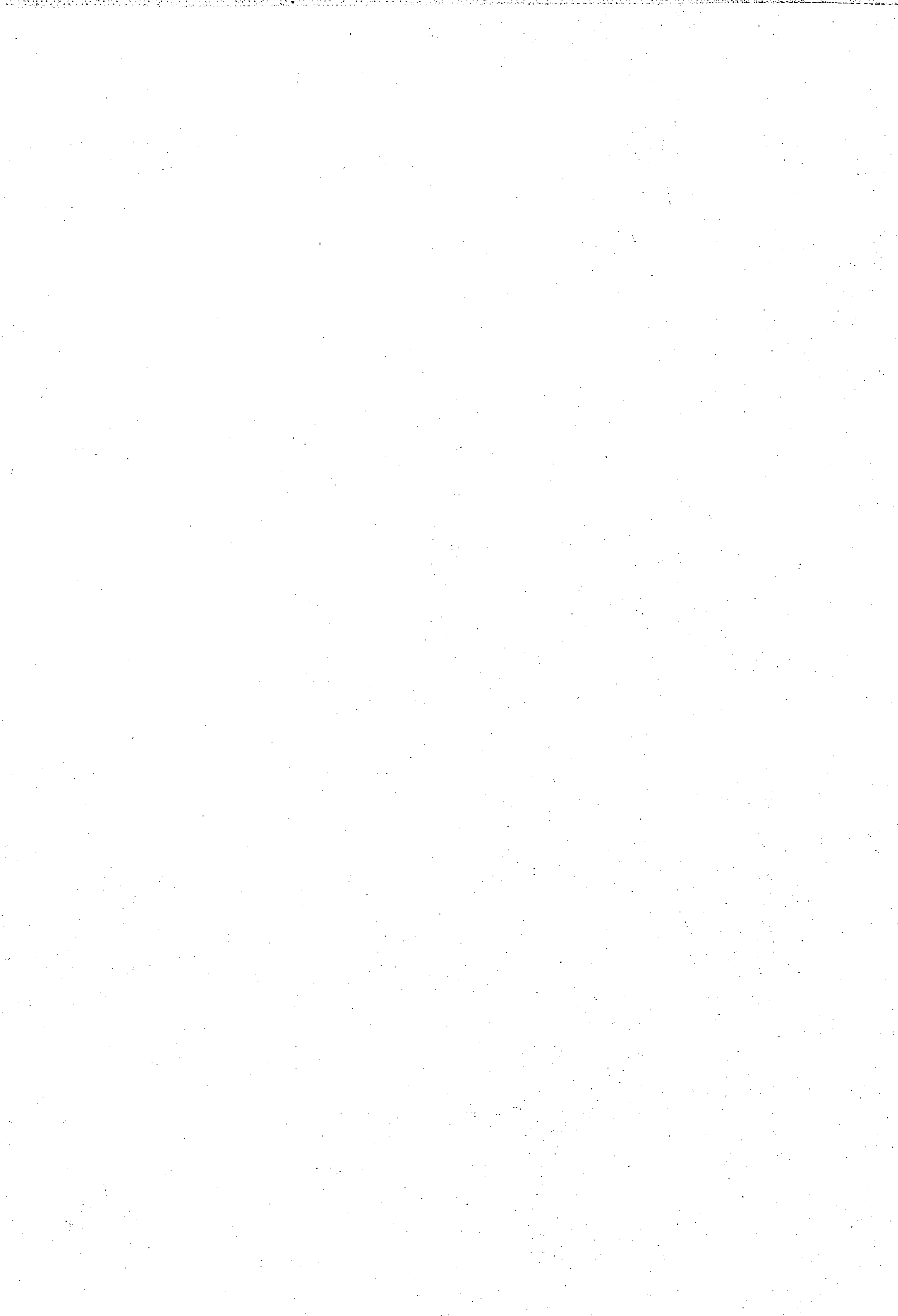
عَالَمُ المُعجِـزَات



سلسلة الحقيقة الصعبة (٣)

عَالَمُ المُعجِزات

(بحث في تاريخ القرآن)

أبُو مُوسَى الحَرِيري

دار لأجل المعرفة
ديارعقل-لبنان
١٩٩٠

سلسلة الحقيقة الصعبة

١. قسّ ونبيّ، بحث في نشأة الإسلام الدينيّة
٢. نبيّ الرّحمة، بحث في مجتمع مكّة
٣. عالم المعجزات، بحث في تاريخ القرآن
٤. أعربيٌّ هو؟ بحث في عروبة الإسلام
٥. العلويّون النّصَيريّون، بحث في العقيدة والتّاريخ
٦. بين العقل والنّبيّ، بحث في العقيدة الدرزيّة
٧. رسائل الحكمة، كتاب الدروز المقدّس
٨. مصادر العقيدة الدرزيّة
٩. السلـــوك الـــدرزي
١٠. مذبحة الجبل (حسْر اللّثام عن نكبات الشام)
١١. المسيحيّة في ميزان المسلمين

سلسلة الأديان السرّيّة

١. العقيدة الدّرزيّة
٢. تعليم الدين الدرزي
٣. النّبيّ محمّد في العقيدة الدّرزيّة
٤. العجل والشيصبان في العقيدة الدرزيّة
٥. رسالة درزيّة إلى النّصيريّين
٦. تعليم الدين العلوي
٧. الباكورة السليمانيّة في كشف أسرار الديانة النّصيريّة

دار من أجل المعرفة
ديارعقل–لبنان
١٩٩٠

مُقَدِّمَة الكتاب

١ - كتابُ المسلمينَ المقدّس

مع القرآن أنتَ في قدْس أقداسِ الاسلام والمسلمين: انّه كتابُ اللهِ المجيد[١]. نزّله اللهُ على محمّد تنزيلا[٢]. أنزله قرآنا عربيًا[٣] غيرَ ذي عِوَج[٤]، لا ريبَ فيه(٢/٣٢)، ولا اختلاف (٤/٨٢)، ولا ينطقُ عن الهوى (٥٣/٣). إنّه هُدى للمتّقين[٥] وبُشرَى للمؤمنين[٦] ورحمةٌ للعالمين[٧]. إنّه الحقّ اليقين (٦٩/ ٥١)، والقولُ الفَصْلُ (٨٦/١٣). لا يَمَسُّهُ الاّ المُطَهَّرون (٥٦/٧٩). وما هو بالنتيجة «الاّ وحيٌ يُوحَى» (٥٣/٤). والذين يسمعونه "يخرّون للأذقان سجّداً" (٧/١٠٨).

---

(١) القرآن، سورة ٥٠ آية ١، ٨٥/ ٢١. إنّه القرآن الكريم (٥٦/٧٧؛ ٢٩/٢٧)، الحكيم(٣٦/٢؛ ٣/٥٨؛ ١٠/١؛ ٣١/٢)، العظيم (١٥/٨٧؛ ٣٨/٦٧؛ ٧٨/٩٢)، المُنير (٣/١٨٤؛ ٣٥/٢٥)، المُبين (١٥/١/ ٢٧/١؛ ٣٦/٦٩؛ ٥/١٥)...

(٢) ٧٦/٢٣، ٣/٣، ٤/١٣٦، ٢٥/١، ٢/٢٣ و٤٧، ١٥/٩، ١٦/٨٩، ١٧/١٠٦، ٢/٩٧، ١٦/٤٤، ٥٧/٩، ٤٧/٢.

(٣) ١٢/٢، ٢٠/١١٣، ٣٩/٢٨، ٤١/٤٤، ٤٢/٧، ٤٣/٣.

(٤) ٣٩/٢٨، ١٨/١.

(٥) ٢/٢ و ١٨٥، ٤١/٤٤، ١٦/١٠٣.

(٦) ٢/٩٧، ٤٦/١٢، ١٦/١٠٣.

(٧) ١٠/٥٧، ٦/١٥٧، ٤١/٤٤.

ألقرآن، على ما يقول محمّد دروزة، «هو الكتاب المقدّس للمسلمين... فيه أصولُ دينهم، وشرائعُ حياتهم، ونبعُ إلهامِهم، ونبراسُ أخلاقهم، ونورُ هدايتهم في مُختلَف شؤونِهم الدينيةِ والدنيويّةِ، الروحيّةِ والمادّيّةِ، العامّةِ والخاصّةِ، السياسيّةِ والقضائيّةِ والاجتماعيّةِ والشخصيّةِ والانسانيّةِ... وَصَفَهُ نبيُّهم بهذا الوصفِ الشاملِ الرائعِ المأثورِ عن طريقِ عليٍّ بن أبي طالب... «فيه نَبَأُ مَا قَبْلكم، وخَبَرُ ما بَعدكم، وحُكْمُ ما بَينَكم»[8]

وعند أنور الجندي، «جاء القرآن خاتماً لرسالاتِ السماء، ومكمّلا للكتبِ المنزلةِ من قَبلِه، ومُهيمِنا عَلَيها. وقد تميّزَ الى ذلك بميزةٍ كبرى هي أنّ الله سبحانَه وتعالى تعهَّدَ بحفْظِه، بينَما وُكِلَتِ الكتُب الأخرى الى مَن أُنزلتْ إليهم للاحتفاظِ بها... ومِن هنا فانَّ القرآنَ هو الكتابُ الوحيدُ في العالم كلِّه الذي حُفِظَ من التحريف... ولقد كان نزولُ القرآنِ على محمّدٍ، في تقديرِ الباحثين والمؤرّخين، «أعظمَ حادثٍ في تاريخِ البشريّة».

«فلأوّلِ مرّةٍ – من بين الكتبِ السماويةِ الاخرى – يَظهَرُ على الارض كتابٌ ذو كلماتٍ وحروفٍ إلهيّةٍ، لم يَكْتبْ سَطرًا من سطورِه بَشَرٌ، ولم يَخُطَّ حَرفًا من حروفِه انسانٌ. وقد أعلنَ الكتابُ الالهيُّ إعلانًا لا مَحيصَ عنه أنّه آخِرُ وحيٍ من السماء، وأنَّ رسالةَ السماءِ اكتملتْ به اكتمالَها الأخير، وأنّ الدائرةَ الألهيةَ التي هبطتْ منها الألواحُ والصُحُفُ والكتبُ الالهيّةُ الأخرى قد قُفلتْ نهائيًا»[9].

هذا القرآن هو معجزةُ المعجزاتِ الالهيّة، بل هو، على حدِّ قول ابن خلدون «أعظم المعجزاتِ وأشرفُها وأوضحُها دلالةً»[10]. إنّه معجزةٌ في كلِ شيء : في ألفاظِه، وحروفه وآياتِه، وأسلوبه، ولغتِه، ومعانيهِ، وتعاليمه،

---

(٨) محمّد عزّة دروزة، القرآن المجيد ص ٥ – ٦.

(٩) أنور الجندي، الاسلام والعالم المعاصر، ص ١٦٩ – ١٧٠ .

(١٠) إبن خلدون، المقدمة، طبعة دار الكتاب اللبناني، ص ١٦٥.

وعلومِه، وشريعتِه، وتدوينِه، وحفظِه... " ولَئِنِ اجتمعتِ الانسُ والجِنُّ على أن يأتوا بمثلِ هذا القرآنِ لا يَأتونَ بمثلِه ولو كانَ بعضُهم لبعضٍ ظَهيرًا " (١٧/ ٨٨). وبرهانُ معجزتِه أنه كلَّه مِن عندِ الله، "ولو كانَ مِن غيرِ عند اللهِ لَوَجَدُوا فيه اختلافًا كبيرًا " »(٤/ ٨٢).

هذا الكتابُ، في رأي الدكتور مصطفى الرّافعي، هو «معجزةُ التاريخِ العربي خاصّةً، ثم هو بآثارِه الناميةِ معجزةٌ أصليّةٌ في تاريخِ العالَمِ كلّه على بَسيطِ هذهِ الأرض، مِن لَدُنِ ظَهَرَ الاسلامُ الى ما شاء الله...»[١١].. وعنده أيضا «إنّ القرآنَ كتابُ الدهرِ كلّه، وكم للدهرِ من أدلّةٍ على هذه الحقيقةِ ما تَبرحُ قائمةً»[١٢]. إنّه «كتابُ كلِ عصرٍ، وله في كلِ دهرٍ دليلٌ من الدهرِ على الاعجازِ»[١٣]. إنّه «معجِزَةٌ من معجزاتِ التاريخِ العلمي في الارضِ، لم يَتّفِقْ له في ذلك شبيهٌ مِن أوّلِ الدنيا الى اليومِ، ولن يَتّفقَ»[١٤]. «هذا الكتابُ الكريم سَبَقَ العقلَ الانسانيَ ومخترعاته بأربعة عشَرَ قرنًا الى زمننا، وما ذاك الاّ فَصْلٌ من الدهرِ، وَستعقبُه فصولٌ بعدَ فصولٍ»[١٥].

ويقول الدكتور عبد المنعم النمر: «عُنِيَ المسلمون بالقرآنِ من كلِ جانبٍ من جوانبه، حتى كانَ هو الذي قامتْ حولَه ومن أجلِه كلُ العلومِ الدينيّةِ والعربيّةِ والكونيّةِ، وغيرِها... فكانَ حقًّا باعثَ النهضةِ العلميّةِ بمفهومِها الواسعِ لأتباعِه»[١٦].

ولئن تحدّى النبيّ بالقرآنِ كفّارَ قريش ومشركي مكّةَ والجنّ والأنس

---

(١١) الدكتور الرافعي، اعجاز القرآن.... ص ١١٤.

(١٢) المرجع نفسه، ص ١١٩.

(١٣) المرجع نفسه، ص ١٥٤.

(١٤) المرجع نفسه، ص ١٢٧ .

(١٥) المرجع نفسه. ص ١٣٠ .

(١٦) الدكتور عبد المنعم النمر، علوم القرآن الكريم، ص ٣٣ .

جمـيعــهم بأنْ يأتوا بسورةٍ من مـثله، فانَ القـرآنَ نفسَــه أعطى المسلمينَ لأنْ يَتَـحدَّوا العـالَمَ بجـميعِ مـا عندَهم من علومٍ وشــرائعَ وحلول. هكذا، في رأي محـمّد رشيد رضــا «نَقَلَ جميعُ المسلمين هذا التـحدّي الى جمـيعِ الامم، فَظَهَرَ عجزُها أيضا»[١٧]. وذلك لأنّنا نقعُ فيه «عـلى ذخائرَ واسعة من المعرفـةِ تُعْجِزُ أكثرَ الناسِ ذكاءً، وأعظمَ الفلاسفةِ، وأقدرَ رجالِ السياسةِ»[١٨].

" بالقرآن، في رأي محـمّد دراز، ظهر فضلُ المسلمين علـى العالَم أجمع. و«الحمد للّه الذي فضّلَنا بالقرآن عـلى الأمم أجمعين. وآتانا به ما لم يُؤتِ أحداً من العالمين»[١٩].

٢ – صِلَةُ النبيِّ بالقرآن:

هذا القرآن لا يدَ لمحمد فيه. وليسَ له أن يُبَدِّلَ فيه شيئًا: «قُلْ مَا يكونُ لي أنْ أُبدِّلَهُ مِن تَلْقَـاءِ نفـسي، أَنْ أتَّبِعُ الاّ مـا يُوحى اليّ»[٢٠]، بل ليسَ له أيضا أن يتـسرَّعَ في تَقـبّلِ الوحي، أللهُ هو الـذي يصنَعُ له كلَ مـا يشاء: «لا تُحـرِّكْ به لسانَكَ لِتعـجَلَ به، إنَّ علينا جمعَه وقرآنَه. فاذا قـرآناه فاتّبعْ قرآنَه. ثم إنَّ علينا بيانَه»[٢١]. لا يملك محمّدٌ، إزاء القرآن، أيَ أمرٍ من أمور السماءِ: «لا أملكُ لنفسي نفعًا ولا ضرًا الاّ ما شاء الله» (١١٨/٧)، و«قل: لا أقولُ لكم عندي خزائنُ الله، ولا أعلمُ الغيبَ ولا أقولُ لكم انّي مَلَكٌ، انْ أتَّبِعُ الاّ ما يُوحَى اليّ» (٦/ ٥٠).

فمحـمدٌ، اذًا، بحسب الدكـتور الشيخ صبـحي الصالح، «لا دخلَ له في

(١٧) محمد رشيد رضا في مقدمة على «اعجاز القرآن،» للرافعي، ص ١٧.
(١٨) لورا فيشا فاغليري، دفاع عن الاسلام، ص ٥٨.
(١٩) محمّد بن عبدالله دراز، النّبأ العظيم. نظرات جديدة في القرآن، ص ٩.
(٢٠) سورة يونس ١٠/ ١٥–١٦.
(٢١) سورة القيامة ٧٥/ ١٦ – ١٩.

الوحي، فلا يَصوغُه بلفظِه، ولا يُلقيه بكلامِه، وانّما يُلقى اليه الخطابُ القاءً. فهو مخاطبٌ لا متكلِّمٌ، حَاكٍ ما يَسْمَعُه، لا معبِّر عن شيءٍ يجولُ في نفسِه... (ثم) انّ النبيَ لا يَملِكُ حتى حقَّ استخدامِ ذاكرته في حفظِ القرآنِ، بل اللهُ يتكفَّلُ بتحفيظِهِ إيّاه... وهو يرى بنفسِه انه لا يملِكُ من أمرِ نفسه شيئًا.... انّه الوحيُ يَنزِلُ على محمّدٍ حين يشاءُ ربُّ محمّد، وَيفتَرُ اذا شاء له ربُّ محمّد الانقطاعَ، فما تنفعُ التعاويذُ والأسجاعُ، ولا تقدِّمُ عواطفُ محمدٍ ولا تُؤخِّرُ في أمرِ السماء»[٢٢].

«ألقرآن اذًا صريحٌ في انّه لا صنعةَ فيه لمحمد ... ولا لأحد مِنَ الخَلقِ، وانما هو مُنزَلٌ من عندِ اللهِ بلفظِه ومعناه»[٢٣] والتعريفُ المتَّفَقُ عليه هو انّ «القرآنَ هو كلامُ الله تعالى، المنزَلُ على محمّدٍ، المتعبَّدُ بتلاوته»[٢٤].

وممّا يدلّ على أنّ القرآنَ كلّه من عندِ الله واقعُ محمّدٍ الأمّيِّ الذي يجهَلُ الكتابةَ والقراءةَ. وأمّيّةُ محمّد من مُسلَّماتِ الاسلامِ والمسلمين. لهذا «كيفَ يمكنُ ان يكونَ هذا الكتابُ المعجزُ من عملِ محمّدٍ، وهو العربيُ الأمّيّ!؟... وعلى الرغم من أنَ أصحابَ البَلاغةِ والبيانِ الساحرِ كانوا غيرَ قلائلَ في بلادِ العرب فانّ أحدًا لم يتمكّنْ من أن يأتي بأيِّ أثرٍ يُضاهي القرآنَ... انهُ ممتنعٌ على التقليدِ والمُحاكاةِ حتى في مادّته...»[٢٥].

ومن هذا القبيل ايضا، على ما يقول عبد الفتّاح طبّاره: «من أينَ لأمّيٍّ كالنبِيِّ عليه السلام، أو متعلِّمٍ مهما أُوتيَ مِنَ العلمِ ان يُؤَلِّفَ ستةَ آلافِ آية بهذه الفصاحةِ والاتّساقِ؟ انّ في ذلك لآيةً على انه من عندِ الله... وقد ظهرَ القرآنُ على لسانِ أمّيٍ لم يَتَعَلَّمِ القراءةَ والكتابةَ، فكيف يمرّ عليه أربعةَ عشرَ قرنًا

(٢٢) الدكتور الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٣٠ و٣٣ و ٣٨.
(٢٣) محمد دراز، النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، ص ٢١.
(٢٤) المرجع نفسه، ص ١٤.
(٢٥) لورا فيشيا فاغليري، دفاع عن الإسلام، ص ٥٦ – ٥٨.

تتغيّرُ فـيه العقليّةُ البشريّةُ ولا يظهَر فيـه اختلافٌ؟ بل نَرى الاصولَ التي أتى بها القرآنُ... تُناسِبُ مع كلِ زمانٍ ومكان»[٢٦].

٣ – اللّغةُ العربيّةُ في حِمى القرآن

ألقرآنُ هو مصدرُ اللغةِ العربيةِ وحـافِظُها، وهو الذي «حمَاها، كما يقول إبراهيم الإبيـاري، لغةً مِن أنْ تذوبَ في لغـاتٍ. وما نعـرفُ شيـئًا حَمى الـلغةَ العربيةَ من الضياع غيرَ هذا الكتابِ الـكريم. أُبعِدَتْ ما أُبعِدَتِ الشعوبُ العربيّةُ عن الكلامِ بلغتِها العربيّة وكان هو مردُّها إليها، كلّما أوشكتْ أن تنفصِمَ صلتُّها بها رَبَطها هو بها. وهكذا عاشتِ الأمّةُ العربيّةُ بعيدةً بكل ما في يَدَيها عن لغتِها قريبةً بهذا الكتـابِ وحدَه الى لغتِها. وحينَ حَمى هذا الكتـابُ اللغةَ لأهلِها حَمى هؤلاء مِن أنْ يتفرّقوا أيدي سبأ»[٢٧].

ثمّ إنّ القـرآنَ هو قاعـدةُ اللغـةِ العربيّـةِ وأصلُهـا والحَكَمُ عليهـا. وهي تَنْتَسِبُ الـيه، وتحتـمي به، وتُصان. وفي رأي الشـيخِ صبحي الـصالح: «إنّنا نجعلُ القرآنَ حكَمًا على قواعِدِ اللغـةِ والنحْوِ، ولا نجعلُ تلك القواعدَ حكَمًا على القرآن»[٢٨]. وفي رأي الدكـتور الرافـعي، ان القـرآنَ «هو يدفعُ عن هذه اللغـةِ العربيّةِ النسـيانَ ألذي لا يُدْفَعُ عن شـيء. وهذا وحدَه إعجـاز... تُذْكَرُ بِهِ اللغةُ، ولا يُذْكَرُ هو بِهَا. وبذلك يَحْفَظُها»[٢٩].

ويبدو واضحًا لأنور الجندي أنَّ القرآنَ «هو الكتابُ الوحيدُ الذي احتفظَ بلغـتِه الأصليّـةِ، وحفظَهـا على قـيدِ الحـياة، وسـيحـفظُها على مـرّ الدهور.

---

(٢٦) عفيف عبد الفتّاح طبّاره، روح الدين الإسلامي، ص ٤٢ و ٤٣ .

(٢٧) ابراهيم الابياري، تاريخ القرآن، ص ٤٥.

(٢٨) الدكتور الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٢٥٨.

(٢٩) الدكتور مصطفى صادق الرافعي، اعجاز القرآن، ص ١٤ .

وستموتُ اللغاتُ الحيّةُ المنتشرةُ اليومَ في العالَمِ، كما ماتتْ قَبْلَها لغاتٌ كثيرةٌ في سالفِ العصور، الاّ العربيةُ، فستبقى بمنجاةٍ من هذا الموت، وستبقَى حيّةً في كل زمان، مخالفةً لنواميسِ الطبيعةِ التي تَسري على سائرِ لغاتِ البشر، ولا غروَ فانّها متّصلةٌ بالمعجزةِ القرآنيّةِ الأبديّة»[٣٠].

وبعد كل هذا ليس على اللغةِ العربية، بعدَ القرآن، أنْ تَخافَ على نفسِها من الموتِ والفناءِ، حتى ولو فارقتِ الشفاهَ واللسانَ، لأنّ المتكلّمَ بها هو اللهُ. والكلامُ فيها هو كلامُ الله والملائكةِ وأهلِ الجنّة الناجين.

ولو لم يكنِ القرآنُ حافظًا قواعدَها، ورابطًا مراسيها، وحامِي ألسنةِ الناطقين بها، لأصابَها ما أصابَ سواها من لغاتِ أهلِ الأرض. كلّ لغاتِ العالَم يجري عليها قانونُ الموتِ والحياةِ، ما عداها، لأنها تَعلو على سنّة الموت، ولأنّها متنعمّة بالسؤددِ والمجدِ في كلامِ اللهِ السرمدي. فلا اللّهَجَاتُ ولا اللكَّنَاتُ، ولا التصحيفُ والتحريفُ بجائزٍ على لغةِ اللهِ العليّ. وعلى الاستعمارِ ورجاله أن يعرفوا حدودَهم وحدودَ علمِهم عندما يواجهون لغةَ اللهِ وأهلِ الجنّة، لأنّنا أمامَ «معجزةٍ ثانيةٍ خالدةٍ بخلودِ القرآن»[٣١]. ويكونُ القرآن «معجزًا في نفسه من حيثُ هو كلامٌ عربي»[٣٢].

٤ - العِلْمُ في القرآنِ ومِنَ القرآنِ

كلُ ما في الأرضِ من علومٍ مصدرُها ومرجعُها القرآن: «انّ ما يداولُه العالَمُ اليومَ من فلسفاتٍ وعلومٍ، بحسب ما يقول أنور الجندي، انّما هو من نتاج الفكرِ الإسلامي أصلاً، وإن القرآنَ كان بالحقِ هو مصدرُ المصادر في

---

(٣٠) أنور الجندي، الإسلام والدعوات الهدامة، ص ٢٦٩.

(٣١) إبراهيم الابياري، تاريخ القرآن، ص ٤٤. انظر أيضا ٤٥.

(٣٢) الدكتور مصطفى الرافعي، اعجاز القرآن، ص ١٥٧.

مناهجِ العلومِ التجريبيّة والاجتماعيةِ جميعا»[٣٣]. بل «إن القرآنَ (هو) بمثابةِ ندوةٍ علميّةٍ للعلماء، ومعجَمِ لغةٍ للّغويّين، وأجروميّةِ نَحْوٍ لِمَنْ أرادَ تقويمَ لِسَانه، وكتابِ عروضٍ لمحبِ الشعرِ، وانسكلوبيديةٍ عامّةٍ للشرائعِ والقوانين»[٣٤].

هذا القرآن العظيم، على قول يوسف مروّة، نجدُ فيه كلَ «ما يؤيّدُ ويدعَمُ مواضيعَ العلمِ الحديث: من تجزئةِ الذرّة، وثنائيّةِ المادّة، والأشعة الكونيّة، وطبقاتِ الجوِّ، والضّغطِ الجوّي، وتركيبِ الماء والهواء، ولغةِ الحشرات، وبصمات الاصابع، والكائنات المجهريّة، وعدمِ فناء المادّة، وغزوِ الفضاء، والذبذبات الصوتيّة، والنَقْلِ البعيد، والرؤيةِ عن بُعْد (التلفزة)، الى غير ذلك من حقائق العلم الحديث»[٣٥].

لقد تناولَ القرآن بالبحثِ، كما يقول أحمد سليمان، المعارف والعلوم الممكنة كلّها «تناولاً شاملاً جامعًا مانعًا. لم يبقَ فيه للأجيالِ التي تلتْ نزولَه ما تزيدهُ، ولم يُتْرَكْ للعلمِ وآلاتِه أن يُضيفا شيئًا الى بيّناتِه... فسبقَ العلمَ ولم يَتْركْ زيادةً لمستزيد»[٣٦]. وكما يقول الإمام السيّد موسى الصدر: «نحنُ نقدرُ أن نقولَ، بكل ثقةٍ واعتزاز، إنّ جميعَ الامثالِ القرآنيةِ مؤيّدةٌ من العلمِ الحديثِ دون استثناء»[٣٧].

بل قد نعجزُ عن إحصاءِ علومِ القرآن أو أن نَستقصيَها جميعَها، و«قد ذكَر الالوسي في تفسيره عن بعض السلف: أُنزِلَ في هذا القرآن كلُ علمٍ، وبُيّنَ لنا فيه كلُ شيء. ولكنْ علمُنا يقصر عمّا يُبيَّن لنا في القرآن. ونَقَلَ عن ابن

---

(٣٣) أنور الجندي، الإسلام على مشارف القرن الخامس عشر، ص ٢٥٠ .

(٣٤) أنور الجندي، العالم الإسلامي والإستعماري... ص ٢٥٠.

(٣٥) يوسف مروّة، كتاب العلوم الطبيعيّة في القرآن، ص ٦٩ .

(٣٦) أحمد سليمان،القرآن والطب، ص١٢٠ – ١٢١ .

(٣٧) الامام موسى الصدر، في مقدمة كتاب يوسف مروّة، «العلوم الطبيعية»، ٣٨ .

عباس قولَه: "لَوْ ضَاعَ لي عقالُ بَعِيرٍ لَوَجَدْتُه في كتابِ اللهِ تعالى". وذَكَرَ أيضا: "أن بعضَ العلماءِ استخرجَ من الفاتحَةِ أسماءَ سلاطين آل عثمان وأحوالَهم ومدّةَ سلطانِهم الى ما شاء الله"[٣٨].

وهكذا، في علم الرّافعي، «ما مِن علمٍ الاّ وقد نَظر أهلُه في القرآن، وأخذوا منه مادّةَ علمِهم، أو مادّةَ الحياةِ له»[٣٩]. ويقول: «قد ألّفَ بعضُ علماءِ القومِ كتابًا سمّاه «تنبيهَ الأغنياء على قَطرةٍ من بحرِ علومِ الأولياء» كانت هذه القَطرةُ فيه زهاءَ ثلاثةِ آلافِ علمٍ. فترى ما عسى أن يكونَ البحرُ؟ أللهمَّ إنّ السلامةَ في الساحل»[٤٠]. وعند الرافعي أيضا، إنّ في القرآن «اشاراتٍ وآياتٍ بيّناتٍ في مسائلَ ما برحتِ العلومُ الطبيعيّةُ تحاولُ الكشفَ عن كنهها منذ عصور»[٤١]. ويخلص الى القول: «ان هذه المخترَعاتِ والمستحدَثاتِ وما أدّتْ اليه من أدلّةٍ ونظرياتٍ قد جاءَتْنا ببرهانٍ جديدٍ على إعجاز القرآن الذي نَدينُ اللهَ عليه، فقرّتْ أعينُ المؤمنين، ذلك من فضلِ الله علينا وعلى الناس»[٤٢].

«ولعلّ أهمَّ الاسباب الداخليةِ لانحطاطِ المسلمين وتأخرِهم في الوقتِ الحاضر، على ما يقول الدكتور العطّار، هو انصرافُهم عن تدارسِ ما في القرآنِ من كنوزِ العلمِ والمعرفة، والتي ما زالتْ بِكرًا حتى الآن»[٤٣]. ونحن على يقينٍ أنّ العالَمَ الاسلامي، اذا ما عادَ الى كلامِ الله يستشفُّ منه العلمَ والمعرفةَ، سيلتحقُ بِرَكْبِ العلمِ وأهلِ العلم، لأنّ مصدرَ العلمِ هو في كتابِ الله الذي بين أيديهم. وبهذا لن تعودَ أوروبّا تتحكّمُ برأسمالِ المسلمين، لئلا يلحَقَ بكتابِ الله من هذا التحكّمِ شيءٌ. وحاشا الله من المفسدين.

---

(٣٨) أحمد سليمان، القرآن والعلم، ص ١٦٩، نقلا عن «روح المعاني».

(٣٩) الدكتور مصطفى الرافعي، اعجاز القرآن، ص ١٢٢.

(٤٠) الرافعي، اعجاز القرآن، ص ١٢٦، حاشية (١).

(٤١) المرجع نفسه، ص ١٣١.

(٤٢) المرجع نفسه، ص ١٣٣.

(٤٣) الدكتور داوود العطّار، موجز علوم القرآن، ص ٧.

٥- في القرآنِ شريعةُ الخلود

في اعتقاد المسلمين، إن الشريعةَ الاسلاميةَ هي آخرُ صورةٍ لكلِ شريعةٍ. وقد لا تلحقُ البشريةُ، في نُضجِها ونمّوِها الأخيرِ، مستَوى شريعةِ الاسلام «التي أرادَها اللهُ، كما يقول محمّد قطب، لمستقبلِ البشريةِ كلّها، والتي وضعَها اللهُ على مستوى النضجِ للبشريةِ كلّها، وصاغَها بحيثُ تشمَلُ كلَ دقائقِ حياتِهم، وتسيرُ مع كل نموِّهم وتطوُّرِهم حتىَ يرِثَ اللهُ الأرضَ وما عليها... وعالجَ الاسلامُ (هذه الشريعة) بحيثُ لا تخرجُ الحياةُ البشريّةُ في أيّةِ لحظةٍ من تطوّرِها عن مفاهيمِ الاسلامِ وتشريعاته»(٤٤).

إنّ الإسلامَ، بنظرِ المسلمين المؤمنين، ينـاسِب كلَ عصرٍ، فيما سائر الأديانِ تناسبُ عصرَها الذي وُجِدَتْ فيه. و«الأديانُ، بحسب عبد الفتّاح طبّاره، تختلفُ في تشريعاتِها لاختلافِ أحوالِ الأممِ الاجتماعيّةِ ودرجةِ استعدادِها العقلي. ولقد اختتَم اللهُ الأديانَ بالدينِ الاسلامي، وأعطى محمّدًا شريعةً تَنْسَخُ ما قَبْلَها من الشرائعِ مظهرًا فيها كنهَ الدينِ الحقّ. وهذه الشريعةُ توافقُ ما اقتضاه التطوّرُ العقلي للانسانِ وتصلحُ لكل زمانٍ ومكان، وانّها الشريعةُ المقبولةُ عند الله، ولا يُقْبَلُ غيرُها»(٤٥).

ثم ان «الشريعةَ الاسلامية، كما يقول عبّاس طه، هي شريعةُ الخلودِ والبقاء، لانّها جمعتْ بين حلقاتِ الزمنِ من دابرٍ وحاضرٍ، فوضعتْ لكلِ عصرٍ وجيلٍ أحكامَه وطرائقَه، فكانت شريعةُ الاسلامِ خيرَ الشرائعِ وأمثَلَ القوانين»(٤٦).

وهكذا، كما يقول العطّار: «لمّا كان الاسلامُ خاتمَ الاديانِ كان من

---

(٤٤) محمد قطب، جاهلية القرن العشرين، ص ٢١ – ٢٢.

(٤٥) عفيف عبد الفتاح طبّاره، روح الدين الاسلامي، ص ١٧ .

(٤٦) عباس طه، السلطتان الدينية والدنيوية كما يراها الاسلام، في كتاب «الاسلام والانظمة السياسيّة»، دار الكاتب العربي، ص ٨١ .

الضروري أن يأتي بشريعةٍ تختُم كلَ الشرائع، ومن هنا كانتْ شريعةُ الاسلامِ صالحةً لكل زمانٍ لانّها شريعتُه، ولكلّ مجتمعٍ لانّها حياتُه الفاضلة المهذبة. وليس في الارضِ شريعةٌ صالحةٌ كشريعةِ الإسلام، وما من مزيةٍ صالحةٍ في أيِّ شرعٍ كان إلاّ والإسلامُ يَحويهِ على أكملِ وجه، لان شريعةَ الاسلامِ هي شريعةُ الله، وما شَرْعٌ أكملُ من شَرْعِ الله، ولا خيرٌ منه للانسانيّةِ كلّها»(٤٧).

والسبب في ذلك، كما يقول الشرقاوي، هو ما «في شريعةِ الاسلام من المَسَايَرَةِ والمطاوَعَةِ واليُسْرِ والسعَةِ والمُرونةِ والكفايةِ لكلِ ما يشمَلُ تطوراتِ الحياةِ، ويحقّقُ للناسِ سعادَتهم أفرادًا وجماعاتٍ في كلِ زمنٍ وبيئة»(٤٨).

و «كذلك المبادئُ والاصولُ الرئيسيّةُ للفقه والتشريعِ الاسلامي، فيها، كما يقول الشيخ جواد مغنيّة، صفةُ الشمولِ والعمومِ لحياةِ الانسانِ في كل البيئاتِ والعصور. وفي الوقت نفسه تتصفُ بالثباتِ والدوام، ولكن لا بمعنى الجمودِ والتحجّر... وعليه يكونُ معنى صلاحِ الشريعةِ الإسلامية لكلِ زمانٍ ومكان: إنّ مبادئَها وأصولَها الأساسيّة تصلحُ لانْ يتفرّعَ عنها ويُستَخرجَ منها أحكامٌ تنسجمُ وتتلاءم مع كل بيئةٍ وعصر، وإنَ الخيرَ والصلاحَ لا يمكن وجودُه والبحثُ عنه خارجَ اطارِ مبادئِ الشريعة الإسلاميّة وأصولِها»(٤٩).

والعجيبُ الغريبُ حقًا أن تَرى بعضَ «الدولِ الاسلامية أو أكثرَها تنقلُ قوانينَها عن الغَرْبِ، وتهملُ الشريعةَ الاسلامية، مع العلم أن أكثرَ القوانين الغربيةِ منقولةٌ – بطريقٍ أو بآخر – عن الفقه الاسلامي. وعلى فرْضِ استقلالها عنه، فإنّ التشريعَ الإسلامي لا يُدانيه أيُّ دستورٍ أو قانون»(٥٠).

---

(٤٧) أحمد عبد الغفور عطّار، هل يفي الفقه الاسلامي بحاجات كل عصر؟ في كتاب «الاسلام والتحدي الحضاري»، دار الكاتب العربي، ص ١١٢.

(٤٨) محمود الشرقاوي، التطور روح الشريعة الاسلامية، ص ٧٠ و ٩١.

(٤٩) محمد جواد مغنية، الاسلام بنظرة عصرية، ص ٣٨ – ٣٩.

(٥٠) المرجع نفسه، ص ٤٣.

ان الشريعةَ الاسلاميّة أخيرا، في رأي الشيخ الصالح، بلغتِ الكمالَ في كل شيء: «لقد بلغتْ (مثلا) في تكريمِ المرأةِ وتأكيدِ حقوقِها واستقلالِ شخصيتِها ما لم يبلغْهُ تشريعٌ أجتماعيٌ أو قانونيٌ في القديمِ ولا في الحديث»(٥١).

و «إنّ الحضارةَ الإسلاميةَ، عند أنور الجندي، سبقتِ الاعلانَ العالمي لحقوقِ الانسان، حتى جاء هذا الاعلانُ وكأنّه مشتَقٌ من مبادئ الإسلام»(٥٢). كما أنّه «ولا شكَ في ان الإسلامَ قد سبقَ الأنظمةَ كلَها الى تحريرِ الرقيق»(٥٣). وبالعموم «ان التشريعَ الاسلامي لا يُدانيه أي دستورٍ في العالم»(٥٤).

٦ – في القرآنِ حُلولٌ لمشاكلِ الكونِ والانسان كلّها

في اعتقاد المسلمين ان القرآنَ قدّمَ الحلولَ المناسبةَ والنهائيّة والجذريّة لمشاكلِ الانسانِ والعصرِ والمجتمع كلّها. بل إنّ «الاسلامَ، في رأي محمّد وجدي، هو نهايةُ الفكرِ الإنساني. والإنسانيّةُ، بعد طُولِ حَيرَتِها حولَ المذاهبِ والدعواتِ والأفكار، لن تجدَ حلاً لمشاكِلها الاجتماعيّةِ والسياسيّةِ والاقتصاديّةِ إلاّ في الإسلام»(٥٥).

وفي القرآن أيضا، بحسب محمّد قطب، «ألمنهجُ الذي يُعطي الجوابَ الصحيحَ عن كلّ مسألة، ويَحكُمُ بالحقّ في كلّ مشكلة... ألمنهجُ الذي لا مُنقذَ

(٥١) الشيخ صبحي الصالح، الاسلام والمجتمع العصري، ص ١٨٨ و ١٨٩.
(٥٢) أنور الجندي، الإسلام على مشارف القرن الخامس عشر، ص ٢٥٧.
(٥٣) الشيخ صبحي الصالح، الاسلام والمجتمع العصري، ص ١٦١.
(٥٤) محمد جواد مغنية، الاسلام بنظرة عصرية، ص. ٤٣.
(٥٥) محمّد فريد وجدي، المستقبل للإسلام، ص ١٢٦.

غيرُه للناس ممّا هم فيه من شقوةٍ وعذابٍ وحَيرةٍ واضطراب»[٥٦]. وفي كل أمرٍ من أمور الدنيا والناسِ، كما يقول الدكتور قهر الدين يونس، تجدُ الحلَّ لمعضلتهِ في القرآن والاسلام: «لا حلَّ الاّ بالاسلام الذي يُعَبِّدُ الطريق في كلِ شيء. ويكونُ بوسعِه ان يوفّرَ لنا المخرجَ الى حدٍّ بعيد»[٥٧].

ويقول الدكتور خفاجي: ألإسلام «دينٌ جارى التطوّرَ في كل زمانٍ ومكان... ولم تقفْ أمامَه مشكلةٌ من المشكلات... دينٌ لا زالتْ أصولُه ودعواتُه حلمَ البشريةِ بعدَما وصلتْ اليه من تطوّرٍ وتقدّمٍ وحضارة... دينٌ وضَع أصولاً خالدةً لإصلاحِ جميعِ مجالاتِ الحياة... لم يقفِ الاسلامُ حائلاً أمامَ أيّةِ مشكلةٍ من مشكلاتِ الحياة، في كل عصرٍ وكل بيئة. بل وَجَدَ الحلولَ العادلةَ لكلِ ما جدَّ وما يَجِدُّ على سطحِ الأرض من جديد... حلّ جميعَ العصبياتِ وأبطَلها، وكلَ المشكلاتِ وأزالَها، وجميعَ العِقَدِ النفسيّةِ والروحيّةِ عند جميعِ الناس... قابَلَ الاسلامُ آلافَ الدعواتِ والمبادئ والأفكار الجديدة، ومع ذلك لم تستطِعْ إحداها أن تجاريَهُ في حيويّتِه، وبساطتِه، ومثاليتِه، وعِظَمِ مبادئه وأصولِه...»[٥٨].

كلُ إنسان، مهما كانتْ درجةُ وعيِه ونضجِه، والى أيّ معتقدٍ أو مذهبٍ أو إيمانٍ يَنتمي، يجدُ في الاسلامِ، كما يقول نعيم عطيّة: «نظامًا من القيمِ الاخلاقيّةِ والشرائعِ المدنيةِ التي تعطيه أجوبةً مفصّلَةً لما يعترضُه من مشكلاتِ الحياةِ اليوميّة»[٥٩]. و «لا ريبَ أنّ الدينَ الاسلامي خاتم أديانِ العالم، كما يقول البنّوري، كفيلٌ بكلِ ما يحدثُ الى يومِ القيامة»[٦٠]. بل «منذ بزغَ فجرُ الاسلام

---

(٥٦) محمد قطب، جاهلية القرن العشرين، ص ٣٢١.

(٥٧) الدكتور قهر الدين يونس، النظام الاقتصادي في الاسلام، في كتاب «الاسلام والمعضلات الاجتماعية الحديثة»، ص ١٢٨.

(٥٨) الدكتور محمد خفاجي، الاسلام ونظريته الاقتصادية، ص ١١.

(٥٩) نعيم عطيّة، عن أنور الجندي، الاسلام على مشارف القرن الخامس عشر، ص ١٩٦.

(٦٠) محمد يوسف البنوري، موقف التشريع الاسلامي من الاجتهاد ومنصب العقل في

الى اليـوم... والى مـا بعدِ اليـوم لم يُقْضَ أمـرٌ من أمـورِ هذا الكوكب دون أن يكونَ للاسلامِ فيه أثرٌ...»[٦١] كما يقول أنور الجندي.

ونسطيعُ القوَل، مع الشيخ محمّد جواد مغنيّة، إنّ «أيّ استكشافٍ يصلُ اليه العـقلُ البشري فهـو انتصارٌ لدينِ مـحمد والقـرآن. وأيّ عملٍ ينفَعُ الناسَ بجهةٍ من الجهاتِ فهو من هذا الدينِ في الصميم... وأيّ انسانٍ يَتْرُكُ أثرًا مفيدًا لأخيهِ الانسانِ فيه يلتقي بعَمَلِه هذا مع دينِ الله...»[٦٢].

وبالنتيـجةِ، وبفضلِ القـرآن، كانَ الاسلامُ، بحسب خـفاجي، «ثورةً لم تشهـدْها الانسانيةُ من قـبل ولا من بَعد، وإصلاحًا لـم يكن يحلَمُ به بشرٌ، ولا زلنَا حـتى اليوم لا نسـتطيعُ ان نصلَ الى مـداهُ الكبيـر... ثم استـمرَّ في مَـدِّهِ العظيمِ وانضـوَى تحتَ لوائه الملايين... مـستـبشـرين بعهـدِ الحريةِ والإخـاءِ والتعاونِ والعدالةِ والمساواةِ والرفاهيةِ لبني البشرِ جميعًا، وعاملين على تأثيلِ حضارةٍ ومدنيّةٍ جديدة لم تشهدْها البشريةُ من قبل»[٦٣].

وفي رأي الدكتـور الشيخ صبـحي الصـالح «إنّ الإسلامَ... أقـوى عامل ثوري يُخْرِجُ المجتـمعَ العصري من الرتابةِ والجمود، بما يـستطيعُ تقديمَه من الحلولِ في سبـيلِ الاصلاحِ العالمي المنشود... وقـد انطوتْ تعاليمُه الصـريحة على مبـادئَ واضحـةٍ كفيلةٍ، اذا مـا طُبِّقتْ، بإحـداثِ ثورةٍ شاملةٍ في مـيادينِ الاجتماعِ والاقتصاد...»[٦٤]. وكل ما في العالم من مذاهب معاصرة، «لقد سبقَ الاسلامُ هاتيك المذاهبَ في هذا المجالِ، بعدّة قرونٍ وأجيال»[٦٥].

الدين، في «الاسلام والتحدي الحضاري» ص ٧٣ .

(٦١) أنور الجندي، الاسلام على مشارف القرن الخامس عشر، ص ٣ .

(٦٢) محمد جواد مغنية، الاسلام بنظرة عصرية، ص ١٣ – ١٤ .

(٦٣) الدكتور محمد خفاجي، الاسلام ونظريته الاقتصادية، ص ٩ – ١٠.

(٦٤) الدكتور الشيخ صبحي الصالح، الاسلام والمجتمع العصري، ص ٩، ١٢ .

(٦٥) المرجع نفسه، ص ٢١ .

بل «ان كلَ الدلائلِ تشيرُ اشارةً حاسِمةً الى قدرةِ الشريعةِ الاسلاميةِ على وضع ما سمّيتُه بالصياغةِ المرنةِ والحلولِ الذكيّة لكل ما يحتاجُ البشرُ اليه في يومنا هذا »(٦٦). وبالعموم، إنّ الإسلامَ، في معتقد الشيخ الدكتور حسن صعب، هو «طريقُ حقيقةٍ وعقيدةٍ وشريعةٍ وحضارةٍ وعلمٍ وفسلفة»(٦٧).

٧ - الطمئنينة كلُّها في القرآن

« في الإسلام – وطبعا في القرآن –، كما يقول أحمد الدّومي، تجدُ الإنسانيّةُ القلِقَةُ طمأنينَتَها وهدايَتها»(٦٨). هذه الطمأنينةُ هي نفسُها التي أنعمَ اللهُ بها على رسولِه. وهذا القرآن «ما جعلَه اللهُ الاّ بُشرى لكم ولتطمئنّ قلوبُكم به»(٦٩). ونحنُ بالقرآنِ، ومع الرسولِ، على سكِينَةٍ من عندِ الرب العلي: لقد «أنزل اللهُ سكينَتَه على رسولِه وعلى المؤمنين»(٧٠).

و «الطمأنينة، كما يقول الدكتور الشرباصي، خُلُقٌ من أخلاق القرآن الكريم، تَحَدّثَ عنها في أكثر من موطنٍ، فقالَ في سورةِ البقرة: «قال: أو لمْ تؤمن؟ قال: بلى. ولكن ليطمئِّنَ قلبي» (٢/ ٢٦٠). وقال في سورة الرعد: «الذينَ آمنوا وتطمئنُ قلوبُهم بذكرِ الله، ألاَ بذكرِ الله تطمئنُّ القلوب » (١٣/ ٢٨). وقال في سورة الفجر : «يا أيتّها النفسُ المطمئِنّةُ ارجِعي الى ربِك راضيةً مرضية» (٨٩/ ٢٧)ألخ»(٧١).

---

(٦٦) المرجع نفسه، ص ٢٤ .

(٦٧) حسن صعب، الاسلام تجاه تحديات الحياة العصرية، ص ٤١ .

(٦٨) أحمد عبد الجواد الدومي، الاسلام منهاج وسلوك، ص ٨ .

(٦٩) القرآن : ٣/ ١٢٦ ، انظر ٨/ ١٠ .

(٧٠) ٩/ ٢٦، ٤٨/ ٢٦ ، انظر: ٩/ ٤٠، ٤٨/ ٤ و ١٨ .

(٧١) د. أحمد الشرباصي، موسوعة أخلاق القرآن، فصل «الطمأنينة» الجزء الاول، ص

ثمّ إنّ «القرآن الكريم هو أصدقُ رائـد الى هذا الايمان، وهو أقوى قاطع لذيل الشكِ والـريب، ومن هنا جـاء قـولُ الـله تبـارك وتعـالـى: «الذين آمنوا وتطمـئِنُ قلوبُـهم...»، لأنّ هؤلاءِ، اذا ذَكَـروا ربَّهم، وقـرأوا كـلامَـه، وتدبَّروا مغزَاه، خشعتْ قلوبُهم واطمأنّت»[٧٢].

وقد عبَّر المسلمون المؤمنون عـن هـاتين الفضيلتين: الطمأنينة والسكينة خيـرَ تعبـير في جمـيعِ ما وضـعوا من كتبٍ ومـقالات، وفي جـميعِ حـياتهم الإيمانيّة المستنيرةِ بالقرآنِ وسيـرةِ النبي؛ لقد وجدُوا، في كتابِ الله، حلاً لكلِ مشكلة، ومنهجًا لكلِ علم، وشـرْعًا لكلِ شريعة، ومرجعًا لكلِ مـعرفة، وأساسًا لكل خيـرٍ وصلاح، ونهـجًا مسـتقيـما لكلِ رأي، وقـاعدةً متـينةً لكل عقـيدة، واستقامةً لكل صراط، وهدى لكلِّ شريد، وموئِلاً لكلِ تائه، ومحجةً بيضاءَ لكلِ ضالّ، وخلاصًا للعالمين.

فـ «في الاسلامِ فـقط، كمـا يقول الدّومي، يجِدُ العـقلُ ما يوسِّعُ أفـقَه ويرشُـده الى طـريقِـه السـويّة... وفي الاســـلام يَجـدُ الفكرُ المـشلولُ النورَ الباعث... وفي الاسـلامِ تجدُ العواطف المسعـورةُ بالشهوةِ ما يهـذِّبُ غرائزَها ويسمو بها الى المثاليةِ الممكنة... ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم...»[٧٣].

ليس بعـد هذه الطمأنينة في قلب المسلم أو عـقله أيُّ قلق أو تمزّق. فـهو مطمئِنُّ البالِ والنفسِ والعاطفةِ والفكر. إنّه على يقينٍ من ربِّه وايمانِه بربِّه، لان كتابَه هو «الحقّ اليقين»[٧٤]. ولئن كان في قلبِ المسلم من قلقٍ فبسببِ بُعْدِه عن كتابِ الله: «ان أزمةَ القلق التي يعانيهـا المثقّفُ المسلمُ اليومَ انّما تعودُ الى أصلٍ واحدٍ، ومصدرٍ واحدٍ وهو انهّ تركَ مقوّماته الاســاسية وقيمَه... ولو انهّ التقَى

.٧٩

(٧٢) المرجع نفسه، ص ٨٠.

(٧٣) أحمد عبد الجواد الدومي، الاسلام منهاج وسلوك، ص ٨ .

(٧٤) القرآن : ٦٩/ ٥١.

بالفكرِ الاسلامي ... لما وقعَ في مثل هذا التمزّق أو هذه الازمة»[٧٥].

وعندما يكون «الإسلامُ كلُّه حقائق»[٧٦]، وعندما يؤمنُ المسلم «انّ الإسلامَ صُنْعُ الله الذي أتقنَ كل شيءٍ»[٧٧]، لا بدّ من أن يطمئنَّ ويرتاحَ من البحثِ والتفتيشِ والمعاناةِ والتعبِ والتفكيرِ المضني والحياةِ الصاخبةِ والقلقِ على اللهِ والخوفِ من مصيره وسعادتِه ان كان من الصالحين. «فالمستقبلُ للاسلام وإنْ جهلَ ذلك الجاهلون، أو تجاهَله المتعصّبون»[٧٨]. هكذا يقول محمّد فريد وجدي.

«ولنفترضِ القرآنَ مجرَّدًا من كل قداسةٍ دينيّة، ثم لننظرْ اليه كمصدرٍ تاريخيٍّ بحت. فماذا نجد؟ نجد أنّنا لا نملكُ كتاباً آخر، ولا أثراً تاريخيًا آخر في تاريخِ البشريّة كلّها، توافرتْ له أسبابُ التحقيقِ العلمي البحتة، كما توافرت لهذا الكتاب»[٧٩]. ومجرّد افتراضِ القرآن كلامًا بشريًا يوقِعُ البشرَ في حيرةٍ واضطراب ما بعدَه حيرة ولا اضطراب. من هنا ايمانُ المسلمينَ بطمأنينةِ النفسِ والقلبِ والعقل. وفي هذا يكمن سرُّ اعجازِ القرآن وسرُّ معجزته.

٨ – هذا الكتاب

إذا كان القرآن، كما رأينا، معجزةً في كلّ شيء، فإنّنا، في هذا البحث، لن نقفَ إلاّ عند معجزات نشأته، وجمعه، وحفظه، وتدوينه، ولغته، وأسلوبه...

---

(٧٥) أنور الجندي، الاسلام والدعوات الهدّامة، ص ٢٨٣ – ٢٨٤.
(٧٦) محمد الخضر حسين، المدينة الفاضلة في الاسلام، في كتاب «الاسلام والتحدّي الحضاري، ص ٢٩ .
(٧٧) المرجع نفسه، ص ٢٨ .
(٧٨) محمد فريد وجدي، المستقبل للاسلام، ص ٣٧ .
(٧٩) سيِّد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص ٢٠٥ .

وما عدا ذلك لا يدخل في نطاق بحثنا.

وفيما نحن نبحث في هذه كلِّها، أجزنا لنفوسنا، لكي نكونَ على اطمئنان أكبر، طرحَ أسئلةٍ عديدة. منها:

هل للقرآنِ مصدرٌ غيرُ الله؟ هل تمَّ نَقْلُ القرآنِ بأمانة؟ وهل هذا يَعني أنَّ حِفْظَ القرآنِ، وجَمْعَه، وقِراءَتَهُ، وبَيَانهُ، وتدوينَهُ، وانتشارَهُ، واستمرارَهُ... تمّتْ على يدِ جبريل ملَكيّ أم على يد جبريلٍ بشريٍّ؟

أين أنزلَ جبريلُ القرآن؟ ومتى ؟ وكيف؟ وعلى مَنْ أنزلَه؟ وأينَ كان قبلَ تنزيلِه؟ وعلى أيِّ لوحٍ دوَّنَه؟ ولِمَنْ أعطى شرفَ حفظِه وكتابتِه وتدوينه؟ ثم هلِ استطاعَ «النبيُّ الاميّ»، الذي يجهلُ القرآءةَ والكتابةَ، حفظَه كلَّه؟ هل عُصِمَ من آفةِ النسيان؟ هل وَجَدَ محمّد لكلِ الآياتِ الأزليّةِ مناسباتٍ في التاريخ؟ هل عُصِمَ كَتَبَةُ الوحي أيضا من أهوائِهم لِيدوِّنُوا بموضوعيّةٍ كلَ آياتِ القرآن؟ هل نُزِعُوا كلُّهم من أنانيّتِهم وقَبَليّتهم ومواقفهم السياسيّة العدائيّة؟ هل كانوا في ما دَوَّنُوا على اتّفاقٍ وعصمة؟؟ لئنْ كانَ كذلك – وهم بنظر المسلمين كذلك – فهم معصومون حقّاً كالرسولِ نفسه. وكمْ باركَ اللهُ هذه الأمّةَ لكي يكونَ فيها أكثرُ من خمسةٍ وأربعينَ رجلاً يتمتّعونَ بالتجرّدِ والصدقِ والامانةِ والايمانِ والتسامي والعصمةِ والشرفِ المجيد[٨٠].

ثم بعد، هل كان أبو بكر الصديق وعمرُ بن الخطّابِ وعثمانُ بن عفّان وعليّ بن أبي طالب على اتّفاقٍ وصراطٍ قويمٍ حتى يُجْمِعُوا على وَحْدَةِ كلامِ اللهِ ويَختلفوا في ما عدا ذلك؟ وهل كانتْ أمّهاتُ المؤمنين، حَفْصَةُ وعَائشَةَ وأمُّ سَلْمَةَ وزينب، على شيءٍ من الإتفاقِ حتى لا يَخْتَلِفْنَ في روايةِ القرآن؟ هل وصل القرآنُ إلينا واحدًا موحّدًا؟ فما دورُ مصاحفِ الصحابةِ إذاً؟ لماذ كانَ

(٨٠) أنظر في عدد كتبة الوحي: الاستيعاب ١/ ٣٠، وكتاب الوزراء والكتّاب ١٢، والعقد الفريد ٤/ ٢٤٦، وحاشية على الاصابة الخ...

لعليٍّ مِصْحَف؟ ولابنِ مسعود مصحف؟ ولأُبَيّ بن كَعْب مصحف؟ ولسَالمٍ مَوْلَى حُذَيْفَة مصحف؟ ولابنِ العبَّاسِ مصحف؟ ولِزَيْدِ بن ثابت مصحف؟ ولعائشة مصحف؟ ولحَفْصَة مصحف؟ ولأبي موسى الأشعري مصحف؟.. ولماذا قرّر أبو بكر جَمْعَ المصاحف؟ ولماذا اختارَ مِصْحَف زيد بن ثابت؟ ولماذا جَمَعَ عثمانُ المصاحف؟ ولماذ اختارَ مِصْحَفَ أبي بكر؟ ولماذ أحرقَ سائرَ المصاحف؟ وفيها كلِّها كلامُ اللهِ الذي لا عِوَجٍ فيه ولا اختلاف، وقد أقسَمَ اللهُ بـ «إِنَّا لهُ لَحَافِظون» ؟؟؟ (١٥/٩).

وحدَه القرآن بقيَ لنا من عهدِ النبي، وما كَتَبَهُ المُحَدِّثون وأصحابُ السِيَرِ والأخبارِ كَتَبُوهُ بعدَ مضيِ أكثر من مائة وخمسةٍ وسبعينَ عامًا على موتِ محمّد: فهل صدقوا في ما كتبوا؟ هل كان لهم مصادرُ ومراجعُ مِن أيّامِ النبي والصحابة؟ أينَ هي؟ لماذا أُتْلِفَتْ؟ ولماذا لم تَبْقَ؟ والمعروفُ أنّها دُوِّنَتْ – بحسبِ رواياتِ أهلِ الأخبارِ – على ألواحٍ من حجارةٍ وأكتافٍ من العظامِ، وأخشابٍ من النخيلِ، تَعْصَى على عواملِ الطبيعة ! فهل نَقَلَ أهلُ الأخبارِ ما نَقَلُوا بصدقٍ وأمَانةٍ وروحٍ علميّة؟ من الصعبِ تأكيد ذلك، بعدَ هذه المدّةِ من الزمن ! والخلافُ بينهم دليل.

ثم أيضا، ألم تترك الفتوحاتُ العربيّةُ أيَّ أثَرٍ في كلامِ الله؟ أَلَمْ يُضَفْ إلى كلامِ القرآنِ كلامٌ بشريٌ يُناسبُ الوضعَ السياسي المستجَد؟ أبَقِيَ نصارَى الشامِ والعراقِ، مَثَلاً، مع الفاتحينَ كما كانَ نصارى مكّةَ مع محمّد؟ أَيُعْقَلُ أن يكونَ نصارى سورةِ التوبةهم أنفسُهم نَصَارى سورةِ المائدة؟ أَيُعْقَلُ أن يكونَ رهبانُ «التوبةِ» «يأكلونَ أموالَ الناسِ بالباطل» (٩/ ٣٤)، ورهبانُ «المائدةِ» لا يستكبرون»؟ (٥/ ٨٢). وقل الشيءَ نفسَه عن أهلِ الكتابِ بالعمومِ، وعن الصابئةِ والمجوسِ واليهود، وانظرْ ما كانوا عليه أيّامَ محمّد وما أصبَحوا عليه عهدَ الفتوحاتِ والغزوات...

كلُّها أسئلة تخطرُ على البال. وغيرُها سَيُطْرَحُ في سياق البحث. ومع

هذا، لا بدّ من أسئلة أخرى حولَ ما رأينا في هذه المقدّمة. نقول:

هل من شأنِ الدين أن يحلّ مشاكل؟ أو أن يتنبّأ عن المستقبل؟ أو أن يحوي علومَ الارضِ والسماء؟ أوأن ينظّمَ علاقاتِ البشر بعضهم مع بعض؟ أو أن يَسِنَّ شرائعَ وقوانين؟ أو أن يكونَ له على الأرضِ دولة؟ هل من شأن الدين أن يتحدّى المدنيّةَ المعاصرة، أو أن يكونَ له فلسفاتٌ وعقائدُ ونُظُمٌ في المالِ والاقتصادِ، وأحكامٌ في ما بينَ الرجلِ وامرأتِه؟ وجهادٌ في سبيلِ فرضِ عقيدتِه وتعاليمه وشرائعه على الناس؟ ...

هذه أسئلة تُطرَح. ويطرحها العقل الإنسانيّ القلق، مؤمناً كان أم ملحداً. قد لا يجوز للمؤمن أن يرى اللّهَ قائماً بالعجائب والمعجزات. لأنّ اللّهَ، في مفهومنا، لا يتحدّى ذاتَه، ولا يتدخّلُ في حرّيات البشر، ولا يبدّل نظامَ الكون، ولا يغيّر مسارَ الكائنات، ولا يُلغي من العالم الشرَّ والألمَ والأمراض... لذلك، لن يكونَ لنا إيمانٌ قويّ بالمعجزات.

فالباحث يرى نفسَه، مع القرآن، في عالَمٍ من المعجزات. في حين أنّه، مع الإسلام، على دين الفطرة والطبيعة! ويرى أنّ اللّه، في القرآن، قد تجسَّدَ، فيما الإسلام يعلن أنّ اللّهَ "ليس كمثله شيء" (٤٢/١١)! ويرى الإسلامَ يحلّ العقدَ والمشاكلَ كلّها، فيما المسلمُ المؤمن لا يزال، مثل سواه، غنيّاً بالعقد والمشاكل والأمراض والمتاعب على ألوانها.

من هنا آثرنا لكتابنا عنوان "عالم المعجزات"، بمعنى أنّ القرآن، موضوع بحثنا، عالَمٌ كاملٌ من الحقائق والثوابت والحلول. عالمٌ غنيٌّ بالعلوم والقوانين.

الفصل الأوّل

معجزة الوحي والتنزيل

أولاً – إستمراريّة الوحي

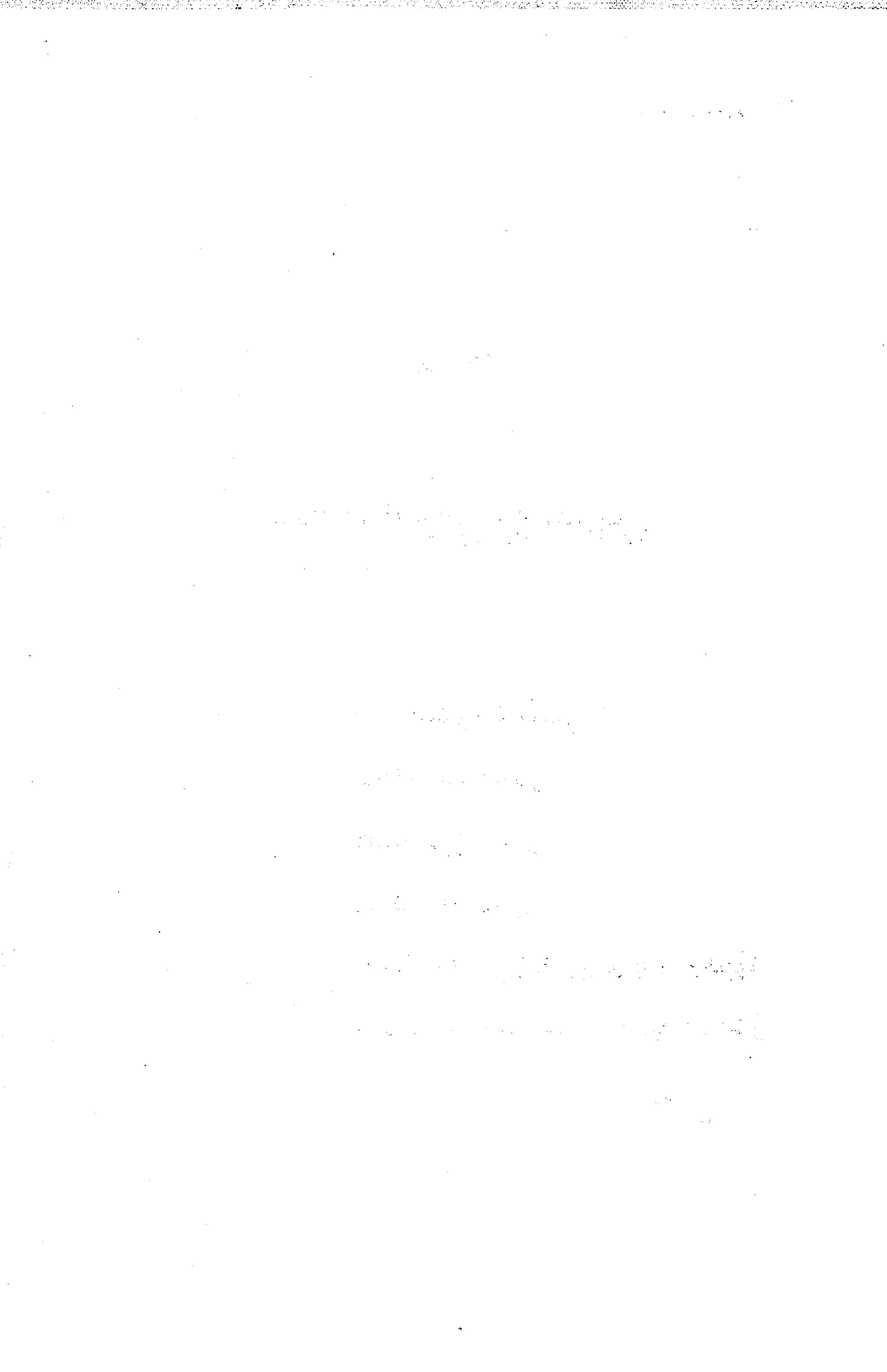
ثانيًا – معنى الوحي

ثالثا – طرق الوحي

رابعًا – بدء الوحي

خامسًا – الوحي والتنزيل والإلهام والنبوّة

سادسًا – بين النبي محمد والأنبياء السابقين



مقدّمة الفصل الأوّل

في إيمانِ المسلمين، إنّ اتصالَ الله بالنبيّ محمّد لم يكنْ وقتَ إنزالِ الوحي عليه وحسب، بل سَبَقَ ذلك الإتّصالَ اختيارٌ منذ الأزل. وإنْ لم نجدْ في القرآن دليلاً على هذا الإختيار، فانّ كتبَ السير والأحاديث النبويّةِ مليئةٌ بهذا الحدثِ الفريدِ العجيب. ولئنْ لم نهتّم في بحثِنا هذا بهذا الإختيار فلأنّ ذلك لا يدخلُ في نطاقِ ما نحنُ بصددِه، ولأنّه ليسَ في القرآنِ ما يشير إليه صراحةً.

ومع هذا لا بدّ من القول بأنّ صفحاتٍ شاسعةً من كتبِ المسلمين اهتّمتْ بتاريخِ محمّد الإلهي الى جانبِ اهتمامِها بتاريخِه البشري. وصَعَدَ أهلُ السِيَرِ بسلسلةِ نَسَبِ محمّد حتى انتَهَوا بآدمَ أبِ البشريّة. ومنهم مَنْ ابتعدَ أكثر فدخَل الجنّةَ ووجَد اسمَ محمّد محفورًا على أصول بعض أشجارها. وكم من التنبّؤاتِ ألمحتْ مُسْبَقًا الى مجيءِ نبيٍ أمّيٍ من هذهِ الأمّة العربيةِ التي حُرِمَتْ من النبوّةِ في الوقتِ الذي كانتْ أختُها اليهودية تَنْعَمُ بفَيْضِ النبوّاتِ والأنبياء.

لقد آن الأوان ليكونَ لهذه الأمّة نبيٌّ، وأيُّ نبيٍّ! إنّه خاتَمُ الأنبياء، ودينُه تمامُ الأديان، وشريعتُه كمالُ الشرائع، وكتابه وحيٌ من الله وتنزيل، لا اختلافَ فيه ولا عِوَج، انه كتابٌ بلسانٍ عربيٍّ مُبين. وكفى هذه الأمّةَ هذا الإختيارُ حتى تكونَ «خيرَ أمّةٍ أُخْرِجَتْ للناس»(٣/ ١١٠).

فبناءً على إيمان المسلمين بنبوّة محمّد، وبالوحي الذي أُنزِلَ عليه، وبالقرآن الذي حوى كلامَ الله، وأكملَ الكتب التي سبقته، وصدّقها، وكان خاتمتها... لا بدّ من معالجة الموضوعات التالية: إيمان المسلمين باستمراريّة

الوحيِ من الأنبيـاء السـابقين حــتّى محمّــد، ومعنى الوحي في القــرآن وطرقه وكيفيّة بدايته، ثم الفـرق بين الوحي القرآني والوحي السـابق... بهذه، وغيرها، تتضح لنا أمورٌ عديدة.

أوّلاً - استمراريّة الوحي

في إيمان المسلمين، إنّ الوحي الذي نزل على محمّد هو نفسُه نزل على الأنبياء السابقين. ومحمّد نفسُه يعتبر نفسه من جملةِ هؤلاء الأنبياء السابقين. وهذا ليسَ من كتبِ السيرَ والأخبار فحسب، بل من القرآنِ ذاته. و«لم يكنِ الوحيُ الذي أيدّهم (أي الانبياء) بهِ اللهُ مخالِفًا الوحيَ الذي أيّدَ به محمّدًا ، بل كانت ظاهرةُ الوحيِ متماثلةً عند الجميع، لان مصدرَها واحد، وغايَتها واحدة»[1].

وجاء في القرآن : «إنّا أوحينا اليكَ كما أوحينا الى نوحٍ والنبييّن من بعدِه، وأوحينا إلى إبراهيم واسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيّوب ويونس وهارون وسليمان، وآتينا داوود زبورًا، ورُسُلاً قد قصصناهم عليكَ من قَبْل، ورسُلاً لم نقصصهم عليك. وكلّم اللهُ موسى تكليماً» (٤/ ٦٣و١٦٤).

ووحي الله على محمد كوحيهِ على مَنْ سَبَقَه سواءٌ بسواء. وكان محمد يَعي ذلك: «كذلك يُوحي اليكَ والى الذينَ من قبلِكَ اللهُ العزيزُ الحكيم» (٤٢/ ٣)، وأيضا : «أوحى اليك والى الذين مِن قبلك» (٣٩//٦٥).

هذا الوحي هو من عند الله، وليسَ لمحمد أن يبدّلَ فيه أو أن يعطيه من تلقاءِ نفسه، أو أن ينطقَ به على هواه، أو أن يختارَ اتّبَاعَه بحسب ما يشاء. قال: «قل: ما يكون لي أن أبدِّلَه من تلقاءِ نفسي، أنْ أتّبع الاّ ما يُوحَى اليّ» (١٠/

(١) الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص٢٢ عن الطبري، ٦/ ٢٠ .

١٠)، و «قل: إنّما أتبع ما يُوحى الـيّ من ربّي» (٧/٧)، وقال : «... وما ينطِقُ عن الهوى، إنْ هو إلاّ وحيٌ يُوحَى» (٥٣/١-٤).

وما نزل على محـمد من وحي كان «تبيَانًـا » لما أُنزلَ من قَبل. وكان همُّ محـمّد أن يُظهـرَ للناسِ كلَ ما أُنزلَ على الأنبـياء. فـهو يأخـذُ منهم، ويعتـمدُ عليهم، وينقُلُ عنهم، ويستوحِي أخبارهم، ويَسرِدُ قَصَصَهُم، ويتمثّلُ بأمثالِهم، ولا يفرِّطُ في كتـابِه بشيء... وذلك ليبيّنَ للعربِ كلّ مـا أُنزلَ على أهلِ الكتاب. قال: «أنزلْنَا اليكَ الـذكرَ لتبيّـنَ للناسِ ما نُزِّلَ إليهم» (١٦/٤٤). وقـال أيضـا: «أخذ اللهُ ميثاقَ الذين أوتوا الكتابَ لتبيّنَه للناس»[٢]...

وشــهدَ على اسـتمـراريّةِ الوحي هذه كثـيرون ممّنْ يعـرفون التـوراةَ والإنجيل. فمـحمّد يعتبر أهلَ الكتـابِ على علمٍ بما في القرآن: «والذين آتيناهم الكتابَ يعلمـون أنّه منزلٌ من ربِّكَ بالحقّ»[٣]. بل هم يفرَحُـون بما جاءَ فـيه : «الذين آتيناهم الكتابَ يفـرحونَ بما أُنزلَ اليك» (١٣/٣٦). والناسُ جمـيعُهم، كتابيّينَ كـانوا أم أمّيين، يؤمنون بما أُنزِلَ على محـمـد وبما أُنزِل من قبلُ سواءٌ بسواء: «والراسخون في العلم منهم (من أهل الكتاب) والمؤمنون (من العرب) يؤمنون بما أُنزِل اليك (القرآن) وما أُنزلَ من قـبلِكَ (التوراة والإنجيل)» (٤/ ١٦٢). والمسلمون حقًا هم القـائلون : « آمّنا بالله وما أُنزلَ من قَبل» (٥/٥٩). ويحدّد القرآنُ موقِفَه منهم بقوله: «يا أهلَ الكتاب لَسْتُم على شيءٍ حتى تُقيمُوا التـوارةَ والانجيلَ ومـا أُنزِلَ إليكم» (٥/٦٨)، والمؤمنـون (كلّهم) يؤمنون بما أُنزِل اليكَ وما أُنزلَ من قبلِكَ» (٤/٢١٢ و٦٠؛ ٢/٤).

وفي الحقـيقـةِ، إنّ أهلَ الكتابِ يشــهدون على اسـتمـراريةِ الوحي من التوراة إلى الإنجـيل إلى القرآن. ويشــهدون على صحـةِ الوحي والتنزيلِ على مـحمّـد: «إنْ كنتَ في شكٍّ مما أنـزلْنا اليكَ فاسـألِ الذينَ يَقـرأون الكتـابَ من

(٢) سورة آل عمران ٣/١٨٧ ، انظر : ١٦/٨٩ .

(٣) سورة الانعام ٦/ ١١٤، انظر ٣٤/٦ .

قبلك» (١٠/ ٩٤). واذا كان أتْبَاعُ محمّد من العربِ والأعرابِ ممّنْ لا يستطيعون فَهْمَ الوحيِ القرآني فما عليهم إلاّ أن يَسألوا أهلَ الكتابِ. فهو يوصيهم. بذلك : «إسألوا أهلَ الذكرِ إنْ كنتمْ لا تَعلمون»[٤].

وَحْدَةُ الوحي هذه جعلتْ من المؤمنينَ برسالةِ محمّد مع المؤمنينَ برسالةِ موسى وعيسى واحِدًا. فشريعتُهم واحدة : «نشرّع لكم من الدين ما وصّى به نوحًا» (٤٢/١٣)، وهي «سنّة مَن قد أرسلنا قبلَك من رُسُلِنا» (١٧/٧٧)، و«لن تجدَ لسنّةِ الله تبديلا»[٥].

وبوحدةِ الشريعةِ لا بدّ من أن يتوحّد المؤمنون في أمّةٍ واحدةٍ، هي أمّةٌ وَسَط (٢/ ٤٣)، مقتصِدَةٌ في عقيدتِها (٥/٦٦)، بسيطة في شريعتِها بسببِ ضعفِ الإنسانِ العربي[٦]. وهي دعوةٌ قرآنيّة ملحّة إلى الوَحدَة بين المؤمنين: «أقيموا الدينَ، ولا تَفرّقوا فيه» (٤٢/ ١٣)، و «اعتصموا بحبلِ الله جميعًا ولا تَفَرّقوا» (٣/ ١٠٣). وهي دعوةٌ استجابَ لها محمّدٌ وأتباعُه : «لا نفرّقُ بين أحَدٍ منهم . ونحنُ له مسلمون»[٧]. وقال أيضا: «لا نفرّقُ بين أحدٍ من رسله» (٢/ ٢٨٥). ووصَفَ أتباعَه بـ«الذين آمنوا باللهِ ورسلِه، لم يفرّقوا بين أحدٍ منهم»[٨]، ونَصَحَهُم قائلاً : «لا تكونوا من المشرِكين من الذينَ فَرّقوا دينَهم وكانوا شِيَعًا»(٣٠/ ٣٢) ، وأيضا: «لا تكونوا كالذينَ تفرّقوا واختَلفوا» (٣/ ١٠٥).

وبوحدةِ الوحي والشريعةِ توحّد المؤمنونَ جميعًا حتى أصبحوا «أمّةً واحِدَةً» (٣٣/ ٥١)، وأعلنوا ايمانَهم بقولهم: «آمنّا باللهِ، وما أنزِل الينا، وما

---

(٤) ١٦/ ٤٣، ٢١/ ٧.

(٥) ٣٥/ ٤٣ ، انظر : ٦/ ٣٤، ١١٥، ٤٨/ ٢٣، ١٨/ ٢٧، ١٠/ ٦٢ الخ ...

(٦) ٨/ ٦٦، ٢/ ١٨٥، ٤/ ٢٨ ... وما سواها من آيات كثيرة.

(٧) ٢/ ١٣٦، ٨٣ - ٨٤.

(٨) ٤/ ١٥٢ . وآيات أخرى كثيرة. أنظر كتاب «قس ونبي» لأبي موسى الحريري.

أُنزِلَ من قبل»[٩].

هذا هو الوحي المحمّدي. لا شيء فيه جديد، سوى انّه خفّف عن كاهلِ الأمّةِ العربيّة بعضَ عُسْرِ شريعةِ أهلِ الكتاب، وذلك بسبب ضعفِهم[١٠]. وقصّةُ معراجِ محمّد على السماواتِ شهيرةٌ في سبيلِ الطلبِ من اللهِ التخفيفَ عن أمّتِه[١١].

---

(٩) ٥/٥٩، ٤/١٣٦

(١٠) ٨/٦٦، ٤/٢٨

(١١) أنظر قصّة الإسراء والمعراج، في سورة الإسراء ١٧/١، في تفاسير القرآن، أمثال النسفي، والنّيسابوري، والفيروزابادي، وابن الخازن، وفخر الدين الرازي، والطبري، والطبرسي، والقرطبي، وابن كثير، وسيّد قطب، والجلالَين،...

ثانيًا – معنى الوحي

وردت لفظةُ «الوحيّ» ومشتقّاتُها في القرآن حوالي ثماني وسبعين مرّة. وليستْ كلّها بمعنى واحد. وقد نستطيعُ حصرَ معانيها بما يلي :

١ً – من الوحيِ ما هو بمعنى الإلهامِ الفطري للانسان وهدايته، كقوله : «وأوحينا إلى أمِّ موسى أنِ ارضِعيه» (٢٨/٧)، وقوله : «واذ أوحيتُ الى الحواريّين أنْ آمنوا بي وبرسولي» (٥/١١١).

٢ً – ومن الوحيِ أيضا ما هو بمعنى الإلهام الغريزي للحيوان وتوجيهه، كقولِه : «وأوحى ربُّكَ الى النحلِ أنِ اتَّخذي مِنَ الجبال بيوتًا» (١٦/٦٨).

٣ً ومن الوحي ما هو بمعنى الإشارةِ السريعةِ التي تكون بالرمزِ والإيحاء والرؤيا والكتابة والإيماء، كما في قوله عن زكريّا: «فخرج على قومِه من المِحراب، فأوحَى اليهم أن سَبِّحوا بكْرَةً وعَشِيًّا» (١٩/١١).

٤ً – ومن الوحي ما يتعلّقُ بوسواسِ الشيطان وإيحائه للانسانِ الشرَّ والغرور. قال : «وكذلك جَعَلنا لكلِّ نبيٍّ عدُوًا : شياطين الجنِ والأنس، يُوحي بعضُهم الى بعضٍ زخرفَ القولِ غرورا» (٦/١١٢)، وقال أيضا: «وإنّ الشيَاطينَ لَيُوحُونَ الى أوليائِهم ليُجَادِلوكم» (٦/١٢١).

٥ً – ومنه أيضا «ما يُلقيه اللهُ الى الملائكةِ من أمرِه ليفعلوه من فَورِهم»[١٢] كقولِه : «اذ يوحي ربُّك الى الملائكة أنّي معكم. فثبّتوا الذين آمنوا»

(١٢) الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٢٤ .

(١٢/٨). هذا الوحي هو الهامٌ سريع، لا اشارةَ فيه ولا رموز.

٦ – أمّا الوحي الذي يَحمِلُه النبيُّ محمّد الى الناسِ ليبلّغَهم مضمونَه فهو كالوحيِ الذي كلَّفَ اللهُ به مَلاكَه جبريلَ لِيَنْقُلَه إلى الأنبياء . وبذلك يكونُ ما جاء به جبريلُ محمّداً من وحيٍ هو تنزيلٌ عليه من ربِّ العالمين[١٣]

هذا المعنى الأخير للوحي يكونُ من الله على رسلِه وأنبيائِه[١٤]، مباشرةً أو بواسطةِ ملاكِ الوحي، ويكونُ أيضا برؤيا ليليةٍ أو نهارية، أو يكونُ بظهور الملاكِ نفسِه بهيئة رجلٍ على النبي، أو أيضا بغَير ذلك، كما سنرى.

---

(١٣) أنظر سورة الشعراء ١٩٢/٢٦ – ١٩٥، والنساء ١٦٣/٤ – ١٦٤.

(١٤) لقد أوحى الله إلى الرّسل والانبياء وغيرهم (١٦٣/٤؛ ٧/٢١ و٢٥ و٧٣؛ ٦٥/٣٩؛ ٢/٤٢ و١٣ و٥١)؛ وأوحى إلى نوح (٣٦/١١ و٣٧؛ ٢٧/٢٣)؛ وإلى يوسف (١٥/١٢)؛ وإلى موسى وهارون (١١٧/٧ و١٦٠؛ ٨٧/١٠؛ ١٣/٢٠ و٧٧؛ ٥٢/٢٦ و٦٣)... إلخ.

ثالثاً - طرق الوحي

هناك، بحسب القرآن وكتب السِيَر، عدّة طرقٍ أو صُوَرٍ لإبلاغِ الوحي؛ بها اتّصلَ اللهُ بأنبيائه، كلٌّ بحسبِ ظروفِه وأحواله. وأشارتْ إلى بعضِ هذه الطرق سورةُ الشورى في قولها: «وما كانَ لِبَشَرٍ أنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ الاَّ وحيًا أو مِن وراء حِجابٍ، أو يُرسِلَ رَسُولاً (ملاكا) فيوحِي بإذنِهِ ما يَشاء» (٤٢/٥١).

١ - أوّلُ الطرقِ اذاً، الوحيُ، بمعنى الالهامِ المباشَر؛ أي ان اللهَ يُلقي كلمتَه في قلبِ رسوله وروحِه، وينفثُ المعنى في رَوعِه، كقولِ حديثٍ نبويٍّ جاء فيه: «إنّ روحَ القدسِ (أي الملاك جبريل) نَفَثَ في روعي أنّه لن تموتَ نفسٌ حتى تستوفيَ رزقَها...»[١٥].

٢ - والطريقةُ الثانية تقوم في أن يوحي اللهُ الى نبيِّه كلامًا يسمعُه من وراءِ حجاب، دون أن يَرى النبيُّ المتكلِّمَ، وذلك كما نادَى اللهُ موسى من وراءِ الشجرة وسمعَ موسى نداءَه[١٦]، وكما حدثَ لمحمّد وهو في معراجِه على الأنبياء[١٧].

٣ - والثالثة أن يكونَ الوحيُ بوساطةِ المَلكِ جبريل، ملاكِ الوحي الأمين، الروح القدس، الذي أرسلَه اللهُ الى محمّد، والى غيرِه من الأنبياء، بصورةِ رجلٍ. ويبدو أن القرآنَ كلَّه نزَلَ بوساطتِه ، كما جاءَ: «نَزَلَ به الروحُ

---

(١٥) سيرة ابن هشام ١/ ٢٢٠ حاشية (١).

(١٦) أنظر سورة النساء ٤/ ١٦٤ ، وسورة طه ٢٠/ ١١ - ١٤ .

(١٧) سورة النجم ٥٣/٨ - ١٠ ، وسورة الإسراء ١٧/ ١ ...

الأمين على قلبكَ لتكونَ من المنذرين بلســانٍ عربيٍّ مبين[١٨]، وجاء أيضا، «قل نزّله الروحُ القدسُ من ربِّك بالحقِّ ليثبِّتَ الذينَ آمنوا» (١٦/ ١٠٢).

وأمّــا في كتب الحــديثِ والسيَــرِ النبــويّة فهناك صُــوَرٌ أخرى لحـدوث الوحي وتنزيلِه على محمّد. وهي، على غَرَابَتِها، تفسِّرُ بعضَ ما جاء في القرآن

جاء على لسان عــائشة قولُها: «أوّلُ مــا بُدِئ به رسولُ اللهِ (صلعم) من الوحي الــرؤيا الصــالحـــة في النوم، فكــان لا يَرى رؤيَا الاّ جــاءتْ كَــفَلَقِ الصبح»[١٩]. وحــدثَ مثلُ هذه الرؤيا لإبراهيمَ وإســمعــيل[٢٠]، ولكن «لم يثبتْ ثبوتاً قاطِعاً أنّ شيئًا من القرآنِ نزلَ عن طريقِ الرؤيا المناميّة»[٢١].

***

أمّا كــيفيّــةُ نزولِ الوحي على النّبي فكانتْ بأحــوال مختلــفة ومتــعدّدة: أحيانًا كــان يأتيهِ بعنفٍ وجهدٍ وتعبٍ وثقلٍ وشدّة. وقد عــبّرَ الرسولُ عن ذلك بقوله: «أحــيانًا يأتيني مثل صَلصَلة الجَــرَسِ، وهو أشدّهُ عليَّ. فيـفصم عنّي، وقد وعيتُ عنه ما قال»[٢٢]، كما عبّرتْ أيضا عــائشة بقولها: «ولقد رأيتُه ينزلُ عليــه الوحيُ في اليــوم الشديدِ البــردِ، فــيفــصم عنه، وأنّ جــبينَه لَــيتــفصَّــد عَرَقًــا»[٢٣]، وكــذلك ابنُ عــبّــاس قــالَ: «كان رســولُ اللــه يُعالِــجُ من التنزيل شِدّة»[٢٤].

---

(١٨) سورة الشعراء ٢٦/ ١٩٣-١٩٥.

(١٩) صحيح البخاري ١/ ٣، ابن هشام ١/ ٢١٦ ...

(٢٠) سورة الصافات ٣٧/ ١٠٢ – ١٠٥ .

(٢١) الدكتور عبد المنعم النمر، علوم القرآن الكريم، ص ١٧ .

(٢٢) صحيح البخاري ١/ ٢ – ٣ .

(٢٣) المرجع نفسه ١/ ٣ ... أنظر ما جاء في كتب الســير جميعها، فهي على وفــاق تام فيما بينها بما يخصّ كيفية نزول الوحي على الرسول.

(٢٤) صحيح البخاري ١/ ٣ .

وعن السيرةِ الحلبية جملةُ أحوال تنقلُها عن مصادرَ عديدة. تقول في وصف حالِ النبي آن يأتيهِ الوحيُ بأنه «كانَ يُغطُّ كغطيطِ البكر المحمَّرةِ عيناه»[٢٥] . وعن زيد بن ثابت قوله: «كان أذا نزل الوحيُ على رسولِ الله ثقلَ لذلك، ومرَّةً وقع فخذُه على فخذي، فواللهِ، ما وجدتُ شيئا أثقلَ من فخذِ رسولِ الله». ويضيف : «ربّما أُوحِيَ اليه وهو على راحِلَتِهِ (ناقته) فترعَدُ حتى يُظَنَّ أنَّ ذراعَها ينقسِم. وربّما بَركتْ ... فلم تستطعْ أن تحمِلَه، فينزِل عنها»[٢٦].

وفي روايات كثيرة أيضًا جاءَ على لسان رسولِ الله قولُه : «ما مِن مرَّةٍ يُوحى اليّ الاّ ظننتُ أنَّ نفسي تُقبَضُ منّي». وعن أسماء بنت عميس: «كان رسول الله، اذا نزل عليه الوحيُ يكادُ يُغشى عليه... ويصيرُ كهيئةِ السكران»[٢٧]. وعن محيي الدين : «كان اذا جاءَه الوحيُ يستَلقي على ظهره». وسببُ ذلك «لم يبقَ للجسمِ مَن يحفَظُ عليه قِيامَه ولا قُعُودَه فيرجِعُ الى أصلِه وهو لُصوقُه بالأرض»[٢٨].

وعن أبي هُرَيرة: «كان رسولُ الله، إذا نزل عليه الوحيُ صدَع، فَيُغَلِّفُ رأسَه بالحناء». وعنه أيضا: «كان رسولُ الله، اذا نزل عليه الوحي لم يستطعْ أحدٌ منّا يرفعُ طَرْفَهُ اليه حتى يَنقضي الوحي». وسبب ذلك انّ الرسولَ، حين الوحي، تستقبله الرعدة والكرب، فيتربّدُ وجهُه ويُغمضُ عينيه، ويُسمَع عند وجهِه كَدوِيِّ النحل، ويضطرب ارتعاشًا، وينوءُ تحتَ النوبات العصبية والإرهاصاتِ العاطفية، ويرزح تحتَ ثقل ملاك الوحي. وقد جاء في حديث خديجة عن حال النبي ما يلي :

---

(٢٥) السيرة الحلبية ١/٢٥٧.

(٢٦) المرجع نفسه.

(٢٧) المرجع نفسه.

(٢٨) المرجع نفسه، ١/٢٥٧ – ٢٦٣ .

«سـألتْ خـديجـةُ زوجهَـا قـائلة: إيْ إبنَ عمّ! أتسـتطيعُ أن تُخـبـرَني بصاحِبكَ هذا الذي يأتيكَ اذا جاءك؟ قال : نعم. قالت : فاذا جاءكَ فأخبرني به. فجـاءَ جبـريل عليهِ السـلام، كما كـان يَصنع. فقـال رسول الله لخـديجة : يا خـديجة! هذا جـبريلُ قـد جاءني. قـالت : قم يا ابنَ عمّ، فـاجلسْ على فَخْـذي اليُسْـرَى. فقامَ رسـولُ اللهِ فجلسَ عليـها. قالت : هل تراه؟ قـال : نعم. قالت: فتـحوّلْ فاجلِسْ على فخـذي اليُمْنَى. فتـحوّلَ رسولُ الله فجلسَ على فـخذها اليمنى. فقالت: هل تَراه؟ قال : نعم. قالت : فتحوّلْ فاجلسْ في حِجْري. فتَحَوَّلَ رسولُ الله فجلَسَ في حجرِها. قالت : هل تراه؟ قال : نعم ... فَتَحَسَّرَتْ وألقتْ خمارَها ورسولُ الله جالسٌ في حـجرها. ثم قالتْ له: هل تراه؟ قال: لا . قالت: يا ابنَ عمّ! أثبتْ . وأبشِرْ. فواللهِ، إنّه لَمَلَك. وما هذا بشيطان»[٢٩].

أمّا عبد الله بن حسن فقد سمع أمّـه فاطمة تحدّثُه عن خديجة، تقول له: «انّي سمعتُها (أي فاطمة سمعت خديجة) تقول: أدخلتْ رسولَ الله بينها وبين درعهـا. فذهب عـند ذلك جبـريل. فقـالت لرسول الله : ان هذا لَمَلك. ومـا هو بشيطان»[٣٠].

هذه الحـالاتُ الشديدة التي كـانت تنتابُ النبيّ كـشفَ القرآنُ عنهـا في قوله : «انّا سَنُلقي عليكَ قَـولاً ثقيلاً»[٣١]. هي حقّا كانت علـيه شديدةً حتى أنّه كان يَنوي إلقاءَ نفسـهِ من على رأسِ الجبل لمعاناتهِ مع رسولِ الوحي...

---

(٢٩) سيرة ابن هشام ١/ ٢٢٣ .

(٣٠) المرجع نفسه.

(٣١) سورة المدّثر ٧٤/ ١ – ٥ ، سورة المزمّل ٧٣/ ١ – ٥.

رَابعًا – بدء الوحي

يُجمع المسـلمون على أنّ أوّلَ ما نزل من القـرآن كانَ في غَـارِ حِرَاء، في شهرِ رمـضان، في ليلةِ القَدْرِ المباركة. وأوّلُ آية نزلـتْ كانتْ من سورةِ العَلَق. وبيانُ المسلمين على ذلك لا يستـقصيه عِلمٌ لكثرةِ الشهـودِ والأحاديثِ النبويّة المنقولةِ إلينا بالطريق الصحيح.

١ – مكان النزول

نقل إلينا ابنُ هشـام عن ابنِ اسحق عن عـبدِ الملك بن عـبيـد الله بن أبي سفـيان: «انّ رسـولَ الله، حينَ أراده الله بكرامـته، وابتـدأه بالنبـوّة، كان، إذا خرَج لحاجتِه، أبْعدَ حتى تَتحَسَّرَ عنه البيوت، ويُفضِي الى شِعابِ مكّة وبطونِ أوديتِها، فلا يمرّ رسولُ الله بحَجَـرٍ ولا شَجَرٍ، إلاّ قالَ: السلامُ عليكَ يا رسولَ الله. قال: فـيلتفتُ رسـولُ اللهِ حولَه وعن يمينِه وشـمالهِ وخَلْفَـه فلا يَرى الاّ الشجرَ والحجارة. فمكثَ رسول اللهِ كذلكَ يَرى ويسمع، ما شاءَ الله أن يمكثَ. ثم جاءَه جـبريلُ عليه السلام، بما جـاءَه من كرامةِ الله، وهو بِحرَاء فـي شهر رمضان»[٣٢].

وعن وهب بن كَيسان قال: سمعتُ من ابنِ الزُّبَيْر قال: «كان رسولُ الله

---

(٣٢) سيـرة ابن هشام ١/٢١٧، أنظر الروض الانف١/٢٦٦، صحـيح مسلم، وصـحيح البخاري، والسنن، والأسـانيد، والصحاح كلّهـا في باب: بدء الوحي من الجزء الاول

يجاورُ حِراء من كلِ سنةٍ شهرا... حتى اذا كانَ الشهرُ شهرَ رمضان من السنة التي بعثه الله فيها»[٣٣]. وتشهدُ عائشة على ذلك بقولها: «... وكانَ يخلو بغارِ حِرَاء، فيتحنّثُ. والتحنّثُ هو التبرّر»[٣٤]، «التعبّد الليالي ذوات العدد»[٣٥].

٢ - أوّل ما نزل من القرآن

استمرّ النبيّ يتردد على غار حِراء، طوال خمسَ عشَرَةَ سنة، برفقةِ القسِ ورقة بن نوفل وعنايتِه، وكان هناك يتعبّدُ ويصلّي ويرتاضُ ويصوم، الى أن «جاءَه الحقّ، وهو في غار حِراء. فجاءه المَلَك فقال : إقرأ. قال : ما أنا بقارئ. قال: فأخذَني فَغَطّني حتى بَلَغ منّي الجُهد. ثمّ أرسلني. فقال: إقرأ. قلتُ : ما أنا بقارئ. فأخذني فغطّني الثانية حتى بلغ منّي الجهد. ثم أرسلني. فقال : إقرأ. فقلتُ : ما أنا بقارئ. فأخذني فغطّني الثالثة. ثم أرسلني. فقال : إقرأْ باسمِ ربّكِ الذي خَلق، خَلَقَ الانسانَ مِن عَلَق، اقرأْ وربّك الاكرم... إلى آخر الآية»[٣٦] .

«فرجع بها رسول الله يرجفُ فؤادهُ، فدخَل على خديجة بنتِ خُوَيْلِد، فقال : زمّلوني زمّلوني. فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع. فقال لخديجة، وأخبرها الخبر: لقد خشيتُ على نفسي. فقالتْ خديجة: كلاّ. والله! ما يخزيكَ اللهُ أبدا. انّك لَتَصلُ الرَحِمَ، وتحمِل الكَلَّ، وتُكسبُ المعدومَ ، وتُقري الضيفَ، وتُعينُ على نوائبِ الحقّ.

«فانطلقت به خديجة حتى أتتْ به ورقةَ بن نوفل بن أسد بن عبد العزّي،

---

(٣٣) سيرة ابن هشام ١/٢١٧ - ٢١٩ وما بعد ...

(٣٤) سيرة ابن هشام ١/٢١٨ وما يلي، انظر في مجمل كتب السير ...

(٣٥) صحيح البخاري، ١/٣، انظر صحيح مسلم، في بدء الوحي .

(٣٦) سورة العلق. رقم ٩٦، وهي، بإجماع المسلمين، أوّل ما نزل من القرآن.

إبن عمّ خديجة، وكان امرءاً تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتبُ الكتابَ العبراني فيكتبُ من الإنجيلِ بالعبرانية ما شاءَ الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عَمي، فقالت له خديجة : يا ابنَ عمّ! إسمعْ من ابنِ أخيك. فقال له ورقة : يا ابنَ اخي! ماذا تَرى ؟ فأخبَره رسولُ الله خبرَ ما رأى. فقال له ورقة : هذا الناموسُ الذي نزّلَه اللهُ على موسى، يا ليتَني فيه جذعا. ليتني أكون حيًّا اذا أخرجَك قومُك. فقال رسول الله: أوَمُخْرِجيّ هُمْ ؟ قال : نَعم. لم يأتِ رجلٌ قطّ بمثلِ ما جئتَ به إلاّ عُودِيَ. وإنْ يُدركْني يومُك أنصرْكَ نصرًا مؤَزَّرا. ثمّ لم يَنْشَبْ وَرَقَة أنْ تُوفّيَ وفَتَرَ الوحيُ»[٣٧].

هكذا ابتدأ الوحي، وهكذا كان أوّلُ ما أوحي به الى محمّد. ولكنّ موتَ القّس لم يكن الاّ بعد ثلاث سنين أو أربع من بدء الرسالة النبويّة. والبخاري، الذي نقلنا عنه هذا النص، يتابع كلامَه في ما أُنزلَ من وحي على النبي بعدَ انقطاعِه عنه حوالي ثلاثَ سنين. وبعد ذلك استمرّ الوحيُ ينزل على الرسولِ بحسب الظروفِ والمناسباتِ طوالَ ما يقاربُ ثلاثاً وعشرينَ سنة.

٣ - كيفيّة التنزيل

في إيمان المسلمين، إنّ القرآن نزل من اللوح المحفوظ الى السماءِ الدنيا جُمْلةً واحدةً ، ولكنّ محمّدا لم يتلقّاه الاّ مُنَجَّمًا، أي أنّه أنزلَ على محمّد آيةً آية، أو كلَ خمسِ آيات، أو عشر آيات، أو أكثر أو أقل[٣٨].

والحكمة من تَنْجيمِه مُضاعفة : إنّها حكمةٌ بالنسبة الى النبيّ، وذلك لكي «يظلَّ الوحيُ متجاوبًا مع الرسول، يعلّمُه كلَ يوم شيئًا جديدا، ويرشدُه

---

(٣٧) صحيح البخاري، ١/ ٣-٤ .
(٣٨) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن ١/ ٧٣ .

ويهدِيه، ويثبّتُه ويزيدُه اطمئنانا»،[٣٩]. وفي ذلك شهادةٌ من القرآن نفسه بقوله : « وقـال الذين كفـروا : لولا نُزِّلَ عليه الـقرآنُ جـملةً واحدة»، ويجـيب الله : أنزلناه «كذلـك لنثبّت به فؤادَك. ورتّلـناهُ ترتيلا»[٤٠] . ويقول أيضـا: «وقرآنا فرقناهُ لتقرأه على الناسِ على مُكْثٍ. ونزّلناه تنزيلا»[٤١].

وهي أيضا حكمةٌ بالنسـبة الى الصَحَابة، حتى يبقَى الوحـيُ« متجاوِبًا مع الصـحابةِ يربيّهـم ويُصلح عاداتِهم ويجـيب عن وقائعـهم، ولا يفاجـئُهم بتعاليمه وتشريعاته»[٤٢]. والحكمةُ في ذلك كانت للصحابة «حتى يحفظوه في صـدورهِم، ويكتبـوه على الرقـاع، ويتـيسّـر لهم العـملُ بمضمـونه شـيئًـا فشيئاً»[٤٣]. والغاية من ذلك «تربيـةُ الأمّة وترويضُها وهدايتُهـا، وتمكينُها من التطبيق والالتزام بالاحكام وما اليه...»[٤٤].

غيـر أنّ الخطر في الاسترسـال بالقول بالتنجيم يـكمن في جعل الآيات مفكّكةً غـيرَ مرتبطَة بعـضها ببـعض. وقد لمسَ المسلمـون ظاهرةَ التفكك هذه، فأوجدوا «علم المناسَبة» الذي يـضـعُ، لرَبْطِ السُوَرِ والآياتِ، قواعدَ وأصولاً[٤٥] وعند الإمام فـخر الدين الرازي إنّ «أكثرَ لطائف القـرآنِ مُودَعَةٌ في الترتـيباتِ والروابط»[٤٦].

(٣٩) الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٤٩ .
(٤٠) سورة الفرقان ٢٥/٣٢ .
(٤١) سورة الإسراء ١٧/١٠٦.
(٤٢) الشيخ الصالح، المرجع المذكور، ص ٤٩ .
(٤٣) أنظر الدكتور النمر، علوم القرآن الكريم، ص ٨١ .
(٤٤) الدكتور داود العطّار، موجز علوم القرآن، ص ١٠٩ و ١١٤ – ١٢٤ .
(٤٥) انظر فصلا في السيوطي ؛ الاتقان في علوم القرآن ١/٩٦ وما يلي.
(٤٦) انظر كتاب تفسير القرآن للامام الرازي.

٤ - متى نزل القرآن؟

يحدّد القرآن وقت نزوله في أمكنة ثلاثة:

١. في سورة البقرة: «شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن» (٢/ ١٨٥).

٢. في سورة الدخان: «إنّا أنزلناه في ليلة مباركة» (٤٤/ ٣).

٣. وفي سورة القدْر: «إنّا أنزلناه في ليلةِ القدْر» (٩٧/ ١).

لقد رأينا شهادةَ المحدِّثين بأنّ النبيَ جاءَه الحقّ في رمضان عندما كان يتحنّث ويرتاض في غار حراء. وفي البخاري قوله: «وكان جبريلُ يَلقّاه في كل ليلةٍ من رمضان فيدارِسُه القرآن»[٤٧]. وكانت الليلةُ الأولى ليلةَ السابعَ عشَر، المسمّاة بليلةِ القدْر، من السنة ١٣ قبل الهجرة، الموافقة لشهر تمّوز سنة ٦١٠ م. وكان عمر النبي اذ ذاك أربعين سنة.

ويرجّح هذا التاريخ ما نجده في مناسبة أخرى من قول القرآن، وهي مناسبة التقاء الجَمْعَين: أي المسلمين والمشركين في معركةِ بدْر التي حدثتْ في السابع عشر من رمضان السنة الثانية للهجرة. قال: «ان كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان» (٨/ ٤١).

أمّا ليلة القدْر فهي أوّلُ ليلة أنزلَ فيها القرآن. جاء في أهميّتها: «إنّا أنزلناه في ليلة القدْرِ. وما أدراكَ ما ليلةُ القَدْرِ. ليلةُ القَدْرِ خيرٌ من ألفِ شهر. تَنَزّلُ الملائكةُ والروحُ فيها بإذنِ ربّهم من كلِ أمر. سلامٌ هي حتى مطلعِ الفجر» (٩٧/ ١-٥). ومعنى ذلك إنّ اللهَ أنزلَ «القرآنَ جملةً واحدةً منَ اللوح المحفوظ الى السماء الدنيا»[٤٨]. ويشهد على ذلك ما ورد في سورة النجم بانّ القرآنَ كان كلُّه منذ الأزل «بالأفقِ الأعلى» (٥٣/ ١-١٢)، «عند سِدْرةِ المُنْتَهى

---

(٤٧) صحيح البخاري ١/ ٣ و ٤.

(٤٨) أنظر تفسير الجلالين على ٩٧/ ١، والقرطبي ٢/ ٢٩٧، والزركشي في البرهان ١/ ٢٢٨، والاتقان في فصل «كيفية انزاله»، الجزء الاول ...

، حيث جَنَّةُ المأوى» (٥٣/ ١٣-١٨). وبعد ذلك أنزله الله مُنَجَّمًا على الرسولِ بحسبِ المناسبات، على ما جاء سابقا.

إلاّ أنّ «اللوحَ المحفوظ» قد لا يكون كتابا موجودا في «الأفق الأعلى»، بل قد يكون كتاب موسى، من قولِ القرآن نفسه : «ومِن قَبْلِهِ كتابُ موسى إِمَامًا ورحمةً» (٤٦/ ١٢)، وقوله أيضاً: «ويتلوه شاهدٌ منه ومن قبْلِه كتابُ موسى إمامًا ورحمةً» (١١/ ١٧). وما يرجّح ذلك هو أنّنا نجدُ في القرآن ما نجدُه في «إِمام موسى». ويؤكدّ ذلك قوله: «كلُّ شيء. أحصيناهُ في إِمَامٍ مُبين»[٤٩]. وقد يكونُ كتابُ موسى الموصوفُ بـ «الإمام «هو نفسه «أمُّ الكتاب» (١٣/ ٣٩). ويصرّح: انّه (أي القرآن) في أمِّ الكتابِ لدينا» (٤٣/ ٤).

ولكنّنا نجد في القرآن ما لا نجدُه في كتاب موسى ! فما هو مصدرُه ؟ لعلّه «الإنجيل العبراني» الذي كانَ بين يدي القس ورقة ينقلُه الى العربية، ومحمّد يحضرُ نَقْلَهُ ويعلم مضمونه !! ولعلّها أيضا خبرةَ محمّد خلال حياتِه وجهادِه وأسفارِه ومستجدّاتِ الحياة والمجتمع هي أيضاً مصدر من مصادر القرآن![٥٠].

---

(٤٩) يس ٣٦/ ١٢. الحجر ١٥/ ٧٩.

(٥٠) انظر، في هذا الموضوع، كتاب «قس ونبي».

خامساً – الوحي والتنزيل والإلهام وا لنبوّة

لئن كان في اليـهودية والنصرانـيّة فرق بني الوحي والالهـام والنبوّة، فانّ الاسلام لن يميّزَ بينها. وسببُ ذلك هو أنّ الله هو مصدرُ كل ما في القرآن من وحي ونبـوّة وإلهام وعلم وشـريعةٍ وحـقائق. فنـبيُّ المسلمين ليس له في القرآن أيّ تدخّل، إذ هو « لا يصـوغُه بلفظه، ولا يلقيـه بكلامه»[٥١]، بل هو «لا يملك حـتى حقّ استخـدامِ ذاكرتِه في حـفظِ القرآن، بل الله يتـكفّل بتحفـيظه إيّاه»[٥٢].

ويبدو أيضـاً، في إيمان المسلمين، أنّ محـمّدا كـان يتلقّى الوحي من الله بلفظِ الله وأسلوبِه ولغتِه وقراءته وبيانه، ولا يملك محمّد أيّة حرّيَةٍ شخصيّة، أو إرادةٍ ذاتيّة، أوعلمٍ ما من عنده. «إنّه الوحيُ ينزل على مـحمد حين يشاءُ ربٌّ محمّد، ويَفْتَرُ إذا شاءَ له ربٌّ محمد الانقطاعَ، فما تنفعُ التعاويذُ والأسجاعُ، ولا تُقَدِّمُ عواطفُ محمّد ولا تؤخِّرُ في أمرِ السماء»[٥٣].

ويحرصُ مـحمّـد، واللهُ يكلّمه تكليماً، أن يصرّحَ باسـتمـرارٍ بانّه بشَرٌ كسائرِ البشر، لا يملكُ من علمِ السمـاءِ شيئًا، ولا يعرفُ ما في خزائنِ الله، ولا يعلَمُ الغيبَ، ولا يزعمُ لنـفسِه صِفـةً ملائكيّة، ولا يمكنُه أن يدفعَ عن نفـسِه، لا

---

(٥١) الشيخ الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٣٠ ،
(٥٢) المرجع نفسه ص ٣٣ .
(٥٣) المرجع نفسه، ص ٣٨ .

خيراً ولا شراً، بل يخافُ أن يبدّلَ بما يوحى اليه»(٥٤).

هذا الوحي كان يفاجئ محمّداً في أيّة ساعة: في النهار كما في الليل، في البرد كما في القيظ، في يقظته كما في منامه، في بيته كما في أسفاره، في ساعات الصلاة والعبادة كما في أحضان خديجة وسائر نسائه، في عُروجِهِ الى السماوات كما في حروبه وغَزَواتِه وجمْعِ المغانم... إنّها مشيئةُ الله لا مشيئة محمّد. وإنّه عملُ الله في محمّد. فالله ذاتٌ متكلِّمَةٌ آمِرَة مُعطِيَة، و (محمد) ذاتٌ مخاطَبَةٌ مأمورةٌ متلقِّيَة»(٥٥).

ومع هذا التجرّد النبويّ عن كل ذاته وعن كل إرادته، لم يسلَمْ محمّد، رغم التدخلِ الإلهي في كل شيء، من ألسنةِ المتّهمين الذين حَسِبوه مجنونًا، فقالوا إنّه «معلّم مجنون» (٤٤/ ١٤)، وردّ اللهُ تهمتَهم بقوله: «ما أنت بنعمةِ ربّك بمجنون» (٦٨/ ١)؛ وحسبوه شاعرًا، وردَّ الله عنه بقوله: «وما هو بقول شاعر» (٦٩/ ٤١)، وظنّوه حالِمًا ومحاكِياً الشياطين(٥٦)، وردّ الله: «وما هو بقول شيطان رجيم» (٨١/ ٢٥). وآخرون اتّهموه بانهّ ينقلُ ما في صُحُفِ موسى وإبراهيم(٥٧) وأساطير الاوّلين(٥٨)، وكان الله يتكفّل بالردّ العنيف دائماً.

***

فانطلاقاً من هذا المفهوم القرآني للوحي يستبعد المسلمون ان يكون، فيما بين الوحي والتنزيل والإلهام والنبوّة وما يشبهها من تعابير، أيّةُ علاقة. فلا الكشفُ ولا الحَدسُ الباطني، ولا الشعور الداخلي، ولا العرفان، ولا

---

(٥٤) القرآن: ٧/ ١١٨، ٦/ ٥٠، ١٠/ ١٥-١٦...

(٥٥) الشيخ الصالح، مباحث...، ص ٢٧.

(٥٦) سورة الانبياء ٢١/ ٥.

(٥٧) سورة الأعلى ٨٧/ ١٨ – ١٩، النجم ٥٣/ ٣٧، الفرقان ٢٥/ ١٣٣ ...

(٥٨) أنظر: ٦/ ٢٥؛ ٨/ ٣١؛ ١٦/ ٢٤؛ ٢٣/ ٨٣؛ ٢٥/ ٥؛ ٢٧/ ٦٨؛ ٤٦/ ١٧؛ ٦٨/ ١٥؛ ٨٣/ ١٣. وفيها ردّ التّهمة عنه.

الوَجْـــدُ، ولا الـذَوقُ الصـــوفي، ولا الـفناء في المـطلق، ولا الـلاوعي، أو اللاشعور... تستطيع أن تسموا بصاحِبها الى درجةِ الوحي والنبوّة.

وبكونِ الوحي كلِّه من عندِ الله، فلا بدّ من أن يُلِمَّ بـكلِ العلومِ والحقائق التاريخـيّة والكونيّة، الماضـية منها والمسـتقبلة. لهـذا فإنّ القرآن قـد «صحَّحَ بعضَ أخطاء وردتْ في الكتبِ السـابقةِ تتناولُ عـصمـةَ الأنبيـاء، وفنَّدَ بعضَ المغالطاتِ التاريخـية، وصوَّر محمّـدًا شاهِداً الأحداثَ كلَّها، مراقِـبًا إيّاها، كأنه يعيشُ في عصرِها بينَ أصحابها»[٥٩].

وامّا أمور المسـتقبل فلا حَصْـرَ لها في القرآن: لقد تنبّـأ بانتصار الرومِ على الفرس[٦٠]. وتنبّأ بانتـصارِه في معركـةِ بَدْر الكبرى[٦١]. وتنبّأ عن علومٍ توصّل العلمُ الحديث مؤخّرًا إليها، كما عن علومٍ سيكتشفها في أجيال البشرية اللاحقة[٦٢]. ولو اطّلعَ البشر على جوانبِ القرآن «لأدركوا، مثلَ جميعِ المنصفينَ عجـزَ الزمان عن إبطالِ شيء منه، ولأيقنوا أنّ علومَ الكونِ سـتظلّ جميـعًا في خدمتِه للكشفِ عن آياتِ الله في الآفاق والأنفس، كما قال الله : «سَنُريهم آياتِنا في الآفاقِ وفي أنفسِهِم حتى يتبيّنَ لهم الحقُّ»[٦٣].

إنّ المعجـزة الكبرى في الوحي المحمـدي هو القرآن نفسه. فـهو الوحي، وهو النبوّة، وهو الإلهـام، وهو الإسلام، وهو كلامُ الله الذي لا يأتيـه الباطل. لهذا تحـدَّى محمّد المشـركين والكفّارَ وأهلَ الكتاب والأنسَ والجنَّ والشـعراءَ والعلماءَ والفصحاءَ والبلغاءَ والمقاتلين والمسالمين وأهلَ الحق واليقين وأصحابَ

(٥٩) الشيخ الصالح، مباحث... ، ص ٤١ وما يليها.

(٦٠) سورة الروم ٣٠/١ – ٣.

(٦١) سورة القمر ٥٤/٤٤ – ٤٥

(٦٢) انظر كتـاب : «القرآن والعلوم الطبيعـية»، «القرآن والعلم»، «القـرآن والطب»، «القرآن ومحاولة لفهم عصري»، الخ ...

(٦٣) الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٤٧ .

الروح والتصوّف والملائكة والقدّيسين وكلَ أصناف العالمين... بأن يأتوا بمثلِ سورةٍ واحدةٍ من سُوَرِ القرآن لما استطاعوا ولو كانَ بعضُهم لبعضٍ ظهيرا ومعينا ...

وبكلمة : «القرآنُ هو نفسُ الوحي. وذلك تمامُ إعجازه»(٦٤). ومن ذلك حديث الرسول في شرف القرآن : «انه ستكون فِتَنٌ كقِطَعِ الليل المظلم. فقلت: ما النجاة منها يا رسولَ الله؟ قال : كتابُ الله تباركَ وتعالى . فيه نبأُ ما قبلكم وخبرما بعدكم وحكم ما بينكم. وهو فَصْلٌ ليسَ بالهزل. من تركه تجبُّراً قصمَه اللهُ، ومَن ابتغى الهدى في غيره أضلَّهُ الله،وهو حَبْلُ الله المتين، نورُه المبين، والذكرُ الحكيم، والصراطُ المستقيم. هو الذي لا تزيغُ به الأهواء، ولا تتشعبُ معه الآراء، ولا يَشبَعُ منه العلماء، ولا يَملُّه الأتقياء. مَن عَلِمَ عِلْمَه سَبق، ومن عَمِلَ به أجر، ومَن حكَم به عَدَل، ومن اعتصَم به فقد هُدِي الى صراطٍ مستقيم»(٦٥).

وبذلك لا شيء من كتب الأنبياءِ السابقين يُضَاهي القرآن. تلك الكتبُ كتبَها الأنبياءُ بإلهامٍ ربّاني، وهم يحتفظون بشخصيتِهم وإرادتِهم وأسلوبِهم ولغتِهم وحريّتِهم. أمّا في القرآن فليس لمحمد من ذلك شيء...

---

(٦٤) الدكتور مصطفى صادق الرافعي، اعجاز القرآن ...

(٦٥) مقدمتان في علوم القرآن، تحقيق آرثر جفري ، ص ٢٥٦ .

سَادسًا – بين النَّبي محمَّد والأنبياء السابقين

لقد لاحظنا ، من خلال بحثنا، أنّ بين نبوّة محمّد ونبّوة الأنبياء السابقين علاقةً قريبــةً وتشابهًا ظاهرًا وتداخلاً صريحا. وذلك واضح في رغبــة محمّد في أن يكون القرآن "مـصدِّقاً" التوراة والإنجيل، وفي اعـتبارِ القرآن مـحمّداً نبيًا من أنبيــاء العهد القديم. ويقوم هذا التقارب عـلى نقاط عديدة. ولكن أيضاً هناك اختلافٌ كبيرٌ في أمورٍ عديدة. سنبحث فيها جميعها.

١- أوجه التشـــابـه

اعتبر القرآنُ محمّداً نبيًا من أنبياء الله[٦٦]، فصدّق آياتهم[٦٧]، واستشـهد بأقوالهم[٦٨]، وعلمّ تعـاليمــهم[٦٩]، واستـعمل أسلوبهم[٧٠]، وصنع المعـجزات مثلهم[٧١]. لقـد بشّر بكلمــة الله كـما هم بشّــروا[٧٢]. ووضـع الشرائع الألهـية والقوانين الاجتماعية كما هم وضعوا[٧٣]. وقام بوجه الوثنيين والكفّار كما هم

(٦٦) القرآن٢/١٣٦، ٤/١٦٣، ٣٣/٧ ...
(٦٧) ٢/٤١، ٩١، ٣/٥٠، ٥/٦٥ و ٤٨ ، ٣٥/٣١ ...
(٦٨) ١٩/٥١، ٢٨/٣، ٤٨، ٤٨/٢٩ ...
(٦٩) ٥/١١٠، ٣/٤٨...
(٧٠) ٤٢/٥١، ١٣/١٧، ١٤/٢٥، ٢٥/٣٥...
(٧١) ٣/٨٦؛ ٤٠/٦٦؛ ٦١/٦؛ ٧٢/١...
(٧٢) ٧/٢٥٧ .
(٧٣) ٤٢/١٣؛ ٤٥/١٨...

قاموا[٧٤]. وشدّد على وحدانية الله[٧٥] كما هم شدّدوا. وأبرزمثلهم اهتمام الله بالبشـر وعنايته بهم وحـاجتـهم اليه[٧٦]. وأظهر صلة الانسان بـالله كما هم فعلوا[٧٧]. وأبان كـمـالات الله كمـا هم أبانوا. فـالله، عندهم ، خـالق الانسـان والكون[٧٨]، معتنٍ بالخلق أجـمعين[٧٩]، عليم بالانسان وبمصـيره[٨٠]، سميع لتنهدات صدره[٨١]، بصير بما يعمل فـي السرّ وفي العلانية[٨٢]، رحوم غفور لخطاياه[٨٣]...

والوحي، عند الأنبيـاء كما عند محمّـد، هو إعلان الله ذاتَه بذاته بواسطة أنبيائه، لأنّ الله لا يكشف عن مقاصده الخفـيّة الا لعبيده الأنبياء[٨٤] ، لأنّه الهٌ محتجِبٌ عن بصـائر البشر، فلا يناله انسان مطلَقًـا، ويفوقُ مدارِكَ كلِّ إنسان بما لا يُحدّ[٨٥]. فلولا الوحي لبقـيتْ ذاتُه مستترةً ، وأسـرارُه خفيّةً، ومعـرفتُه مستحيلةً، وصفاتُه غيرَ مدرَكة، واسمُه محتجبًا على الجميع[٨٦]. ولولا الوحي لعجزَ الانسـانُ عن تدبـير خلاصِه، وتنظيمِ حياتِه الدنيا، وتـرتيبِ أمورِ نفسه. لذلك كانتِ الشريعةُ الإلهيّةُ نظاما للبشر وقاعدةً لسلوكهم[٨٧].

(٧٤) ٩/٧٣، ٩/٦٦ ...
(٧٥) ٢/١٦٣، ١٨/١١٠، ٢٢/٣٤، ٢١/١٠٨، ١٦/٥١ ...
(٧٦) ٤/٤٠، ١٠/٦١، ٣٤/٣، ٩٩/٧ ...
(٧٧) ٢٦/١٧، ٣٠/٥، ٤٩/١٢ ...
(٧٨) ٦/١٠١، ١٦/٣و٤؛ ٥٥/٣...
(٧٩) ٢/٢٩، ٦٤/٣، ٨٢/٧...
(٨٠) ٥/٩٧، ١١/٥، ٣٩/٧ ...
(٨١) ٢٦/٢٢٠، ١٤/٣٩، ٣/٣٨، ٢/٧٧...
(٨٢) ٢/٣٣، ١٤/٣٨، ٥/٩٩، ١٦/١٩ ...
(٨٣) ٧/١٤٩، ٣/١٥٥، ٥/١٢٩، ٣٤، ٢٣/١١٨ ...
(٨٤) النّبي عاموس ٣/٦ قابله مع سورة طه ٢٠/١٣.
(٨٥) أيّوب ٤٢/٣ وأشعيا ٤٥/١٥ قابلهما مع سورتَي٦/١٠٣ و ٧٠/٥ ..
(٨٦) تثنية الاشتراع ٢٩/٢٨، دانيال ٢/٧ قابلهما بسورة الشورى ٤٢/١١ ...
(٨٧) خروج ٢٠/١ – ١٧ وتثنية الاشتراع ١٦/١٥ – معظم سور القرآن.

ثم انّ النبوّة، في الاسلام كانت أم في اليهودية، هي هبةٌ من الله مجانيّة، تُعطى لبعض الناس فيتكلّمُ بما يمليه عليه الله، لا بما يمليه عليه عقله : جاء في رسالة القديس بطرس : « لم يأت نبوّة قط بإرادة بشر، ولكن الروح القدس حمل بعض الناس على أن يتكلّموا من قِبَل الله»[88]. وجاء في سورة طه : " وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى » (٢٠/١٣)، وجاء أيضا في سورة النحل : «قل نزّله روح القدس من ربّك» (١٦/١٠٢)، وأيضا في سورة الشعراء : «نزل به الروح الأمين على قلبك» (٢٦/١٩٣).

فمبدأ النبوّة، وموضوعاتها، وطرقها متّفقة إذاً فيما بين القرآن والنبوّات القديمة. ولهذا جاء كتاب محمّد «مصدقا لما بين يديه من التوراة»[89]، أو هو «تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب»[90].

٢ - أوجه التبايـن

تختلف النبوّةُ في الإسلام عمّا هي في اليهوديّة أكثر ممّا تتقارب أو تتشابه. ونقاطُ التباينِ أعمقُ من نقاطِ التوافق. وأهمّ ما يقع عليه التباينُ يكمنُ فيما يلي : في سيرةِ الأنبياءِ مع الله، وفي صراعِهم مع ما لا يستطيعون حَمْلَه،، وفي ضغطِ كلمة الله عليهم، وفي شعورِهم بثقلِ الرسالة الملقاة على عاتقهم، وفي تردّدِهم المستمرِّ في اتّباعِ طرق الله حتى نهايتها، وفي غير ذلك ... كل هذه لم يتعرّضْ محمّدٌ لِمَتَاعِبِها في سيرتِهِ مع الله. فلننظر :

* لقد تلقّى الأنبياء السابقون الوحَي من عند الله متردّدين، لانّهم غيرُ

---

(٨٨) ٢ بطرس ١/١٩ - ٢١.

(٨٩) ٥/٤٦، انظر ٢/٤٨، ٤١، ٩١، ٩٧، ٣/٣ و٣٩ و٥٠، ٤/٤٧، ٣٥/٣١، ٤٦/٣٠؛ ٦١/٦ ...

(٩٠) ٢/١٠١، انظر ٢/٨٩، ٣/٨١، ٦/٩٢، ٤٦/١٢ ...

جديرين بالقيام بعبءِ الوحي الثقيل، ولأنّ عيـوبَهم البشريّة كثيرةٌ لا تخوّلهم الامتثـالَ أمام الله، ولأنّ الخوفَ يعتريهم عنـدما يسمعون كلمـةَ الله : لقد قال موسى انّه غـيرُ جديرٍ بمثلِ هذا العمل : «لستُ أنا صـاحبَ كلامٍ منذ أمس ولا أوّل من أمس ... بل أنا ثقيلُ الفم واللسان»[٩١]. وشَعرَ آشعيـا بأنّ عيوبَه أمام الرب كثيـرةٌ : «ويلٌ لي انّي هلكتُ لأنّي انسانٌ نَجِسٌ الشفـتين، وأنا ساكنٌ بين شعبٍ نَجِسِ الشـفتين، لأنّ عينـيّ قد رأتا المَلِكَ ربَّ الجنود»[٩٢]. وأحسَّ إرميا بخوفٍ كبيرٍ عندما دعاه الله، وكان لا يزالُ فتى، فقال : «آه يا سيّد الرب! إنّي لا أعرفُ أن أتكلّم لأنّي ولد ... »[٩٣].

* وفوق ذلك، يظهـر الوحيُ وكأنّه محنةٌ ابتلَى اللهُ بهـا عبيدَه الأنبـياء: فهذا موسى الذي ابتلاه الله بشعبٍ قاسي الرقبة[٩٤]، وإيليّا الذي تمنّى لنفسه الموت[٩٥]، وإرمـيـا الذي أمـرَه الربّ أن يصنعَ «رُبُطًا وأنيـارًا ويجـعلَهـا على عُنُقه»[٩٦]، ويُعلِنَ موقـفَه بقـوله: «قد خَدَعْـتَني يا ربّ فانخـدعتُ، ألححتَ عليّ فَغُلِبْتُ»[٩٧]، وآشعيا يُثيرُ النزاعَ بينَه وبين الله[٩٨]، ويكلّمه اللهُ بإلقاءِ يدِه عليه وبإنذارِه إيّاه[٩٩]، وحـزقـيال يرضـخُ لِيدِ الرب الـقديرة تدفـعُـه الى الـهـربِ والاستنكار[١٠٠] وغيرهم ... لكأنّ الوحيَ مصيـبةٌ تثقّلُ كاهلَهم وتجعلُ من كلّ

---

(٩١) سفر الخروج ٤/ ١٠ .

(٩٢) نبوة اشعيا ٦/ ٥ .

(٩٣) نبوة ارميا ١/ ٦ – ٨ .

(٩٤) سفر العدد ١١/ ١١.

(٩٥) سفر الملوك الثالث ١٩/ ٤ .

(٩٦) إرميا ٢٧/ ١٨.

(٩٧) إرميا ٢٠/ ٣ – ٩ .

(٩٨) اشعيا ٦/ ٨.

(٩٩) أشعيا ٨/ ١١ .

(١٠٠) حزقيال ٣/ ١٤ .

واحدٍ منهم «إنسانَ خصامٍ ونزاعٍ للارض كلّها»[١٠١].

* وفوق ذلك أيضا، يدفع الوحي بالأنبياء أحيانا الى الاستشهاد والموت في سبيل الله. فلا الهرب، ولا الثورة، ولا الشكوى المريرة، ولا أيّ شيء آخر يستطيع أن ينجّي النبيَ من ضغطِ الله عليه. وبقدر ما يرفضُ النبيّ مهمّتَه ووحيَ اللّه عليه بقدر ذلك يستحثُه الوحيُ للخضوع: فغضبُ الله أجبرَ تعنّتَ موسى لقبولِ الرسالة، والعاصفةُ والتنّين أعادَا يونانَ بالقوّةِ الى النبوّة، وإيليا أُعِدَّ مرغَمًا لرسالة جديدة، وإرميا بقي أسيرًا لكلمة الله...

* وليس من نبيّ استطاعَ التفلّتَ من يد الله. وقد عبّرَ النبي عاموس بإسهابٍ عن هذه الملاحَقَةِ الالهية، ومثَّلَ نفسَه مع اللهِ بقوله : «كالأسدِ وفريستِه، والعصفورِ وفخِّه، والبوقِ في الحرب. تكلّمَ الله فمَنْ لا يتنبّأ؟»[١٠٢]. وشهد التاريخُ النبويّ على استشهادِ الأنبياء شهادةَ واقعٍ: لقد أُعدِمَ الأنبياءُ في أيّام آخاب[١٠٣]، وفي أيّام منسّا[١٠٤]، وفي أيّام يواكيم[١٠٥]. ولم يرَ إرميا ذلك أمرًا غريبا[١٠٦]، اذ أصبحَ الموت في سبيل الله أيّامَ نحميا شيئًا عاديا[١٠٧]. وقد أشارَ المسيح الى هذه الحالة النبويّة التعيسة بوضوح، فقال : «أورشليم قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين اليها»[١٠٨].

* يجب أن نقرّ ونعترف أنّ محمّداً كان مع الله مرتاحًا ومرتاحاً جدًا. بل كان على «سكينة» واطمئنان تامّين. جاء في القرآن : «أنزل الله سكينته على

---

(١٠١) ارميا ٥/ ١٠ .
(١٠٢) عاموس ٣/٣ – ٨
(١٠٣) ٣ ملوك ١٨/ ٤ و ١٣ ، ١٩/ ١٠ .
(١٠٤) ٤ ملوك ٢١/ ١٦ .
(١٠٥) ارميا ٢٤/ ٢٠ – ٢٣ .
(١٠٦) ارميا ٢/ ٣٠.
(١٠٧) نحميا ٩/ ٢٦ .
(١٠٨) متى ٢٣/ ٢٧.

رسـوله وعلـى المؤمنين»[١٠٩]، و «أنزل الله سـكينتـه عـليـه وأيّده بـجنود لم تَروها»[١١٠]. وليس في القرآن صلاةٌ واحـدة بها يتضرّع النبي الى الله ليـبعد عنه ثقل الرسـالة والمهـمّة. بل انّه آمِنٌ من كل خـوفٍ ورعـدة أمام عظمـة الله وجبـروته. وجلّ ما نرى من مـتاعبَ أنهكـتْ قوى النبي كـان يأتيه من طبـقة الأغنياء في مكّة، ومن كفّار قريش والمشركين. أمّا مع الله فهو يرى نفسَه أهلا لذلك، وبمقدوره أن يقومَ بهذه الدعوة.

* أمّا التـباين الأشـدّ عمقـاً فهـو في موضوعـات النبوّة وأهدافـها. من المعروف أنّ موضوعَ النبوّة انما يكون من طبيـعةٍ دينية، إيمانيّة، خلاصيّة، لا موضـوعاً يتناول مـسائل علـميّة، وأبحـاثاً تاريخيّـة، ونظريّات مـاورائيّة أو فلسفية أو اجتماعيّة. موضوع النبوّة الأساسي هو إعلان الله عن مقاصده في خلاص البـشر. خلاص الانسـان هو مـوضوع الوحي والنبوّة، وهو مقـصود الله، وتدبيره، ومشيئته... وفي القرآن، لا نجدُ شيئا من ذلك كلّه، بل لا وجود، في القرآن، لـكلمة «خلاص»، ولا في تعـاليم محـمّد، أو أفعـاله... في حين أنّ موضوعَ نبوّاتِ العهـد القديم الأساسي هو الإعلانُ عن مجيء «المخلّص»، الذي تحقّقَ، في المسيحـية، بـ«يسوع المسيح». لذلك، بالنسبة الى المسيـحية، عندما جاء المخلّص، انتهت النبوّات كلُّها، أي عندمـا تحقّقت النبوّات في المسيح بطلتْ. وأحداثُ النبّوات القديمةِ لم تَكـنْ لِتُدْرَك معانيها لولا أحداثُ المسـيح وتعاليمُه وأعمالُه التي فـسّرتْها وأعطتْها المعنى الحـقيقيّ: فالمسيح، بالرؤيةِ المسيـحية، أظهرَ كلَ سرّ مكتوم منذ الأزل[١١١]، وأوحى معنى الكتب المحتجب[١١٢]، وانتهى به الناموس وعَـمَلُ الناموس[١١٣]، وانكشفَ به كلُّ مـستور: «لا شيء يـبقى

(١٠٩) ٩/٢٦، ٤٨/٢٦.

(١١٠) ٩/٤٠ ... انظر مقدّمة هذه البحث.

(١١١) انجيل مرقس ٤/١١ ...

(١١٢) انجيل متى ١٦/٢١ ...

(١١٣) انجيل يوحنا ١٩/٢٨، رسالة غلاطية ٤/٤ ..

مستورا بعد اليوم، كلُّ شيءٍ يجبُ أن يظهر، ولا شيء يجبُ أن يبقى غيرَ معروف»[١١٤]. ولولا المسيح لما انكشف سرّ الله للناس[١١٥]...

هذه الحقائق النبويّة الأساسيّة، في اليهوديّة كما في المسيحية ، لا نجد لها مثيلا في الأسلام، لأنّ موضوعاتَ النبوّة المحمّديّة وغاياتِها تختلف تماما عن موضوع النبّوة وغايتِها كما هي في اليهوديّةِ والمسيحية. ولئن أعلنَ محمّد بأنّه «خاتَم النبيين»[١١٦]، فلا شيء يشير الى أنّه من طينتِهم وجبلتِهم ورسالتِهم ومهامِّهم، كما لا شيء يشير الى أنّهُ يتمّمُهم ويكمّلُهم... فقط رغبة أتباعه هي التي شاءت أن يكون محمّد صاحبَ رسالةٍ خلاصيّة.

* ومن حيث أساليب النبوّة فهناك أيضا تباينٌ واضح في الإسلام عمّا هي في اليهوديّة. لقد أتى الوحيُ الأنبياءَ بطرقٍ شتى وأساليبَ مختلفة[١١٧]، وذلك بحسب قدرةِ الناس على فهمها، وبحسب مقاصدِ الله في إعلان الحقائق الموحاة. وأهمّ ما في التوراة من أساليب الوحي هو كما يلي:

أ- الأحلام والرؤى. هي أولى أساليب الوحي التي أوحى بها الله الى أنبيائه. وقد استعملها الأنبياء بعد أن أخذوها عن الشعوب الشرقيّة القديمة وجردّوها من بقايا السحر والشرك والتنجيم[١١٨]، وبعد أن أضافوا اليها بعض القيم الروحية الخاصّة بهم وبالشعب اليهودي. وقد رضي الله ذاته عن هذه الطرق التقليدية البدائية : فالكهنة كانوا يطلبون قضاء أوريم وتوميّم لمعرفة قصد الله[١١٩]، ويوسف كان يملك قدحا للكهانة[١٢٠]، وهو خبير في تفسير

---

(١١٤) انجيل مرقس ٤/ ٢٢.

(١١٥) انجيل متى ١١/ ٢٧ .

(١١٦) سورة الاحزاب ٣٣/ ٤٠ .

(١١٧) الرسالة الى العبرانيين ١/ ٢ .

(١١٨) أحبار ١٩/ ٢٦ ، تثنية الاشتراع ١٨/ ١٠ ، ١ ملوك ١٥/ ٢٣، ٢٨/ ٣ ..

(١١٩) سفر العدد ٢٧/ ٢١، تثنية الاشتراع ٣٣/ ٨ .

الأحلام[١٢١]؛ لكأنّ الأحلام هـي، عند اليهود، عـلامات السـماء[١٢٢]. وبقي هذا حتى جيل متأخّر[١٢٣]. ولكن عرف بنو إسرائيل فيما بعد كيف يميّزون الأحلام الصادقة التي تأتي من الله[١٢٤] من الأحـلام الكاذبة التي يقـوم بها الكهّـان المحترفون[١٢٥]، وقد نقضها الأنبياء واعتبروها غير صادقة[١٢٦].

أمّـا بالنسـبـة إلى الإسـلام، فلن تكون الأحـلام من أسـاليب النبـوّة الصحـيحة: لقـد اعتبر النـبي محمّد الأحـلام كوسوسـة شيطانيّة يقـوم بها الشيطان ليُبعد النبيَّ عن مهمّته، لذلك نرى القرآن ينسب الأحلامَ الى الشعراء: «قالوا أضغـاث أحلام، بل افتراه، بل هـو شـاعر»[١٢٧] . أمّا بالنسبة الى الرؤيا فيختلف الحال. انها صادقة وحقّ : « قد صدقت الرؤيا»[١٢٨] أو «لقد صدق الله رسول الرؤيا بالحقّ»[١٢٩] لهذا فهي فتنة للناس لانهم لا يدركون كنهها : «وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلاّ فتنة للناس»[١٣٠].

ب ـ ثم تخطّى الأنبـياء هذه الطرق البدائيّـة في تقبّل الوحي، وأصـبحت النبوّة مـعهم، في مـرحلتها الثـانية، تعتـمد على الرؤية والسّـماع[١٣١]. إلاّ أنّ الرؤية بقيت لـغزاً لا يكشِفُ عن حقـيقة النبـوّة، لذلك استـتر الأنبيـاء برموزٍ

---

(١٢٠) سفر التكوين ٤٤/٢ و ٥ .

(١٢١) سفر التكوين ٤٠/٤٠ و ٤١ .

(١٢٢) تكوين ٢٠/٣، ٢٨/١٢ – ١٥ ، ٣١/١١، ٣٧/٥ – ١٠ .

(١٢٣) قضاة ٧/١٣، ٢ ملوك ٢٨/٦، ٣ ملوك ٣/٥ – ١٤ .

(١٢٤) عدد ١٢/٦، تثنية الاشتراع ١٨/٢.

(١٢٥) أحبار ١٩/٢٦ ، تثنية الاشتراع ١٨/٢ .

(١٢٦) اشعيا ٢٨/٧ – ١٣ ، ارميا ٢٣/٢٥، جامعة ٥/٢، سيراخ ٣٤/١ ...

(١٢٧) سورة الانبياء ٢١/٥ .

(١٢٨) سورة الصافات ٣٧/١٠٥.

(١٢٩) سورة الفتح ٤٨/٢٧ .

(١٣٠) سورة الاسراء ١٧/٦٠ .

(١٣١) سفر العدد ٢٣/٣ و ١٥

وألغازٍ غامضة لا يدركها عامّة الناس[١٣٢]، ولذلك أيضا استتروا برموز واشارات ابتكروها ليخفوا عن الناس كيفية رؤيتهم لله وحصول الوحي والنبوّة[١٣٣]. ولكن بعض الأحيان يكون سماع ولا تكون رؤية، لأنّ رؤية وجه الله أخطر من سماع صوته، بل لا يستطيع إنسان أن يرى وجه الله ويبقى حيّاً[١٣٤].

أمّا بالنسبة إلى الإسلام فلم يذكر القرآن أنّ محمدا رأى الله أو سمع صوته. جل ما يذكر أنّ الله أعطى محمّدا أن يرى آياته فقط[١٣٥]، ولا يحقّ للنبي أو لأي إنسان آخر أن يرى وجه الله بحال من الأحوال[١٣٦]، كما لا يحقّ له أن يسمع صوته. وما يسمعه هو آيات من الله [١٣٧]. فليست الرؤية إذاً، ولا السماع، من طرق الوحي في القرآن. هناك فقط المَلَك جبريل، الساعي النبوي الأمين، والواسطة الوحيدة التي قامت بهذه المهمّة.

جـ. ثم هناك وحي بطرق أخرى: بعمل الفكر، وميل القلب والاعتماد على الفطنة[١٣٨]، والأخذ بالحكمة[١٣٩]، فهي كلّها من جوهر الله ومن طرقه في الوحي[١٤٠]... هذه الأساليب النبويّة، بمعناها الكتابي، لا يوجد منها شيء في الإسلام. ولئن رأينا بعضها في القرآن فذاك يكون تلميحا، ومن باب التعليم الذي اتّخذه النبي محمّد ليُفهم الناس مدى علاقتهم بالله.

---

(١٣٢) ١ملوك ٢٢/١٦، اشعيا ٦/١، حزقيال ١/ بمجمله.

(١٣٣) ارميا ١/١١، حزقيال ٩ بمجمله، عاموس ٧/١ – ٩.

(١٣٤) سفر الخروج ٣٣/٢٠، انظر: ١٩/٢١، أحبار ١٦/٢، عدد ٤/٢٠.

(١٣٥) القرآن ١٧/١، ٢٠/٢٣، ٥٦، ٧٩/٢٠ ...

(١٣٦) القرآن ٦/٧٦ – ٧٨.

(١٣٧) القرآن ٢٠/١٨.

(١٣٨) سفر الامثال ٢/١ – ٥، ٨/١٢ و ١٤.

(١٣٩) سفر الحكمة ٢/٦.

(١٤٠) سفر الحكمة ٧/١٥ – ٢١.

* ثم إنّ بين نبـوّة العهـد القـديم ونبوّة الاســلام فـرقا آخـر، وهو من صميم الحيـاة النبويّة. ويقوم على أنّ النبي لا يستفيد لنفسـه من نبوّته، بقدر ما يفيد الآخرين. ألنبوّة عطاء وتضحية تتعدّى شخصيّة النبي. قد يجلب النبي على نفســه العذاب والآلام الكثيرة في ســبيل الخدمة. وقـد تقوم عليه قـيامة البشـر أجمـعين، لأنّه لا يراعي أميـالهم وأهواءهم. إنّه «إنسان خـصام ونزاع للارض كلّها»[١٤١]. إنّه ســائح في الأرض، تائةٌ من أمـام وجه الله، لا يعـرف راحـة ولا لذّة ولا هدوءاً. إنّه مضطَهـد. ولا عزاء له فـيمـا بين البشـر. يهمّـه الخدمة حتى التضحية في سبيل الله[١٤٢]...

غير ذلك أمر النبيّ العـربي: لقد خاض معارك كثيـرة، وجاهد في سبيل «مغانم كثيـرة»، وأسّس حكما ودولة، واضطهد الناس بالسيف والعنف. وهو يَعِدُ أصحابَه بـ «مغـانم كثيرة يأخذونها»[١٤٣]، و «عند الله مغانم كثيرة»[١٤٤]. و«أغناهم الله ورسـوله من فضله»[١٤٥]... لقد كـان محـمّد، على الناس حَـكَمًا وقـائدًا وقـاضيـا يقـسّم الارزاقَ والمغـانم فيـمـا بينهم، ويسـتـفيـد منهـا « الخمس»[١٤٦]. في حين ان المسيح أجاب رجـلا يريد اقتسام الميـراث مع أخيه : «يا رجل، من أقامني عليكم قاضيا أو قسّاما؟»[١٤٧].

* وفرق آخر: لقد كانت أمنيةُ الشعب اليـهودي أن تكون النبوّة مشتركة وعامّـة بين كل أفراده. لهـذا صلّى موسى وتمنّى علـى الله : «ليت جمـيع أمّة

(١٤١) نبوة ارميا ٥/ ١٠.
(١٤٢) انظر : ايوب ٤٠/ ٤، اشعيا ٦/ ٨، حزقيال ٢/ ٢، ارميا ٢/ ٦ ...
(١٤٣) سورة الفتح ٤٨/ ١٩.
(١٤٤) سورة النساء ٤/ ٩٤.
(١٤٥) سورة التوبة ٩/ ٧٤
(١٤٦) سورة الانفال ٨/ ٤١.
(١٤٧) انجيل لوقا ١٢/ ١٣ – ١٤ ولكن موسى كان قائدا وقاضيا : خروج ٢/ ١٤.

الرب أنبياء، يجعل الرب روحه عليهم!»[١٤٨]. ورغب إسرائيل أن يكون لله «مملكةَ أحبار وشعباً مقدّسا»[١٤٩]. فلا يعود من ثمّ تمييز في مملكة الله، أو تباين بين أفراد الأمّة اليهودية في علاقتهم بالله.

أمّا في الإسلام فالأمر يختلف تماما : لن تكون النبوّة في المسلمين الاّ لمحمّد، ولن تعطى النبوّة بعد محمّد لأحد. لقد أُغلِقَ البابُ وأُحكِمَ غَلَقُه، وكان محمّد «خاتمَ النبيين»[١٥٠]. ولن تكونَ كلمةٌ على إنسان واحد بعد محمّد يستحقّ أن يكونَ وسيطا أو شفيعا أو قدّيسا غيره لدى الله. فالنبوّة، في الإسلام، حَكَرٌ لمحمّد، رغم ان صفاتِ النبوّة تنطبقُ على كثيرين من الناس المتفوّقين. ولهذا كثير منهم ادّعى ، في الإسلام، النبوّةَ لنفسه : «فمن أولئك مُسَيلمة بن حبيب الكذّاب... وعبهلة بن كعب... وطليحة بن خويلد الأسدى... وسجاح بنت الحارث التميمية... والنضر بن الحارث... وابن المقفع الكاتب البليغ... وابن الراوندي... وشاعر الاسلام ابو الطيّب المتنبّي... وأبو العلاء المعرّى ...»[١٥١].

* وأخيرا، إنّ النبوّة في اليهوديّة لها قيمةُ ادراكِ المطلَق أكثرُ من كونها استباقَ معرفة المستقبل، أو تنظيمَ أحوال المجتمع، أو تأسيسَ دولةٍ إلهيّة على الأرض، أو سنَّ شرائعَ وقوانين، أو إدراكَ العلوم قبل اكتشافها، أو معرفَة حلولِ عِقَدِ الانسان ومشاكِله، أو غيرَ ذلك... ولئن كان للنبوّاتِ القديمة معنى اكتشاف المستقبلات قبْلَ حدوثها. فانّها، في الحقيقة، تطمحُ بذلك في اكتشافِ المطلق ومعرفته. فالنبوّة كانتْ حَنِيْنًا الى معرفةِ الله أكثرَ منها حنينٌ الى معرفةِ الغد. وجوهرُ النبوّة يقوم على إدخال الله في تاريخ البشر، وإعلان مقاصدِه

(١٤٨) سفر العدد ١١/ ٢٩ .

(١٤٩) سفر الخروج ١٩/ ٦ .

(١٥٠) سورة الاحزاب ٣٣/ ٤٠

(١٥١) أنظر الدكتور مصطفى صادق الرافعي، اعجاز القرآن، ص ١٧٢ – ١٧٨ حيث يستعرض المتنبئين وسيرتهم واعمالهم في منافسة القرآن...

الخلاصية، أكثر ممّا هو في رفع الإنسان إلى مستوى الله، كما يفعل العرّافون والكهّان والسحرة. وفي النتيجة، تكتمل النبوّة حُكماً وتنتهي عند نزول الله وتجسّده بين البشر ليتمكّن البشر من السعادة والخلاص. وهذه أمور لا شأن لنبوّة محمّد ووحي القرآن فيها.

***

بعد هذا كلّه، يجب أن نعرف جملة أمور هامّة في مفهومِ الاسلام للوحي والنبوّة. هذه الأمور هي من خصائص المسلمين دون سواهم من الناس :

أوّلا – إنّ الإسلام مؤسّس على القرآن، لا على محمّد. وقد يزول محمّد ويبقى القرآن فيبقى الاسلام ما بقي القرآن. أمّا المسيحيّة فمؤسّسة على المسيح، لا على الإنجيل. وقد يزول الإنجيل ويبقى المسيح فتبقى المسيحيّة.

ثانيا – إنّ القرآنَ دليلٌ على رسالة محمّد وبرهان وحيد على نبوّته وليس العكس. ولو كان العكس صحيحا لكان الرسول أسمى من الرسالة ولكان محمّد أعظم من القرآن. والحال ان الرسالة هي الأصل. ولم يكن محمّد الاّ بشيرا ونذيرا ومبلّغا. جاء في القرآن : «وما على الرسول الاّ البلاغ المبين»[١٥٢] و«ان لم تفعل فما بلّغت رسالته» (٥/ ٦٧).

ثالثا – إنّ القرآن لا يُظهرُ شيئا عن الرسول : عن سيرتِه وأعماله وأقواله، وإنْ فعلَ فبالعَرَض. ولا يُعْقَل ان يكونَ الأمرُ غيرَ ذلك، لأنّ القرآن، في معتقدِ المسلمين، كتابٌ أزليٌّ سابقٌ وجودُه على وجودِ محمّد. فيما الإنجيل هو سيرة المسيح في أعماله وأقواله. ولا شيء فيه إلاّ عنه. وليس هو غير ذلك.

رابعًا – إنّ العِلمَ في الإسلام هو «علمُ القرآن»، لا «علمُ الله»، لأنّ الله، في الإسلام، لا يُدْرَك، ولا يُوْصف. ولئن نرى، اليوم، عند المسلمين، بعضَ

(١٥٢) القرآن : ٢٩/ ١٨، ٢٤/ ٥٤، ٥/ ٩٢ ...

دراساتٍ عن موضوعاتٍ إلهيّة، فبتأثيرٍ من اللاّهوتِ المسيحي. الأصلُ في علوم الإسلام هو «علم القرآن»، لأنّ القرآنَ هو «كلام الله»، وعليه يدور البحثُ والعلمُ والمعرفةُ والخلاصُ والادلّةُ العقليّة كلّها. من هنا كان "علم الكلام".

خامسًا – إنّ المناسبات التي حتّمتْ نزولَ الآياتِ زالتْ. وبقيتِ الآيات. كيف يكون ذلك؟ الأحداث تغيّرت، والآياتُ الحاكيةُ عنها لا تتغيّر !! كيف يتغيّرُ المجتمعُ والعصرُ والعلمُ والناسُ، ونظمُ القرآن هي هي لكل مجتمع وعصرٍ وعلم !! لئن جازَ للنبي نَسْخُ آياتٍ طوال ثلاثٍ وعشرينَ سنة، أفلايجوز أن يُنسَخ القرآن كلّه بعد ألفٍ وخمس مائة سنة! ومن ثمّ تنزيلِ آيات أخرى تناسب المستجدّات والمستحدثات!!!

ولكن، اذا عرفنا منطقَ القرآنِ والإسلام والمسلمين، نتأكّد أنّ العالَم القرآني يدورُ في زمن دائري، على طريقةِ الميتولوجيّا اليونانيّة، وبوحي من الصحراء المترامية الأطراف، وبإلهامِ السماء اللامتناهية. كلُّ ما في الإسلام على نَحْوٍ سبَق. لهذا فتطوّرُ الحياةِ وتغيّرُ الاحداثِ لا قيمةَ لهما البتة في نِظرةِ اللامتناهي واللامحدود. فالكلُ في القرآن يدور على نفسِه وعلى مثالٍ سبق.

سادسًا – إنّ القرآن هو كتابُ عقيدةٍ وتشريعٍ ونُظُم حُدِّدتْ وثُبِّتَتْ من لدنِ العليّ العليم، ولا شأنَ فيه للوقائعِ الزمنيةِ المتبدلّة. هو كتابُ دينٍ فيه من الفرائضِ والواجباتِ المنزلَة ما لا يستطيعُ الانسانُ، في ظروفِه الراهنة، تبديلَ شيءٍ فيها. انه كتابٌ يُشيدُ بـ "تَعَاليَة الله" وَبُعْدِه عن الإنسان، ووحدانيته المطلقة، حتى لم يبقَ له مع الانسانِ أيّةُ علاقة. من هنا كانتْ بعضُ الفِرَقِ التي نشأتْ في الاسلامِ تَرَى نفسَها مضطرّةً للاعتقاد ببعضِ التجسّداتِ الالهية، فكانتِ الدرزيةُ، مثلاً، تقول بتجسّدِ الله في الحاكِم، والنصيريةُ في عليّ بن أبي طالب، والشيعة عامّة في الأئمّة المعصومين. حتى المسلمونَ أنفسُهم اضطرّوا الى أن يُعطُوا لمحمد دورًا وكمالاتٍ كادتَ تلامس التأليه...

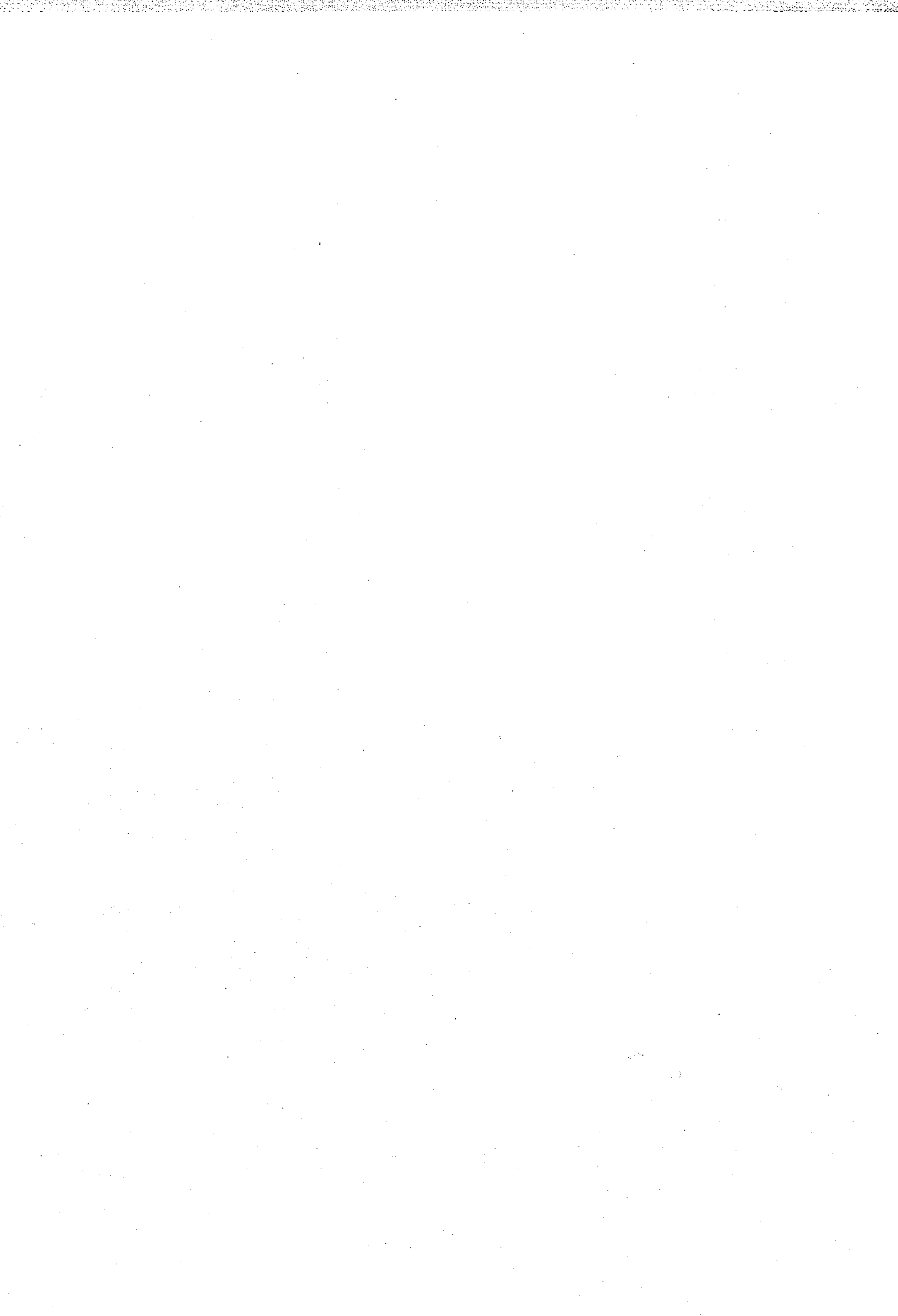
خاتمة الفصل الأوّل

إذا أردنا استقصاءَ معجزاتِ الله مع نبيّه، في هذا الفصل، لعجزنا عن حصرِها وتعدادها؛ بل إنّها تتعدّى الوصف والحدّ: فمِن معجزةِ اختيارِ الله لمحمّد منذ الأزل، إلى معجزاتِ استقباله الظافر قَبْل مولده، إلى معجزاتِ مولدِه، وطفولتِه، ورحلاته التجاريّة بين مكّة وبلاد الشام، إلى زواجِه من خديجة، ومن عائشة، وزينب بنت جحش، إلى معجزاتِ جبريل الذي استمرَّ على اتّصالٍ دائم مع النبي طوال ثلاثٍ وعشرين سنة في ظهوراتٍ عدّها كَتَبَةُ السِّيَر فإذا هي ستّون ألف مرّة، إلى معجزات خديجة التى عرفتْ دعوةَ زوجِها، وتأكّدتْ من الوحي ينزلُ عليه، إلى معجزات تنقلها بين بَعْلِها وابنِ عمّها القسِّ ورقة، إلى معجزاتِ الوحي ينصبّ على النبيّ فتتعثّرُ الجنُّ والشياطينُ لِهَول ما يسمعون فاذا الواحدِ منهم يتسمّع ويقول لأخيه : «انّا سَمِعْنَا قرآنا عجبا»(١/ ٧٢)...

لقد تفتّحتْ أبوابُ السماء ونشطتِ الملائكةُ تسعى فيما بين الله ومكّة، وجندُ الله يحرسون طريقَ جبريل على الصفّين، وهو يحملُ الى محمّد هديّة السماء الى الأرض. واستمرَّ جبريلُ محظوظًا بهذه المهمّة، ويتشوّفُ على خلقِ الله أجميعين. ومِن حظِ جبريل الاّ يُسلِّمَ الهديةَ دفعةً واحدة، لئلا تنتهي مهمّته سريعا، بل راح يقسِّطُ الآياتِ، واحدةً فواحدة، لتطولَ مدّةُ إقامته على الأرض.

الفصل الثاني

معجزة أُمّيّة محمَّد



مقدّمة الفصل الثّاني

في إيمان المسلمين، إنّ النّبيّ محمّدا كان «أمّيّا»، لا يعرف الكتابةَ ولا القراءة؛ وإنّ مكّة كانت غارقةً في «جاهلية» متمكّنةٍ بعقولِ أهليها. واستدلّوا على قولهم هذا في «أمّيّة» محمّد بما جاء في القرآن عن «الرّسول النبيّ الأمّي» في آيتَين متتاليتَين من سورة الأعراف (٧/١٥٧ و١٥٨)؛ واستدلّوا على «جاهليّةِ» مكّة بحديثٍ نبويٍّ جاء فيه : «إنّا أمّةٌ أمّيّةٌ، لا نكتُبُ ولا نَحْسُبُ»[١].

وتمسّك المسلمون بهذه الحقيقةِ، وذلك قَصْدَ الدلالة على معجزةِ النبوّة والاسلام. وفي معتقدهم، إنّ اختيارَ اللهِ محمّدا «أمّيّا لا يقرأ ولا يكتب يضيفُ إلى إذعان الناس له وايمانِهم برسالته سببًا»[٢]، علمًا بانّ الله كان باستطاعتِهِ اختيارَ نبيٍّ عالمٍ مثقّف، اذ «لم يكن اختيارُ محمّدٍ قارئًا وكاتبا شيئًا يَعِزّ على السماء، ولكنّه كانَ شيئًا إنْ تَمَّ يُهوِّنُ من حجّةِ السماءِ في نفوسِ الناس»[٣].

والعرب، أيضاً، فيما قَبل الاسلام، كانوا، في نظر المسلمين، أمّيّين جاهليّين، يعيشون في "جاهليّة" من المعارف والعيش والنّظم الاجتماعيّة البدائيّة. ولم يكن الأمرُ كذلك لولا «عاطفة دينية عندهم شدّدوا بها في أمّيّة

---

(١) البيان والتبيين ٣/٢٨، الصاحبي٨/١١، تفسير القرطبي ٢/٥، لسان العرب ١٢/٣٤ (أمم)، تاج العروس ٨/١٩١ (أمم)؛ صحيح البخاري، باب الصيام ١٣، صحيح مسلم، باب الصيام ١٥؛ سنن ابن داود، باب الصوم ٤؛ سنن النسائي، باب الصوم ١٧؛ مسند ابن حنبل ٢/٤٣ و٥٢ و١٢٢ و١٢٩. انظر أيضاً الفرّاء، المفردات، ص ٢٢.

(٢) ابراهيم الابياري، تاريخ القرآن، ص ٥١ .

(٣) المرجع نفسه.

العرب، فجعلوهم أمّيّين، لإظهارِ معجزة للرسول... في انّه ظهر بالنبوّة في أمّة أميّة، وجاء من الله بأحسن بيان وهي حجّة له على أهل الكتاب والمشركين»(٤).

في معتقد عامّة النّاس، إنّه، كلّما كانَ في الدين معجزات وعجائبُ، كان نموُّ الدين وانتشارُه أسرع. ومن جملة عجائبِ الله في خَلقه أنْ يُثْبِتَ «العلَم» حيثُ« الأمّيّة»، وأنْ يُشِعَّ المعرفةَ حيثُ «الجهلُ» وأنْ يُرسِّخَ الايمانَ حيثُ الكفر. وفي الاسلام كان ذلك : لقد قرّر بعضُ المسلمين المتديّنين تدخّلَ اللهِ المباشَر لصنع عجائبَ في الدين. فقالوا بـ «جهل» مكّة، وكُفْر أهلِها، وشِركهم، وعبادَتِهم الأوثان؛ واخترعوا، اكرامًا لـ «فتحِ مكّة»، ثلاثمائة وخمسة وستين صنما، حطّمها محمد يوم النصر المبين تحطيما. وقرّروا «أمّيّة محمّد»، تكريمًا لبلاغة القرآن وفصاحته وبيانِه المعجز، وذلك ليقولوا بانّ اللهَ سبحانه هو صاحبُ الكتاب، ومؤلِّفهُ، وكاتبُه، ومُنزِّلُه، وضامِنُه، وقارِئُه، وحافظه، وحامِيه...

ونحن نسأل : هل ما قرّره هؤلاء هو الواقع والحقيقة ؟ لننظر في ما اذا كانت مكّة على «الجهل » أم على «المعرفة»، وفي ما إذا كان محمّد على «الأميّة» أم على "العلم" ! ولنبحث، دلالةً على ذلك، في الخطّ العربي الذي كُتب به القرآن، وفي انتشار الكتابة والقراءة في مكّة، وفي وسائل الكتابة، وفي معنى «الأمّيّة« المنسوبة الى النبيّ.

(٤) جواد عليّ، المفصّل في تاريخ العرب قبل الاسلام ٨/١٤٢، الا انّ صاحب الكتاب لا يعتقد بأميّة محمد، ولكنه ينقل هنا رأي معظم المسلمين في القديم والحديث.

أولاً – القلم العربي

من «الثابتِ علميًا، وبصــورةٍ لا تقبلُ المراء ، أنّ الخطَّ العربي الذي كان مستعمَلاً في بيئة النبي وعصــرِه، يمتّد وجودُه إلى عشرات السنين قبل بعثته، كما أنّه متطوّرٌ عن أشكالٍ لخطوطٍ أخرى، كان يســتعمِلها عربُ الشام واليمن. وكذلك من الثابت علمياً أنّ ذلك الخطّ كان منتــشراً بمقياسٍ غيرضيّقٍ في بلاد الشام واليمن والحجاز والعراق، حتى كان يشملُ بَدْوَ هذه البلاد، ولو بمقياسٍ ضيّق. وما جاء في بعضِ الكتبِ العربــيةِ عن نشأةِ الخط العربي ووصولِه الى الحجاز وضيقِ انتشارِه فيه ضيقًا شديدا، هو تخليطٌ لا يتحمّل نقداً»[٥].

ويتبــيّن من نصوص جــاهلية ان العــربَ كانوا يُدوِّنون، قــبلَ الاسلام، بخطِ «المِسْنَد»، أو بــ «قَلَمِ حِـمْيَر»، الذي جيءَ به من ناحــيةِ اليــمن مع القوافلِ التــجاريّة التي كــانتْ تجوبُ الجــزيرة العربــيّة، تبــتدِىء باليــمن، وتمرُّ بمكة، وتتوزّعُ على مــصر وسوريا وفلسطين والعــراق والساحل الفينيــقي. وكانت مكّةُ محطّ رحالِهــا، وبيتَ استراحتِها وانتعــاشِها، لتكمّل اجتيازها الــعنيد عبر الصحاري الملتهبة.

وبحركــة التجارة هــذه دخَل مكّة «قَلَمٌ » آخر، «أسهلُ وألينُ فــي الكتابة من القلم المِسنَد. أخــذوه من القلمِ النبــطي المتأخــر، وذلك قــبيل الاســلام»[٦]. وكذلك أيضا انتــشر القلم الأرامي بواسطة المبشرّين بالنصــرانيّة الذين دخلوا

(٥) محمد عزّة دروزة، القرآن المجيد، ص ٧٥، وهو يعتمد على «كيتاني»

(٦) الدكتور جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٨/ ١٥٢ ...

جزيرةَ العرب، وانتشــروا في مختلفِ الاماكن، ونشروا معــهم دينَهم ولغتَهم وقلمهم.

فمن «القلم المسند» ومشتقاتِه، إلى «القلم النبطي» وتفرّعاتِه، إلى «القلم الارامي»، في شكلَيـه الغربي والشرقــي، أي «الاستـرانجـيلي»... تكوّن «القلَم العربي» الذي كُتب به القرآن. ويبدو أنّ قبـيلةَ قريش تعلّمتِ الكتابة من الحِيرَةِ والأنْبَار، حيثُ راجتْ تجارتُها، وعقدتْ مع قبائِلها المعاهداتِ الأمنيَة(٧).

ومهما كـان الأمر من تفرّعِ الخطوط، فانّ آثارًا كثـيرةً تدلّنا على وجود الخطِ العربي في مكة والحجاز، في عصورِ ما قبلَ الاسلام:

١. فهناك «أثرُ كتابةٍ عُثِر عليها مدوّنةً باللهـجةِ العربيةِ الشمالية القريبة من لَهْجَةِ القرآن، وكتبتْ بالقلمِ النبطي المتـأخّر، وبأسلوبٍ متأثرٍ بالارامية»(٨). هذه نجدها في أمِّ الجمّال في النمارةِ في الحرّةِ الشرقية من جَبل الدروز، على قبرِ أمرئ القَيْس الأوّل ابنِ عمرو ملكِ العرب، سنة ٣٢٨ ميلادية.

٢. ونصٌّ آخر في خرائب زبد بين قنّسرين ونهر الفرات جنوبي شرقي حلب، كتبت بـثلاث لغات: اليونانيّة والسـريانيّة والعربيّة.يرجع تـاريخها إلى سنة ٦١٢ للميلاد(٩).

٣. ونصّ ثالث، يســمّى «نقش حـرّان» في المنطقة الشـمـالية من جـبل الدروز، فوق باب كنيســة. يعود تاريخه الى سنة ٥٦٨ للميلاد. وهو باللغتين

---

(٧) أنظر : ابن رســتــه، الاعـلاق، ص ١٩٢ ، لسـان العـرب ١٢/ ٣٤ (أمم)، جـواد علي، المفصّل...، ٨/ ١٦٩، العقد الفريد ٣/ ٣٠٢ ...

(٨) جواد علي، المفصّل.... ٦/ ١٧٦، حيث تجد المراجع والنصّ.

(٩) جواد علي، المرجع نفسـه ٨/ ١٧٦، حيث النّـص والمراجع. انظر: بلاشيـر، في «مدخل الى القرآن»، بالفرنسيّة، ص ٤ .

اليونانيّة والعربية[١٠].

يُلاحظ الدكتور جواد علي «أنّ الذين كتبوا بالقلم العربي الشمالي، الذي أُخذ منه قلمُ مكة، هم مِنَ العَرَبِ النَصَارَى في الغالب. فأهل الأنبار، والحِيرة، وعينِ الشمس، ودَومَةِ الجَنْدَل، وبلاد الشام، كانوا من النصارى»[١١].

وفي رأي المستشرق «ويل» Weil ان نظرية اشتقاق الخطوط تشير «بكل جلاء الى اشتقاق القلم العربي من القلم النبطي المتفرّع من الخط الارامي»[١٢].

ولذلك فانّ ما ذكره المؤرّخون من «أنّ الحروف العربية لم تخترع الا قبيل البعثة النبوية ... هو قول جزاف لا يثبت على التمحيص والتدبّر»[١٣].

والجدير بالذكر «انّ البيئة الحجازية... وخاصّة مكّة والمدينة، كانت بيئة تجاريّة، متّصلةً بالبلاد المجاورة التي كانت تتمتّع بحظ غير يسير من الحضارة والثقافة.. وكان فيها جالياتٌ كتابيّةٌ نصرانيّة ويهوديّة نازحة من تلك البلاد. وكانت تتداولُ الكتب الدينية وغيرَ الدينية قراءةً وكتابةً، فلا يعقلُ ان يظلّ العربُ، أهلُ هذه البيئة، غافلين عن اقتباس وسيلةٍ من أشدّ الوسائل

---

(١٠) جواد علي، المفصّل... ٨/١٧٧، حيث النّص والمراجع ... وهناك نصوص أخرى كثيرة ترى اثباتا لها في «المفصّل في تاريخ العرب قبل الاسلام»، الجزء الثامن، ص ١٤٤ – ٢٢٠، والجزء الاول، ص ١٠٧ – ١٣٩ للدكتور جواد علي ؛ وكتاب «عصر النبي وبيئته قبل البعثة» ص ٦٠–٧٠، ٣٨٨–٥٢٨، لمحمّد دروزة؛ وكتاب "أعربيّ هو؟" للحريري.

(١١) جواد عليّ، المفصّل... ٨/١٧٨ – ١٧٩ .

(١٢) WeiL, Encyclopédie de l'islam 1/68

(١٣) محمد عزّة دروزة، عصر النبي، ص ٤٤٨ – ٤٤٩، حيث يتوسّع في ذكر اكتشاف آلاف النقوش في أعالي الحجاز والمنطقة العربية، ويذكر جملة مؤرّخين عرب جهلوا الحقيقة وأضلّوا سواهم...

ضرورةً إلى الأشغال التجارية، ومن أعظم مظاهر الحضارة التي اقتبسوا منها من البلاد المجاورة الشيء الكثيرة»[١٤].

ولكن ممّا يؤسف له حقاً «أنّنا لا نملك اليوم كتابة واحدة من الكتابات المدونة في ايّام الرسول، ولا نملك أيّ نسخة من نسخ القرآن أو من صحفه المدّونة في أيّامه. فلا نملك اليوم نسخة حفصة للقرآن الكريم، ولا نسخة عثمان ابن عفّان، ولا النسخ التي دوّنت بأمره لتوزّع على الأمصار، ولا أيّة نسخ أخرى من النسخ التي دوّنها الصحابة لأنفسهم. ولا نملك النسخ الاصليّة للمراسلات التي كان يأمر الرسول بتدوينها لتُرسل الى الملوك أوسادات القبائل والأمراء»[١٥].

وبسبب هذا الأسف، أطلق المستشرق الفرنسي بلاشير، صرختَه العالية[١٦]، بدعوة المسلمين والدول الاسلامية الغنيّة، ان يبذلوا جهدهم في البحث عن آثار النبي وصحابته وكتابه العزيز، تحت رمال مكة والصحراء. لعلّ اللّه يمنّ علينا بكنزٍ ثمين.

---

(١٤) محمد دروزة، القرآن المجيد، ص ٧٥ – ٧٦.

(١٥) جواد علي. المفصّل ... ٨/ ١٨٣ . ويقول دروزة: "إنّ أقدمَ ما وصل إلينا بالعربيّة الفصحى يعود عهدُه إلى أيّام العبّاسيّين. وليس فيه مؤلّف مكتوب في عهد الأمويّين" أنظر دروزة، تاريخ العرب في الإسلام، ص ١٦.

(١٦) Régis Blachère, Introduction au Coran, P. 196

ثانياً – القراءة والكتابة في مكة

إنّ حديثَ «إنّا أمّــة أمّيّةٌ لا نكتبُ ولا نحـسبُ» تعارضُه أحـاديثُ نبويّة أخرى مثل «قـريشٌ أهلُ الله. وهُم الكَتَبَةُ الحَـسَبَةُ»[١٧]، ومثل «حقُ الوالدِ على وَلَدِه ان يعلّمَه الكتابةَ والسـباحةَ والرماية». وشبـيه به قوله: «حقّ الوالد على ولده ان يحسّن اسمه، ويزوّجَه اذا أدرك، ويعلّمَه الكتابَ»[١٨].

ومع هذا، لا نقفُ، لاثـبـاتِ القـراءةِ والكتـابةِ في مكّة، عـلى مـثل هذه الاحاديث المتـضارية والمتناقضة، مـهما كان انتسـابُها الى النبيّ صحـيحا أو ضعيـفاً، فانّ التاريخَ المـوَثوقَ به والحفرياتِ الأثريةَ والقرآن نفـسَه هي لدينا خيرُ دليل. فـلا الاحاديثُ النبوية ولا رواياتُ الصحـابةُ تضعُنا على خطِ العلم القويم، لأنَّ مـا كتبَـه أصحابُ الرواياتِ والمُحَـدِّثون كان في خدمـةِ الدفاعِ عن الدَينِ أكثرَ ممّا كانَ في خدمةِ العلمِ والحقيقةِ والواقعِ التاريخي.

فـفي القرآنِ مَـثـلاً آياتٌ كثـيـرةٌ «تدلُّ دلالةً صريـحةً على أنّ القـراءةَ والكتابةَ كانتا منتشرتَين في الكتابيّين بوجهٍ عام... بمقياسٍ يصحُّ أن يُقال عنه انهّ كانَ واسِـعا بعض الشيء. وأنتَ اذْ تقـرأُ ما جاء في الآيات المكـيّةِ التي هي في الذين كانوا في مكّة من الكتابيّين... يَحصلُ عندك ترجيح بانّ أكثر الكتابيّين في مكة كانوا يقرأون ويكتبون»[١٩].

---

(١٧) الصولي، أدب الكتاب، ص ٢٨، حكمة الاشراق، ص ٦٧.

(١٨) الجامع الصغير، رقم ٣٧٤٢ و ٣٧٤٣، حكمة الاشراق، ص ٦٦ رما بعدها، وهي عن ابي هريرة المحدّث الثقة.

(١٩) أنظر، إثبـاتاً لذلك، الآيات : ٦/ ٢٠ و ١١٤، ٧/ ١٥٧، ١٠/ ٩٤، ٢٦/ ١٩٧، ١٦/ ٧٦

ثم انّ القرآنَ قد «احتوى آياتٍ عديدةً ذُكِرَتْ فيها أدواتُ الكتابةِ والقراءةِ، من كتب وقرطاسٍ وورقٍ وصحفٍ وأقلامٍ ومدادٍ وسجلات»[٢٠]. وننبّه على أنّ هذه الآيات جميعَها مكيّةٌ، ومن تحصيلِ الحاصلِ أن نقولَ انّ أهلَ مكةَ الذين كانوا أوّلَ مَنْ سمِعوها كانوا يفهمون مدلولاتِها. ولقد وردتْ كلماتُ الكتابةِ ومشتقاتها في القرآن نحو ثلاثمائة مرّة ونيف، وكلمة القراءة ومشتقاتها نحو تسعين مرّة ونيّف، وبأساليب متنوعّة»[٢١].

وآية ٢٨٢ من سورة البقرة، كغيرها، « تحتوي أسماء ورسائل وأدوات القراءة والكتابة، وتحتفي بالقراءة والكتابة هذه الحفاوة الكبيرة، دليل راهن على انّ العرب، في بيئة النبي وعصره، قد عرفوا تلك الوسائل والادوات، واستعملوها، وعلى ان القراءة والكتابة فيهم كانتا منتشرتَين في نطاق غير ضيّق. فكثرة الترديد تدلّ على الإلفة، وهذه لا تكون الا حيث يكون المألوف ذائعاً ذيوعاً غيرَ يسير»[٢٢].

بالاضافة الى ذلك، نرى القرآن «يحضّ التّجار على تدوين المعاملات التجاريّة نقدا ودَينا، صغيرةً وكبيرة... ومن الأرجح ان محمّد لم يوجدها بنفسه، بل كانت موجودة قبله في اللغة العربية. ومن المعروف ان المجتمع المكّي كان مجتمَعا تجاريا هامّا، يتّصل اتّصالا حميما ومستديما بالبلاد المجاورة، كالشام وفلسطين والعراق ودولتي الفرس والروم. وهذه كانت تنعم بحظ من الثقافة كبير»[٢٣].

---

(٢٠) أنظر: ٦/٧ و٩١، ١٣/١٧ – ١٤و٩٣، ١٨/١٠٩، ٢١/١٠٤، ٣١/٢٧، ٥٢/١ – ٣، ٦٨/١ – ٢، ٧٤/٥٢، ٨٧/١٨، ٩٦/١ – ٤ ...

و١٠٣، ٢٨/٥١ –٥٢، ٤٢/١٠، ٤٦/١٠، ٢٥/٤ – ٥ ...

(٢١) انظر: ١٠/٩٤، ٢٥/٥، ٢٦/١٩٨ – ١٩٩، ٢٩/٤٨، ٣٤/٤٤ ...

(٢٢) محمد دروزة، عصر النبي، ص٤٤٤، انظر: ٤٣٦ – ٤٤٥ ...

(٢٣) Lammens, La Mecque à la veille de l'Hégire, p. 120; Torrey, The commercial-theological Terms in the Koran; v. Nöldeke GdQ, II, 24...

وبالاضافة الى ذلك أيضا نرى في القرآن كلمات مستوردة يربو عددها على المئات، وهي مأخوذة عن اليونانيّة والسريانيّة والعبريّة والحبشيّة والفارسيّة والنبطيّة... وقد أثبت المسلمون الأقدمون هذه الكلمات وكتبوا فيها المجلّدات الطوال[٢٤].

ثمّ إنّ القرآن احتوى الكثير من الالفاظ والاسماء المعربّة، ممّا يدلّ على شيوعها واستعمالها عند أهل عصر النبي وبيئته. «هذه الاسماء جاءت في القرآن بصيغة عربيّة فصحى، أي غير ما هي عليه في لغاتها الأصلية؛ وبعبارة أخرى انّها معرّبة»[٢٥].

أضف الى ذلك أيضا «أنّ النبي كان يتّصل بمختلفِ الطبقات والشخصيّات المكيّة، ثم بمختلف الطبقاتِ والشخصيّات والقبائلِ التي كانت تَفِدُ على مكّة، في المواسم والأسواق، ويتحدّثُ إليهم، ويتلو عليهم آياتِ القرآن، ويتفاهمُ معهم بلغتهِ التي هي لغة القرآن بطبيعة الحال»[٢٦]

ثم إنّ الذين آمنوا في بدء الدعوة، لم يؤمنوا لأجل فصاحة القرآن اللغويّة ومعجزتِه البيانية وبلاغته الاعجازية، بقدر ما آمنوا لسببٍ آخرَ من الاسباب. وذلك لأنّ المؤمنين الأوّلين في مكّة آمنوا بالنبي قبل أن ينزل من القرآن شيء يذكر.

وأيضا لو كانت لغة القرآن هي سبب ايمان المؤمنين لاجل بلاغتها وفصاحتها، فلماذا، إذاً، بقي أكثر المكّيين والحجازيّين جاحدين! ألعلّهم لم يفهموا مضمونها ! أم لعلّهم فهموا وأنكروا! والأرجح أنّهم أدركوا وفهموا

---

(٢٤) انظر، الراغب الاصبهاني، المفردات في غريب القرآن، والسيوطي، الاتقان، فصل فيما وقع فيه بغير لغة العرب، وفي معرفة غريب القرآن، ١/١١٣ – ١٤١ .

(٢٥) محمد دروزة، عصر النبي، ص ٦٢/٦٨، ٤٢٩، ٤٦٥ .

(٢٦) المرجع نفسه، ص ٦١ .

وأنكروا. وإلاّ ما معنى قول القرآن : «لقد بعثنا في كل أمّة رسولا»(٢٧)؟

***

لم يَخْفَ على أئمّةِ المفسرين أنّ لغةَ القرآن هي لغةُ أهلِ الحجازِ كلهم، بكل ما فيها من بلاغة و فصاحة : عن ذلك قال الطبرسي في مجمع البيان: «انّ الله خاطبَ قوما عقلاء فصحاء، قد بلغوا الغايَة القصوى من الفصاحة، وتسنّموا الذروةَ العليا من البلاغة».

وقال الزمخشري في الكشّافِ: «انّهم كانوا من صحةِ التمييز بين الصحيح والفاسد، والمعرفةِ بدقائقِ الامور وغوامضِ الاحوال والإصابةِ في التدبيرِ والدهاءِ والفطنةِ بمنزلٍ لا يُدفعُون عنه».

وقال النيسابوري في تفسير ٢/٢٢. القائلة : « فلا يجعلوا لله أندادًا وأنتم تعلمون»، أي وانتم أهلُ العلمِ والمعرفة بدقائقِ الأمور وغوامضِ الأحوال. وهكذا كانت العربُ خصوصا قطّانُ الحرَمِ من قريشٍ وكَنَانَةٍ لا يشقُ غبارهم في الدهاءِ والفطنة(٢٨).

وفي كتب السِّيَرخبرٌ مشهور عن أسرى قريش الفقراء الذين قبض المسلمون عليهم في معركة بَدْر، والذين لم يستطيعوا دفعَ الفدية عن أنفسهم، كُلِّفوا بتعليمِ بعض أطفالِ المسلمين القراءةَ والكتابة...(٢٩). يعلّق محمّد دروزة قائلاً: «فاذا كان فقراءُ أهلِ مكة يقرأون ويكتبون فأولى أن يكونَ كذلك أغنياؤها وتجّارُها ونبهاؤُها، وأنْ تكونَ القراءةُ والكتابةُ مما هو مألوفٌ ومنتشرٌ بنطاقٍ غيرضيّق»(٣٠).

---

(٢٧) سورة النحل ١٦/٣٦، انظر سورة يونس ١٠/٤٧ ...

(٢٨) انظر هذه الاقوال في مراجعها، وفي كتاب "عصر النبي"، ص ٤٣٢ .

(٢٩) طبقات ابن سعد ٢/١، وسائر كتب السير ...

(٣٠) محمد دروزة ، القرآن المجيد، ص ـ ٧٥ – ٧٦ .

وعند أهل الأخبار روايات عن جملة أسماء لَمَعُوا في القراءة والكتابة والشعر والقَصَصِ والخطابةِ والوَعظِ والأمثال وغير ذلك من أنواع الأدب. وفي كتاب «المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام» سردٌ واسعٌ لبعضهم، في الصفحات ١١٢ – ١٤٣ من الجزء الثامن. وفيه ما يكفي للدلالة على العلم الكثير والمعارف الواسعة بالقراءة والكتابة في مكّة والحجاز.

***

بقي أن تكونَ آثارُ ما قبل الاسلام دليلاً، هي الأخرى، على ما وَرَدَ في القرآن والاحاديثِ النبويّة وكتبِ السِيَر. وفي ذلك قال دروزة : «لقد اكتُشِفَتْ آلافُ النقوشِ السبئيّة والمعينيّة والحضرموتيّة والقتبانيّة والحِميريّة في اليمن، والثموديّة واللحيانيّة في مناطق العلا ومدائن صالح في أعالي الحجاز، والصَفويّة في منطقة الصفا في جبل حوران، فضلاً عن النقوش النبطيّة والتدمريّة المكتشَفَة في البَلقاءِ وسيناء وتَدمر. وكثيرٌ منها يعودُ الى القرون القريبة من عصرِ النبي، بل منها ما هو عائدٌ لهذا العصرِ وبخاصة من النقوش الصفويّة. وحروف هذه النقوش خاصة مماثلةٌ للحروف العربية»[٣١].

وفي «المفصّل في تاريخ العرب قبل الاسلام» نموذجات عن آثار جاهليّة كثيرة، تشير كلُّها الى اتّساعِ نطاقِ المعرفة في مختلَفِ الامكنة»[٣٢].

من الواضح اذاً، استناداً إلى انتشار الخطّ العربي فيما قبل الاسلام، والى كثرة الآثار الجاهليّة وتوزّعها في مختلف مناطق الحجاز والجزيرة العربية، والى شموليّة الكتابة والقراءة في مجتمع مكّة التجاري، والى نصوصِ القرآن التي تقرّر، بمفرداتها ومصطلحاتها وتراكيبها واستعاراتها وتشابيهها، أنّ اللغةَ العربيةَ كانتْ مألوفةً ومفهومةً ومستَعملَة في بيئةِ النبي

---

(٣١) محمد دروزة، عصر النبي، ص ٤٤٨ – ٤٤٩ .

(٣٢) انظر: جواد علي، ١/ ٤٢ – ٥٣، ٨/ ١٧٥ – ١٧٩.

وعصرِه بنطاقٍ واسع.

كلّ هذا الذي رأينا يقرّر بوضوح معرفةَ المكّيين الواسعة بالقراءة والكتابة. لهذا نقول، مع جواد علي: «لا نتمكّنُ من الاطمئنانِ الى هذه الأخبار والروايات المدوّنة في الموارد الإسلاميّة عن الجاهلية»(٣٣).

وعدمُ الاطمئنان اليهم أمرٌ يدعو الى التساؤلِ عن الأسباب: فهل يقصدُ بعضُ المسلمين طمسَ أخبارِ الجاهليّة ؟ وهل يريدون القولَ بأنّ الاسلامَ كان أوّلَ مَنْ دعا الى العلمِ والمعرفةِ والكتابةِ والحساب والقراءةِ والتدوينِ والتدريس ! ؟ هل يقصدون إظهارَ عظمة الإسلامِ فقالوا بجاهليّةِ ما قبله؟!

في الحقيقةِ، يُخشَى أن يكونَ عند بعض المسلمين رغبةٌ في استئصال كلِ ما يمتّ الى أيّامِ ما قبل الإسلام بصلة. ويُخشى أن يكونَ الحديثُ القائلُ : بأنّ « الإسلامَ يهدمُ ما قبله»(٣٤) حديثًا ثابتًا مُسنَدًا الى النبي ؟! وهو، على ما يبدو، صحيحٌ، من حيث رغبة هؤلاء المسلمين، وغيرُ صحيحٍ من حيث الحقيقة والواقع التّاريخي.

---

(٣٣) المفصّل ...، ١/ ٧٣.

(٣٤) صحيح مسلم ١/ ٧٧ - ٧٨.

ثالثاً - أساليب الكتابة

من مسلّمــات المسلمين، أنّ النبيَّ اتّخذ كتّاباً للوحي، وأمــرَهم بكتابةِ كلِ ما يـنزلِ من القرآنِ على «الرِقَــاعِ»، و«اللِخَاف»، و «العُـسُبِ»، و «الأكْـتَافِ»، و«الأقْتَــابِ»، و«قِطَعِ الأدِيم»[٣٥]. وقد جـاء على لســان زَيْد بن ثابت: «كنّا عند رسولِ الله (صلّى الله عليه وسلّم) نؤلّف القرآنَ من الرِقاع»[٣٦].

قد تكون هذه الوســائل البدائيّــة صحيــحة، لندرةِ الوَرَق والشــجَر في الجزيرة العربية، ولغلاء ثَمَنِه في حال استيراده من البلاد المجاورة. ولكن، إذا كانتِ الكتابةُ والقراءةُ مألوفةً في مــكّة والحجاز، كما رأينا، فلا بدّ من أن تكونَ وسائلُ الكتابــةِ هي الأخرى مألوفةً وسهلةَ الاســتعمال. وخــيرُ ما يرّجِح هذا القولَ ما وَرَدَ في القرآنِ من إشاراتٍ الى هذه الوسائل.

* يذكر القرآن، أكثــرَ من مرّة، كلمةَ «**قرطاس**» و «قراطيس»، ممّا يدلّ

---

(٣٥) "**الرِّقاع**"، جمع رقعة. قد تكون من جلد أو ورق، أو كاغد قرطاس. و"**اللخاف**"، من لخفة، وهي الحجارة الدقاق أو صفائح الحجارة. و"**العسب**"، جمع عسيب، وهو جريد النخل. و"**الاكتاف**"، أي عظام اكتاف الجمال وغـيرها من الحيوان. و"**الاقتاب**"، جمع قتب، وهـو الخشب الذي يوضـع على ظهـر البعـير ليركب عـليه. و "**قطع الاديم**"، أي الجلد.

(٣٦) أنظر: الاتقان للسـيوطي، ١/ ٩٩، البرهان للزركشـي١/ ٢٣٧. ومن المعاصرين من يأخذ بنظرية هذه الوســائل البدائية: صـبحي الصـالح، مـباحث...، ص ٦٩، الزنجاني، تاريخ القرآن،ص ٤٤ - ٤٩، الابياري، تاريـخ القرآن،ص ٨٦، شحـاته، تاريخ القرآن والتفسير،ص ٢٥ و٣٦، الرافعي، اعجاز القرآن، ص ٣٤ - ٣٧ وغيرهم الكثير ...

على أنّها كانت معروفةً ومألوفةً كوسيلةٍ للكتابة والتدوين.. جاء فيه: «و لو نزّلنا عليك كتابًا في قرطاسٍ فلمسوه بأيديهم...» (٦/٧)، و «قلْ مَن أنزل الكتابَ الذي جاء به موسَى نورا وهدىً للنّاس، تجعلونه قراطيسَ تُبدونها وتُخفون كثيرا. وعُلِّمتم ما لم تَعلموا أنتم ولا آباؤكم» (٦/ ٩١). هذان النصّان يلهمان «ان الكتابة على القرطاس وكون الكتب مؤلّفة من قراطيس هو الشيء المألوف الذي لم يكن لِيُتَصَوَّرَ غيرُهُ»[٣٧].

وورد ت اللفظة أيضاً على لسان النّبيّ في قوله: " ثمّ جاءه بقراطيسَ فيها من كتب "[٣٨].

وفي لسان العرب، «القرطاسُ معروفٌ، يُتَّخذ من برديّ يكون بمصر... وهو الصحيفة الثابتة التي يُكتب فيها»[٣٩]. وقد ورد ذكره على لسان العديد من شعراء ما قبل الإسلام وبالمعنى نفسه.

* ويحتوي القرآن على كلمة «**صُحُف**» (٨ مرّات)، في معرض الإشارة الى القرآن والكتبِ السماوية. جاء فيه : «في صحف مكرّمة، مرفوعة مطهّرة»[٤٠] ، «إنّ هذا لفي الصحف الأولى صُحُفِ إبراهيم وموسى»[٤١] ، «بل يريد كل امرئ منهم أن يُؤتَى صحفًا منشرة» (٧٤/ ٥٢)... الخ.

وفي الأحاديث النّبويّة عن طيّ الصحف مثل قوله: " ثمّ تُطوى الصحيفة فلا يُزاد عليها عمّا فيها "[٤٢]. أو " ثمّ تطوى صحيفة حسناته "[٤٣].

---

(٣٧) محمد دروزة، القرآن المجيد، ص ٧٧ .
(٣٨) أنظر سنن الدارمي، مقدّمة ٣٤.
(٣٩) لسان العرب، ٦/ ١٧٢ (مادة قرطاس).
(٤٠) سورة عبس ٨٠/ ١٣ – ١٤ ، أنظر ٢٠/ ١٣٣، ٩٨/ ٢ ...
(٤١) سورة الاعلى ٨٧/ ١٨ – ١٩.
(٤٢) مسند ابن حنبل، ٤/ ٧.
(٤٣) البخاري، تفسير سورة ١١/ ٤؛ ومسلم، باب التوبة ٥٢؛ وسنن ابن ماجة، مقدمة ١٣؛

وفيها أيضاً قوله: " فإذا خرج الإمامُ طَوَوا صحفَهم "(٤٤).

«لم يذكر أحدٌ أنّ كلمة الصحيفة كانت تطلق على تلك الوسائل البدائيّة، وانّما كانت تطلق على ما كان معروفا من وسائل الكتابة التي تُحْمَلُ بسهولة، وتُطوَى بسهولة، ويُجْمَعُ بعضها الى بعض بسهولة. ولعلّ في آية المدّثر قرينةً على أنّ الصحفَ كانتْ تُنْشَرُ وتُطوى ، وهو ما لا يمكنُ أن يَتّصفَ به إلاّ وسائلُ الكتابةِ الليّنةِ كالقماشِ وورقِ القماشِ وورقِ الحرير والرقوقِ الناعمةِ المسوَّاة الخ»(٤٥).

* وفي قولِ القرآن : « يومَ نَطوِي السماءَ كَطيٍّ **السجلّ** للكتبِ» (٦/ ١٠٤) «دليل على انّ طيَّ الوَرقِ، أو ما كان يقومُ مقامَه من وسائلِ الكتابة الليّنةِ ليكون سجلاً للكتابة والتدوينِ كان مألوفًا شائعًا. وهذا لن يكونَ الاّ حيثُ تكونُ الكتب والقراطيسُ والوسائل الكتابية اللينة الاخرى»(٤٦).

وفي الحديث النّبوي: " فيَنشر عليه تسعةً وتسعين سجلاً، كلّ سجلّ مثل مدّ البصر "(٤٧). وفيه أيضاً: " فتوضَع السجلاّت في كفّه "(٤٨).

* وحين يتكلّم القرآن على «**القَلم**» الذي ترد فيه اللّفظة ٤ مرّات، بصيغتَي المفرد والجمع، وعلى الله «الذي علّم بالقلم» (٩٦/ ٤)، والذي يُقسم

مسند ابن حنبل ٢/ ١٠٥.

(٤٤) أنظر: صحيح البخاري، باب الجمعة ٣١؛ وباب بدء الخلق ٦؛ صحيح مسلم، باب الجمعة ٢٤ و٢٥؛ وسنن النسائي، باب الجمعة ١٣؛ وسنن ابن ماجة، باب الإقامة ٨٢؛ وسنن الدارمي، باب الصلاة ١٩٣؛ ومسند ابن حنبل، ٢/ ٢٣٩ و٢٥٩ و٢٦٤ و٢٧٢ و٢٨٠ و٤٥٧ و٥٠٥ و٥١٢؛ ٣/ ٨١؛ ٥/ ٢٦٠ و٢٦٣.

(٤٥) محمد دروزة، القرآن المجيد، ص ٧٨ .

(٤٦) محمد دروزة، المرجع نفسه.

(٤٧) أنظر: سنن الترمذي، باب الإيمان ١٧؛ سنن ابن ماجة، باب الزهد ٣٥؛ مسند ابن حنبل ٢/ ٢١٣.

(٤٨) سنن الترمذي، باب الإيمان ١٧؛ سنن ابن ماجة، باب الزهد ٣٥.

بـ «القَلَم ومـا يسطرون» (٦٨/ ١)، وعلى «شجـرةِ أقلام» (٣١/ ٢٧)... فـانّه يشير الى انّ هذه الوسيلةَ للكتابة كـانتْ موجودةً بين المفرادت الجاهلية؛ وهي، بحسب علوم اللغة، مأخوذةٌ عن السريانية التي أخذتْها بدورها عن اليونانية.

* وفي القرآن أيضا ذكر «المَدَاد» (١٨/ ١٠٩)، وهي المادة المستخرَجة من الفحم المستعمَلة للكتابة؛ وذكر «الدواة» أو المحبرة، وهي الأداة التي تحفظ الحبر. وهي من المفسّرين الذين رأوا في آية «ن والقلم» (٦٨/ ١) معنى الدواة والقلم [٤٩]. وفي الحديث ذكر للمداد في قوله: "إنّما هو مَداد في ورق" [٥٠].

* وفي القرآن أيضا ذكر للرِقِّ في قوله : «والطورِ. وكتابٍ مسطورٍ. في رِقٍّ منشورٍ» [٥١]. والرقُّ هو جِلْدٌ رقـيق، و«قـد اشتـهرتْ جـملةٌ مـواضـعَ في الحجـاز وفي اليمن بـترقيقِ الجلـد ودباغته... وأجـودُه هو المعمـول من جلد الغزال. وذُكِرَ أنّ الصحابةَ أجمعـوا على كتابةِ القرآن في الرقِّ لِتَيَسُّرِه عندهم، ولطولِ بقاءِ الكتـابة فيه» [٥٢]. ويبدو ان شعـراءَ ما قبل الاسلام كـانوا يكتبون عليه كثيراً [٥٣].

يتـحصّل من كل هذا أنّ بـيئـةَ القرآن كـانت لهـا صِلاتٌ «بالبـيئـات المجاورة المتمدِّنة التي تتيسّرُ فيها وسائلُ الكتابة والقراءةِ المألوفةِ على تنوّعها. وفيـها كـثيـرون من أهلِ هذه البـيئـات يقرأون ويكتـبون ويتـداولون الكتب. وحركـتها التجـارية قويّة واسعـة. وقد احتوى الـقرآن من أوصافِ حيـاتها، ومعايشـها، وحضارتِها ، ووسائِلهـا ما فيه الدلالةُ الوافيـةُ على أنّها هي أيضا كانتْ على درجةٍ غيـر يسيرة من الحضارةِ ووسائِلها. والكتابةوالـقراءة فيها

---

(٤٩) لسان العرب ١٣/ ٤٢٧ .، الفيروزبادي، تنوير المقياس... صـ ٤٥١ .

(٥٠) أنظر مسند ابن حنبل ١/ ٨٦.

(٥١) سورة الطور ٥٢/ ٢ - ٣ .

(٥٢) جواد علي، المفصّل ... ٨/ ٢٦٢ - ٢٦٣ .

(٥٣) انظر صبح الاعشى ٢/ ٤٧٥ .

منتشرتـان بمقياسٍ غير ضـيّق. (بيئة مثل هذه) لا يعـقل في حال ان لا يكون فيها وسـائل مدنية لـلكتابة، وان لا يوجد ما يُدوَّن عليه القرآن الاّ ألواحُ العِظَامِ ورقائقِ الحجارة وأضلاعِ النخيل وقِطَعِ الخَشَب»[٥٤].

وممّا يرجّح كتابة القرآن على وسائل حـضاريّة ليّنة كالورق والقماش وما أشـبه، ما ذَكَره البـخاري وأهلُ الاخبار عن احـراقِ عثمانَ للمـصاحفِ أو تمزيقِها. والوسائل البدائية لا تُحرَق ولاتمزق بالسـهولةِ التي قام بها عثمان.

ومن الأرجح أيضـا ألاّ تكونَ هذه الوسائلُ البدائية يحـمِلُها كَتَبَةُ الوحي، ويتبعون النبي أينما حلّ ورحل، ليسجّلوا ما ينزل عليه من آيات. ومن المعروف أنّ النّبي كان، في بدء بعثته، يدعو النـاس بِخَفَاءٍ وخَفر وبعضِ السـرّيّة. وليس من الممكن أن يحمِلَ كتّابُ الوحيِ أحمالاً من الألواحِ والعظامِ والحجارة ليكتبوا عليها، وهم مع النّبي على سَفَرٍ دائمٍ، وربّما مفاجئ!

وهذا ما أشـار إليه محـمّد دروزة في قوله: «إنَّ مـا رُوِيَ مِنْ أنَّ القرآنَ كـانَ يُدَوَّنُ على قِطعِ عظيـمةِ الـحجم ثقـيلة الوزن، صـعـبـةِ الحمل والـحـفظِ والترتيبِ، كـأضلاعِ النخـيل، وأكتافِ العظـامِ، ورقاقِ الحجـارة والخشب، لا يمكن أن يـكونَ هو الواقع عـلى إطلاقـه...»[٥٥]. واذا تمسّكَ بعضُ المـسلمين المتديّنين بهذه الوسائلِ البدائية لكتابةِ القـرآن فانّ لهم عندَ مُحَمَّد صَبيح جوابًا فيه بعضُ خـفّةِ الروح. يقول : «كتابةُ القـرآن المكي على هذه الأدواتِ الخَشِنَة كانَ مصْـحَفًا يحتاجُ الى عشـرينَ بَعيرًا لِحَمْلِه. ولمْ نعلمْ من أنبـاءِ الهجرةِ أنَّ قافلةً من الاحجار فَرَّتْ قَبْلَ النبي، أو مع النبي، ومعَها هذا الحِملُ الغريب»[٥٦].

---

(٥٤) محمد دروزة، القرآن المجيد، ص ٧٦ – ٧٧ .

(٥٥) محمد دروزة، القرآن المجيد، ص ٧٥ .

(٥٦) محمّد صبيح، بحث جديد عن القرآن، ص ٨٧ –٨٨.

رابعًا - أمّية محمّد

إنْ لم تسلَمْ مكةُ من تهمةِ الجهلِ والغباوة، فمحمّدٌ، وهو منها، لم يسلَمْ من تهمةِ «الأمّـيّة» وجهلِه القراءةَ والكتابة. و «علـى ذلك أجمَعَ المسلمون»[٥٧]. وهم، بما أجمعوا عليه، مـذهولون؛ وقصدُهم، بذهولهم، واضح، وهو التـثبّتُ من أنَّ القرآنَ «كلّه من عند ربّنا»[٥٨]؛ وليس لمحمّد فيه صنعة. نزّله اللهُ على قلبِه تنزيلاً، وأوحاه إليه وحيًا وإلهاما، وبلّغه ايّاه منجّماً...

وَمُعْـتَمَدُ إجمـاعِ المسلمين آيتانِ في القرآن: كلتـاهما تصفُ محـمّدًا بـ «الرسول النّبيّ الأمّيّ»[٥٩]. والأمّيّة، برأي مـعظم المسلمين هي الجهل بالقراءة والكتـابة، و «الأمّيّ هو الذي لا يكتب ولا يـقرأ من كـتـاب»[٦٠]، وهو « العَـيي الجِلفِ الجافـي القليلِ الكلام. قيل له أمّيّ لانه على مـا ولدتْه أمّه عليـه من قلّة الكلام وعُجْمَةِ اللسـان»[٦١]. والأمّيّون، في أحسن حال، هم الذين كانتِ «الكتابة فيهم عزيزةً عديمة»[٦٢]. والرسول أمّيّ أيضًا لنسبته إلى «أمّ القرى»، أي مكّة»،

---

(٥٧) الدكتور جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ٨/ ٩٢.

(٥٨) سورة ال عمران ٣/ ٧.

(٥٩) سورة الاعراف ٧/ ١٥٧، ١٥٨.

(٦٠) الراغب الاصبهاني، المـفردات في غريب القرآن ٢٢، وجميع مفـسّري القرآن لسورة الاعراف، أمثال: الزمخشري والبيضاوي والنسفي والقرطبي والطبري والخازن وابن عباس والنيسابوري والطبرسي والسيوطي...

(٦١) لسان لعرب ١٢/ ٣٤ (مادة: أمم).

(٦٢) تاج العروس ٨/ ١٩١ (مادة: أمم).

وذلك لجهله وجهلها على السواء[٦٣].

لقد عالجنا في كتاب «قسّ ونبيّ. بحث في نشأة الاسلام» معنى الأمّيّة في القرآن، وأعطينا الأدلّة الوافية على معرفة محمّد بالقراءة والكتابة من القرآن نفسه، ومن تربية محمّد الدينيّة على يد القسّ ورقة ابن عمّ خديجة، ومن اطّلاع النبيّ على «الإنجيل العبراني»، الذي كان القسّ ينقله الى العربيّة بحضور محمّد[٦٤]... أمّا الآن فلا بدّ من إثبات ذلك بما ورد في الأحاديث النبويّة وكتب السِّيَر والأخبار:

جاء في صلح الحديبة أنّ الرّسول «هو الذي كتب الكتاب بيده الشريفة، وهو ما وقع في البخاري»[٦٥]. وجاء في سيرة ابن هشام: إنّ «رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم) يكْتُبُ الكتاب هو وسُهَيْل»[٦٦]. وجاء في البخاري: «وأخذَ رسولُ اللهِ(ص) الكتابَ ليكْتُبَ، فكَتَبَ»[٦٧]. وفي آخر حياته «لمّا اشتدّ وجعُه قال: «ائتوني بالدواة والكتبِ، أكْتُبُ لكم كِتابًا لا تضلّون معه بعدي أبدا»[٦٨]. وفي حديث أبي بكر إنّ رسول الله «دعا في مَرضِهِ بدَوَاةٍ ومِزْبَرٍ (قلم) فكَتَبَ اسمَ الخليفةِ بعدَه»[٦٩]. وذكر الهمداني أنّ العربَ كانتْ «تسمّي كلَّ مَنْ قَرَأَ الكتبَ أو كَتَبَ: صابِئًا. وكانتْ قريش تُسمّي النبي(ص)، أيّامَ يدعو الناسَ بمكة ويتلو القرآن: صابِئًا»[٧٠].

بسبب هذه الروايات المعارضة لموقف المسلمين وإجماعهم على أمّيّة

---

(٦٣) الراغب الاصبهاني، المفردات في غريب القرآن، ص ٢٢ .

(٦٤) انظر كتابنا «قس ونبي» ص ٤٦ – ٥١ .

(٦٥) الروض الانف ٢/ ٢٣٠، السيرة الحلبية ٣/ ٢٣ ...

(٦٦) انظر ذلك نقلا عن «نولدكه» في تاريخ القرآن «جزء ١ ص ١٣.

(٦٧) الروض الانف ٢/ ٢٣٠، الطبري ٣/ ٨٠، الحلبية ١/ ٢٤.

(٦٨) البلاذري ١/ ٥٦٢، الطبري ٢/ ٦٣٥؛ ٣/ ١٩٢ : بعض الخلاف في الرواية .

(٦٩) تاج العروس ٣/ ٢٣١ (مادة : زبر)، مسند ابن حنبل ٣/ ٣٤٦.

(٧٠) الهمداني، الاكليل ١/ ٤٤.

محـمّد، رأى بعضُ الماهرين بالتـفسـير وصيـاغةِ الكَلِم أنّ النبيَ تعـلّم القراءَةَ والكتابة بَعْدَ النبوّة. جاء على لسان الحـافظ بن حجر أنّ النّبي كان أمّيًا وذلك «بسبب الإعـجاز. ولمّا اشتهرَ الاسـلامُ وأمِنَ الارتياب عَرَفَ حينئـذ الكتابَة». وقال ابن ابي شيبه: «ما مات رسـول الله(ص) حتى كَتَبَ وقرأ». وقال مجالد وابن دحية والنيـسابوري والباجي والبغوي: «إنّ مـعرفةَ الكتابةِ بعد أمـيّته لا تُنافِي المعجزة، بل هي معجزةٌ أخرى بعدَ معرفةِ أمّيّته وتحقق معجزته». وقال الطبرسي : «فأمّا بعـد النبوة فلا تعلق به بالريبة والتهمة، فـيجوز أن يكون قد تعلّمـها (أي الكتـابة) من جبـريل عليه السـلام، بعد النـبوّة»(٧١). وعند بعض المفسرين ان رسولَ الله كتبَ مع عدم علمِه بالكتابةِ وتمييزِ الحروف(٧٢). وهذا أيضا معجزة(٧٣).

ولكنّنا، لحـسنِ الحظ، نجد بـعضَ المسلمين المتقـدِّمين يفـسّرون كلمـةَ «الامّيّين» «بـ» الذينَ لا كـتابَ لهم من مـشركي العرب»، وذلك بمـقابل «الذين أُوتُوا الكتابَ من اليـهود والنصارى»(٧٤) . وفي تفسيـرِ القرطبي الذي نقل عن ابن عبّاس رأيٌ جازِمٌ حَسَنٌ قال: «الأمّيّون العربُ كلُّهم، من كَتَبَ منهم ومَنْ لم يكتبْ، لانهم لم يكونوا أهلَ كتاب»(٧٥).

---

(٧١) الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن ٨/ ٢٨٩ .

(٧٢) هذا الرأي للقاضي أبي جعفر السماني.

(٧٣) تاج العروس ٨/ ١٩١ (مادة : أمم) .

(٧٤) الطبري في تفـسيره على آية ٣/ ٢٠، ص ١٤٣ من الجزء الثـالث. تقول الآية: " وقل للذين أوتوا الكتاب والأمّيّين أأسلمتم؟ فإن أسلمـوا فقد اهتدوا " . يقول: يعني بذلك جلّ ثناؤه، وقل يا محمّد للذين أوتوا الكتاب من اليـهود والنّصارى، والأمّيّين الذين لا كتاب لهم من مـشـركي العـرب، أأسلمـتم؟ " .انظر أيضـاً: روح المعـاني ٢١/ ١٧، والفـراء، المفردات، ص ٢٢.

(٧٥) الجامع لاحكام القرآن ١٨/ ٩١.

خاتمة الفصل الثاني

ما يهمّنا من كل ما تقدّم، أنّ مكّة لم تكن في «جـاهليّة»، كما يطمئنُّ اليه بعضُ المسلمين. فـتلك المدينة المنفـتحـة على اليَـمَنِ ذاتِ الحضـارات العريقـة جنوبًا، وعلى بلادِ الشام ودولَتَي الـرومِ والفرس شمالاً، وعلى فلسطين مـهدِ النبّواتِ والأنبياءِ والتوحيدِ غـربًا، وعلى بلادِ ما بين النهرين ومهدِ الحضارات القديمة شرقًا... هذه المدينة، التي يُحاصِـرُهاَ العلمُ والحضارةُ من كل جهة، لا يمكن أن تبقَى غريبةً عنه، تتخبّطُ في الجهل والغَباوَة.

وإذا كـانَ مقـصـودُ بعضِ المتدينينَ انـذهالَهم أمام فـصـاحةِ القـرآن وبلاغتـه، فإنّنا نطمـئنَهم بأنّ الدّين والإيمانَ والخَلاصَ والسـعادةَ والحـياةَ الخـالدة لا تقوم على الـلّغة والفـصاحـة والبـلاغة. كـمـا لا تقوم أيضـاً على المعجزات والأعاجيب... هذه أولى بالأبالسة والكهّان والسحرة. أضف إلى ذلك أنّ شأنَ النبي لن يكونَ أعظمَ، في حالِ اثباتِ الجهلِ والأمـيّة والغباوةِ حواليه، من أنْ ينعمَ بمجـتـمعٍ فـيـه من الوعي والعلم والمعـرفـة مـا يكفي لمجـادلتـه ومقارعته، وبالتالي إثبات حجّته.

وما اتّهـامُ الكافرين لمحمد بـأنّه افترَى القرآنَ افـتراءً إلاّ لانّهم «رأوا انَّ القرآنَ، في مـادّتهِ وتراكيبه، وفنونه اللفظيـة، انما هو مِثْلُ تراكيبـهم ومادتِهم وفنونِهم اللفظية، وانّ هذا في متناوَلِهم»[٧٦]. وما تحدّي النبيّ بأن يأتي الناسُ بمِثْلِ مـا أتى إلاّ «اعتـرافٌ واضِحٌ بانَّ لغةَ القـرآنِ في مادّتِه واسلوبِه ونُظُـمِه

(٧٦)محمد دروزة، عصر النبي، ص ٤٠٠ .... انظر آيات الافتراء في القرآن.

وفنونِه اللـغـوية، كـان ممّا يدخلُ في مـــتناوَلِ العـربِ الإتيـان بمـثلِه، لو لم يصْرِفْهم اللهُ عن ذلك»(٧٧).

ثمّ إنّ الإيمان بمعجزة أمّيّة محمّد فيه من الغرابة ما يجعل المسلم المؤمن في حَيـرة: لقد كان مقـصودُ المسلمين في إثباتِ أمّـيّة محمّـد سبيلاً واضـحا لأثباتِ معجزةِ القرآن ومصدرِه الألهي. وهذه المعجزة جرّتْ معها معجزات لها أوّل وليس لهـا آخر. وأحدثت وراءَها تزويرًا في الـتاريخِ وتحويرًا. بسـببـها سقطتْ مكّةُ في الجهـل والغباوة، وبسببـها عُمِّم الجهلُ والكفرُ على عـصر ما قبل الاسـلام، وبسبـبها قَـلَبَ الله نظام الكون، فوضَع الفـصاحةَ عـلى لسانِ جـاهلٍ، ووضـعَ العلمَ حـيثُ الجـهلُ، والايمانَ حـيثُ الكفـرُ، والمعرفـةَ حـيثُ الغباوة...

أمن الإنصـاف، لأثباتِ بلاغة القرآن، تهـمةُ الناسِ بالجهل والأمّيّة! أهي معجزةٌ للدين أن يَعجزَ الناسُ عن الإتـيان بفصاحته ! هل من أهداف الدين أن تُدَعَّمَ أساسـاتُه ببدائيّةِ البـشر؟ هل على الإسـلام أن يَجدَ عزّتَه بمقـابل جهل الجاهلين؟.. إنّ تاريخَ الأديان يثبتُ عكسَ ذلك. فلمَ التعـامي عن فخرٍ بالجدودِ هو حقّ لهم علينا؟! إنّ القـولَ بمثلِ هذه المعجزة يعـجِّزُ البشـرَ عن رؤيةِ وجهِ الحق.

---

(٧٧) المرجع نفسه، ص ٤٠١ ... انظر آيات التحدّي في القرآن.

الفصل الثالث

مُعجزة حفظ مُحمّد للقرآن

أوّلاً – النّسيان النّبويّ

ثانياً – النّسخ في القرآن

ثالثاً – إجازةُ التبديل في القرآن

رابعاً – آيات شيطانيّة



مقـدّمـة الـفصـل الثالث

في إيمان المسلمين أنّ الله تولّى ويتـولّى بنفسِـه شؤونَ كتـابه الكريم فهـو الذي «أوحاه»، وهو الـذي «نزّله» من " الأفقِ الاعلى "، وهو الذي «أنزله» على محمّد " منجّماً " ، وهو الذي «جَـمَعَه»، و«رتّبه»، و«قرأه» لمحمّد، وهو الذي «يحَفْظُه»، ويعـمل على «بيَانه»... وبالتـالي، لا شأن فـيه لمحمّـد، ولا لأحدٍ من العالَمين: فلا ذاكرةُ محمّد تفيدُ في حفظه، ولا علمُه يزيدُ فيه علماً...

ولئن كان اللهُ هو نفسُه تدبّر أمرَ القـرآن فأحرى به أيضاً أن يتدبّر أمرَ محمّـد. فهو الذي جعله يحفـظُه ويبلّغه بأمانةٍ ودقّةٍ متناهيـة. هكذا عَصَمَ اللهُ النبيّ من نقـيصةِ «الـنسيان». وعَـصَمَـه من الأهواءِ والنّزَعَاتِ الشـخصـيّةِ. وعَصَمَه من أن يُبدِّلَ ويُحـرِّفَ في الكتاب. وعَصَمَه من أن يُنقصَ منه أو يَزيد. وعَصَمَه من دسائسِ الشيطان وحِيَلِه... لقـد أنعم الله على نبيِّه بالعصمة، لأنّه تعالى حمّله حملاً ثقيلاً : «إنّا سنُلقي عليكَ قولاً ثقيلاً» (٧٣/ ٥).

ولكنَّ عـصـمَـةَ اللهَ هذه لم تمنعِ الرسـولَ من أن يَـنعمَ بكل مـاله من عواطفِ الحبِّ والغضبِ، وأمـيالِ النفسِ والجسد، ونزعـاتِ القلب والشّهوات، وَوَهَنِ الطبيعة ومـتطلّباتها: لقد عرفَ النبيّ الحبَّ والشهـوةَ، واختارَ له نساء، وميّزَ بينهنّ، فآثرَ واحدةً على واحدة، وكانَ له أولاد، وهَمٌّ تربيةِ الأولاد، وكان له أصحاب أوفياء، وأعداءٌ نَزَّلَ عليهم اللعنات. كان كسائر البشَر في كل شيء: في تَعَبِه وأمراَضِهِ وآلامِه وأكْلِه وشربه وَمشيه في الأسواق[1]... في هذه كلِّها

---

(١) أنظر سورة الفرقان ٢٥/ ٧.

لم يَعصِم الله نبيَّه...

إلاّ أنّ اللّهَ عصَمه من ارتكابِ الفواحشِ والأخطاءِ والأغلاط وكلّ ما يمتّ إلى الأخلاق بصلة. وعصَمَه أيضا وخاصّةً فيما يتعلّق بتبليغ كتابه ورسالته. هذه العصمة هي أمرٌ قديمٌ جدًا في تاريخِ اللّـه مع الأنبياء: لقد كان النبيّون في إسرائيل معصومين؛ وفي المسيحيّة عصمةٌ تمتدُّ بعيدًا؛ بل كلُ صاحبِ عقيدةٍ أو نفوذٍ أو قيادةٍ يتمتّع، عندَ أتباعه، بعـصمةٍ ما... ويبدو أنَ الإنسانَ، في ضياعِه في خضمٍّ هذا العالم المضطرب، يحتاجُ الى بعض العصمة يجدُها في مكانٍ ما، ليطمئنّ. بل كل امرئٍ يَسعى لأن يكونَ في مسعاه معصومًا...

وكم عُصِمَتْ في التاريخِ أنـبياءُ وأولياءُ وقدّيسـون وأئمّةٌ وأصـحابُ عقيدةٍ وزعماءُ سياسـيون وثوّارٌ ومنظّرون ومنظّمون ... وكم عُصِمَتْ شرائع وقوانين وكتبٌ ورسائـلُ ومبادئ... ومَنْ يستطيعُ تغييـرَ حرفٍ واحدٍ من كتبِ السمـاءِ دونَ أن تنهالَ عليه ويلاتُ الارضِ وأهوالُ السـماوات! ومنْ يمكنُه ألاّ يرى في كـتابِه كلَّ عصـمةٍ وكلَّ حقّ! ومَنْ يتـمكّنُ من إزالةِ حـرفٍ واحدٍ من الناموس، حتى ولو كانَ كلُ حرفٍ من الناموس من صنعِ رجالٍ تعساء!

لكأنَّ العصمةَ هي، عندَ البشر، نزعـةٌ نحوَ الأبديّة: والحقيقةُ هي أنَّ كلَّ شيءٍ على الأرضِ يَمُـوج؛ والأرضُ كلُّهـا تموج بكلِ شيء، والحـيـاةُ غـيـرُ مستقـرّة، وعواملُ الكونِ في تغييرٍ مسـتمرّ، ومعالِمُ البشريّـةِ تُمْحَى سريعا، وعلومُ الانسان تَنقلِـبُ من عصـرٍ الى آخر، والأمرُ الواحد حقيـقةٌ هنا وضلالٌ هناك، ودُوَلٌ تَدول، ومجتمعاتٌ تَزول، وعالَمٌ يبور، والكلُ في اضطراب. وليسَ على الارضِ ثابتٌ الاّ ما لا يَثبت... تجاهَ هذا الواقع المائج، خَلَقَ الانسانُ له حَبْلاً مَتينًا رَبَطَ بِهِ الأرضَ المائِجَةَ بِـ "عُمُدِ السماءِ "[٢] الثابتة، فكانتِ العصمةُ خيرَ ما أوْجَد.

---

(٢) إشـارة إلى مـا جاء في القـرآن عن أنّ للسـمـاء عـمَداً (راجـع ١٣/٢ و ١٠)، و "عمَـداً ممدّدة" (٩/١٠٤).

ملايينٌ في ملايينٍ من الكتبِ حاولَ أصحابُها وَضْعَ بعضِ العصمةِ فيها. وليسَ في الأرض مِن مفكّرٍ أو صاحبِ رأيٍ أو مُنظّرٍ الاّ ويَدمَغُ ما عندَه بالعصمة. بل ليسَ من ساعٍ نحو عصمةِ ما لديه الاّ ويريدُ دفْعَ الآخَرينَ الى عصمتِه دفَعا. حتى بات الجميعُ ينوءُ تحت عبءِ العصمةِ وأصحابِها. وقد لا تكونُ مشاكلُ الأرضِ والإنسانيةِ إلاّ من هذا القبيل. فلولا خَفّفَ الإنسانُ عن أخيه بعضاً من عصمتِه لَهَانَتْ عليهما وعلى البشرِ سُبُلُ المحبةِ والوفاقِ والسلام. ولكنّ ميلاً في عمقِ كلِ انسان يَجْمَحُ به نحوَ العصمة. فلهذا كان في الأرض حروبٌ وثوراتٌ وبغضٌ وكفرٌ وبلبال. وأخطرُ صُوَرِ العصمةِ وأعمقُها رُقّمَتْ في الدِّين. فلا الدِّينُ يزول، ولا العصمةُ فيه تَخِفُّ حِدّتُها؛ لا المؤمنُ يتزحزح عن عصمةِ دينه، ولا لاعِنُ الأديان يستطيعُ الخلاصَ من دغدغةِ عصمته !

يهونُ الإيمانُ بالعصمة في ما يتعلّقُ بأمور السماء والأديان. ولكن كيف يهونُ معَ رجالٍ عَصَمُوا أنفسَهم وعَصَمَهم الناس؟ وقد يهونُ الأمرُ أيضا إذا تمتّعَ هؤلاءِ الرجالُ بعصمةِ أهلِ زمانهم. ولكن كيف يهونُ متى انقلبَ ذاك الزمان، وَتَبَدّلَتْ معالمُ الحضارة، وانقلبَ التاريخُ على نفسِه، وقَلَعَ مجتمعٌ حضاريٌّ مجتمعًا بدائِيًا، وأطاحتِ الأرضُ الخضراءُ بالصحراءِ الملتهبة، وأخذتِ السيّاراتُ والطائراتُ تملأُ آفاقَ البرِّ والبحرِ مكانَ العِيرِ والحمير!!!...

متى حدث كلُ هذا، نسأل : هل تبقى العصمةُ في مجدِها ؟ وهل نبقى تحتَها رازحين إلى الأبد ؟ هل يبقى الرجالُ أحياءَ بعصمتِنا لَهم، وقد أماتَهمُ اللهُ رحمةً بنا؟ هل يتسنّمُ كلُ معصومٍ بمجدِه على رؤوسِنا وفي عرشِ قلوبنا، وعظامُه في الترابِ بَلِيَتْ وصيّرتْها الأرضُ الحنونة هَبَاءً ورماداً؟ هل يحقُ لنا تخليدُ رجالٍ أفناهُمُ الموت؟ ليتَ الوثنيةَ تعودُ بوجهِها الصريح بدلَ أن تبقى تعملُ فينا بمثلِ هذا الوجهِ القبيح!!!

مَن هو الكافرُ بالله، أعابِدُ الأصنامِ الذي بها يَسعى نحوَ الله، أم الذي

يسرقُ من اللهِ عصمتَه ليغرّزَها في رَجُلٍ مائتٍ كالرجال ؟ مَن هو المشركُ بالله، ذاكَ الذي أطلقَ سرَاحَ الله، أم ذاكَ الذي حصَر الله في هيكلٍ من حجارةٍ، أو في كتابٍ من وَرَقٍ؟ او في انسانٍ مائت!!!...

ومع هذا يجب أن يبقى عند بعضِ الناس لبعضِ الرجالِ بعضُ العصمة. هذه العصمة، والحقُّ يُقال، لولاها لَضَاعَ الناسُ في ضياعٍ محتّم. بعضُ العصمة يخلّصُ الانسانَ من القلق، ولكنَّ العصمةَ كلَّها تُريحُ العقلَ كثيراً. هذا العقل الذي خُلِقَ حرًا باحثًا متحرّكًا ناشطًا عاملاً في كل أمرٍ من أمورِ الأرض والسماء. بعضُ الإتّزانِ يكفي لبعضِ الخلودِ على أرضِ الفناء. وبعضُ الحرّيّة من معصوميّ السماء يكفلُ لنا أجْرَين: أجرَ الباحثِ الحرّ عن الحقيقة مهما كانت صعبة، وأجرَ مَنْ يستميتُ في الحفاظ على كرامةِ الانسان وحرّيتِه.

بعد هذا علينا أن نسأل: كيف عَصَم اللهُ محمّداً من النسيانِ، ومن أهواءِ الطبيعة، ومن تجاريبِ الشيطان، ومن التحريفِ والتصحيفِ في الكتابِ الذي بين يديه؟!. كيف رُبِطَ هذا الكتابُ بِعُمُدِ السماء!؟ وكيف نزّله ملاكٌ من السماء؟! وأن تسأل: هل حَفَظَ محمّدٌ كلَ القرآن؟ أم نسيَ بَعضَه؟ وهل في حفظِه هذا معجزةٌ الهيّة!؟ فلننظر.

أوّلاً – النّسيان النّبويّ

يعترف القرآنُ نفسُه بأنّ كثيرًا منه قد نُسِيَ. ولئن كان الأنبياء معصومين في رسالتِهم وأخلاقِهم، فإنّهم، على ما يبدو، لم يُعصَموا من الضعفِ والوهَن الحاصلَين في الطبيعة البشريّة. ونجدُ القرآن والسنّةَ يُقرّان بهذا الضعفِ النبوي. ولا بدّ للمسلمين من أن يُقرّوا بهذا الضعف في ذاكرةِ النبي الذي أساء في حفظ كل القرآن.

١. فمنذ مطلع الوحي، حذّر اللهُ محمّداً من نسيان شيء من القرآن، قال في **سورة الأعلى**: «سنُقْرِئُكَ فلا تَنسَ إلاّ ما شاء اللّهُ. إنّه يعلَمُ الجَّهرَ وما يخفى. ونُيَسِّرُكَ لليُسرى»[3]. وجاء في تفسير ذلك: سنقرئُك القرآنَ فلا تنسَ ما تقرؤه إلاّ ما شاء الله أن تَنْسَاه، بِنَسخِ تلاوتِه وحكمِه. وكان الرسولُ يجهرُ بالقراءةِ مع قراءة جبريل خوفَ النسيان، فكأنّه قيل له: لا تعجلْ بها، إنّك لا تَنسى فلا تُتعِبْ نفسَكَ بالجَّهرِ بها. إنّه تعالى يعلم الجهرَ من القولِ والفعلِ وما يخفي منهما...»[4].

فاذا كان المفسّرون يقرّون بإمكانيّةِ النسيان عند محمّد، فإنّ محمّدَ الكلبي بجيزُه، فيقول: «ان النسيانَ جائزٌ على النبي فيما أرادَ الله أن يَرْفَعَهُ مِنَ القرآن، أو فيما قَضى اللهُ أن يَنْسَاه، ثم يَذْكره. ومن هذا قول النّبي حين سَمع

---

(٣) سورة الأعلى ٨٧/ ٦–٨.

(٤) أنظر تفسير الجلالَين على سورة الأعلى ٨٧/ ٦–٨.

قراءةَ عباد بن بشير رحِمَهُ الله: لقد أذكرَني كذا وكذا آيةً كنتُ قد نسيتُها»[٥].

وفي كتاب الإتقـان في علوم القرآن للسيوطي: «جـاء رجلان إلى النّبيّ يسـألانه عن آيةٍ نزلت عليـه وسمعـاها منه ثمّ نسياها. أجـاب النّبيّ: "إنّها ممّا نُسخ. فالْهُوَا عنها" »[٦].

أمّا تفسـير الزمخشري فيـتوّقف على معجزة قراءةِ جـبريل للنبي لئلا ينساه. «وقيل: كان يعجلُ بالقراءة إذا لقّنهُ جـبريلُ، وقيل: لا تعجل فإنّ جبريلَ مأمورٌ بأن يقرأه عليكَ قراءةً مكرَّرَةً الى أن تحفظَه ثم لا تنساه الاّ ما شاءَ الله، ثم تذكُرَهُ بعد النســيان... وروي أنّهّ أسْقطَ آيَةً في قراءتِه في الصـلاةِ فَحَسِبَ أُبيٌّ (بن كعب) أنّها نُسِخَتْ. فسأله. فقال: نَسِيْتُهَا»[٧].

وجاءَ في تفسير الطبري: «أخـبر أنّه يُنسِي (اللهُ) نبيَّه منه (من القرآن) ما شـاء. فالـذي ذَهَبَ منه هو الذي استـثناه الله»[٨]. ونجد أيـضا في «كـتاب مجـموعةٍ من التـفاسير» للبـيضاوي والنسَـفي والخازن وابن عبّـاس إقرارا بالنسيانِ النبوي وبحدوثِه مِرَاراً على ما روى المحدِّثون، ومنهم الصـحيحان[٩].

***

٢. وفي **سورة الكهفِ** قوله : «واذكـر ربَّكَ اذا نسِيتَ. وقـلْ : عَسـى أن يَهْدِيَني رَبّي لأقْرَبَ من هذا رشدا»[١٠]. فسّر البيـضاوي ذلك بقوله : «اذا فرطَ منكَ نسيانُ ذلك... اذكـر ربَّك وعقابَه اذا تركتَ بعضَ ما أمركَ به، ليـبعثَكَ على

(٥) محمد الكلبي، كتاب التسيهل لعلوم التنزيل ٤/١٩٣ – ١٩٤.

(٦) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ٢/٢٦.

(٧) الزمخشري، الكشاف ٤/٢٤٣.

(٨) تفسير الطبري على٢/٤٨.

(٩) انظر «كتاب مجموعة من التفاسير»، ٦/٤٩٤ .

(١٠) سورة الكهف ١٨/٢٤.

التداركِ. واذكره إذا اعتراكَ النسيانُ لِيُذْكِرَكَ المَنْسِيَّ»[١١].

وفي تفسير الزمخشري إشـارةٌ الى منفعة النسيانِ وضرورته. يقول : «واذكرْ ربَّك اذا تركتَ بعضَ ما أمرَك به ... واذكره اذا اعتراكَ النسيان ليذكّرك المنسيَّ... والظاهر أن يكونَ المعنى : اذا نسيتَ شيئا فاذكرْ ربّك. وذكرُ ربّك عند نسيانِـه أن تقول عَسَى ربّي أن يَهديَني لشيءٍ آخـرَ بدلَ هذا المنسيِّ أقرب منه «رَشَدًا». وأدنى خيرًا، ولِعَلَّوِّ منفعةِ النسيانِ خيرة، كقوله: أو نُنْسِهَا نأتِ بِخَيرٍ منها»[١٢].

وهو أيضا تفسيرُ النسفي والخازن وابن عباس على آية الكهف هذه[١٣].

***

٣. وفي **سورة البقرة** قوله: «ومـا نَنْسَخُ من آيةٍ أو نُنْسِهَا نأتِ بخـيرٍ منها أو مِثْلِهـا. ألمْ تَعلَم أنّ اللّهَ على كلِّ شيءٍ قدير!» [١٤]. نتكلّمُ الآن على فعل «نُنْسِهَـا» ونرجئُ الكلامَ على «النَسْخِ» الى ما بعـد . لقد اختلفتْ قـراءاتُ فعْلِ "نُنْسِهَا" ؛ فمنَ المفسّرين من قرأها بمعنى «نؤخِّرُها فلا نُنزِلُ حكمَها، أو نَرْفَعُ تلاوتَها، أو نؤخِّرُهـا في اللّوحِ المحفوظ»[١٥]. ومنهم من رأى «معناها : نُثْبِـتُها على قلبِك... (فيكون) الإنْسَاءُ نَسْخًا من غيرِ إقامةِ غيرِه مقامَه (من أحكام).

أمّا الرأي المرجَّح فهـو إِنسـاؤُها، أي «إذهابُها عن القلوبِ» أي نسـيانُها، و "نُنْسِكها" أي نُمْحِها من قلبك»[١٦]. ويعتبر الطبري أنّ «نسيانَ الوحي ظاهرةٌ

---

(١١) تفسير البيضـاوي للقرآن على سورة الكهف.

(١٢) الزمخشري، الكشاف ٢/ ٤٨٠ .

(١٣) كتاب مجموعة من التفاسير، ١/ ١٠٠ على سورة الكهف.

(١٤) سورة البقرة ٢/ ١٠٦.

(١٥) تفسير الجلالين على ٢/ ١٠٦ ، مجموعة من التفاسير، ص ١٧٤.

(١٦) تفسير الجلالين على ٢/ ١٠٦ .

نبويّةٌ ألهيّةٌ في القرآن»[١٧].

بأيّ معنى جاءت لفظة «نُنْسِهَا » فلا اعتراضَ عليه. ولكنّ كُتُبَ الحديثِ والسنّة تعترفُ بظاهرةِ النسيان المحمّدي بما لا يبقى لدينا أيُّ شكّ في ذلك:

لقد نَقل الطبري عن «قتادة قوله: يَقرأ نبيُّ اللهِ الآيةَ، أو أكثرَ من ذلك، ثم تُنْسَى وتُرْفَع. وأيضا : كانَ الله يُنسي نبيَّه ما شاء. وعن مجاهد، كان عُبيدُ الله بن عَمير يقول: نُنْسِهَا، ونرفَعُها من عندكم. وعن الحَسَن: إنّ نبيّكم أُقرِئَ قرآنًا ثم نَسِيَهُ. وعن الربيع: نُنْسِها، نرفَعُها. وكانَ الله أنزلَ أموراً من القرآن ثم رَفَعَها» [١٨].

والحقيقة أنّ ما ورد على لسان المفسّرين من معانٍ لفعل « نُنْسِهَا» تتقارب : فَرَفْعُ أحكامِ آيةٍ ما من آيات القرآن، أو تأخيرُها، أونسيانُها، أو محوُها من قلبِ النبي كلُّها تدلُ على طَعْنٍ في صميمِ العصمة. إنّ الله الذي عَصَمَ نبيّه ليعصِمَ بعصمتِه القرآنَ «يَرْفَعُ» الآن عصمَتَه، وذلك بسببِ تبدّلِ ظروفِ النبيّ وأحوالِه وأحداثِ التاريخ. ويُثبتُ ذلك ما سيُجمع عليه المسلمون كافّةً من جوازِ نَسْخِ آيةٍ بآية، كما سيأتي...

وفي صلاةِ النبيّ لربِّه خيرُ ما نختُم به قولَنا : «ألّلهمّ! ذكّرني منهُ ما نَسِيتُ وعلّمني منه ما جَهلتُ». ويعترفُ المحدِّثون بأهميّةِ هذه الصلاة، فيفسّرون: «ربّما نزلَ على النبي الوحيَ بالليلِ وَنَسِيَهُ بالنهار».

(١٧) تفسير الطبرى، ٢/١٠٦ .

(١٨) انظر مقالة :الطبري، دائرة المعارف بمصر، ٢/ ٤٧٤–٤٨٠، تخريج الاخوين شاكر.

ثانيًا – النسْخُ في القرآن

في إيمان المسلمين: «لا يجوز لأحدٍ أن يفسِّرَ كتابَ الله إلاّ بعد أن يعرِفَ منه الناسِخَ والمنسوخ. وقد قال عَليٌّ لِقَاضٍ: أتعرفُ الناسخَ من المنسوخ؟ قال: لا. قال: هَلَكْتَ وأَهْلَكْتَ»[١٩].

١. ترد لفظة "نسخ" في القرآن مرّتَين: في سورة البقرة (٢/١٠٦): "ما نَنْسَخْ من آيةٍ أو نُنْسِها نَأْتِ بخَيْرٍ منها أو مِثْلِها. ألَم تَعْلَمْ أنّ اللّهَ على كُلِّ شَيءٍ قدير". وفي سورة الحجّ (٢٢/٥٢): "...يَنْسَخُ اللّهُ ما يُلْقي الشّيطانُ ثُمّ يُحْكِمُ اللّهُ آياتِه. واللّهُ عليمٌ حكيم".

٢. وللنسخ معانٍ:

منها معنى الإزالة، كما في آية الحجّ (٢٢/٥٢).

ومنها معنى التبديل، كما في قوله: «إذا بدّلنا آيةً مكانَ آية» (٢٧/١٠١).

ومنها معنى التحويل، تحويلِ الميراثِ من واحدٍ الى واحد، أي تناسخه.

ومنها معنى النقلِ من موضعٍ الى موضعٍ، كقولنا: «نَسَخْتُ الكتابَ»، اذا نقلتَ ما فيه حاكِيًا للفظِه وخطّه. وهذا الوجهُ لا يصحّ أن يكونَ في القرآن»[٢٠].

(١٩) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ٢/٢٠.
(٢٠) الاتقان ٢/٢٠ – ٢١، البرهان ٢/٢٩.

٣. والنسخُ من خصائصِ الأمّـةِ الإسلاميّة، وقد خصّها اللهُ بهِ لحِكَمٍ، منها: التّيسير، وقد أجمعَ المسلمون على جوازِه، ولكنّهم اختلفوا في وجوهِه. **وأحدُ وجوهه** «أنّ القرآن نَسَخَ جميعَ الشرائعِ والكتبِ القديمةِ كالتوراةِ والإنجيل وغيرهما. **الوجه الثاني**: المراد من النسخ هو نَسْخُ القرآن ونَقْلُه من اللّوحِ المحفوظ الى سماءِ الدنيا. **والوجهُ الثالث**، وهو الصحيح الذي عليه جمهورُ العلماء، إنّ المرادَ من النسخِ هو رَفْعُ حِكمِ بعضِ الآياتِ بدليلٍ آخرَ يأتي بعدَه. وهو المراد بقوله تعالى: «ما ننسخُ من آيةٍ، أو نُنسِها نأتِ بخيرٍ منها أو مثلِها».

والنّسخُ، في تحديده الفقهي، هو «رَفْعُ الحكمِ الشرعي بدليلٍ شرعي»، أي رفع حكم قرآنيّ بحكم قرآنيّ آخر. وهو، بنظر الشيخ صبحي الصالح، "أدقّ تحديدٍ اصطلاحي لهذه اللفظة"[٢١]. وهو، في حكمه هذا، يعتمد على أئمّة المفسّرين[٢٢].

٤. ثم اختلفَ المسلمون في تعيينِ الآياتِ الناسِخَةِ والمنسوخَةِ، وفي تعيينِ الأحكام الناسِخَةِ، فاذا ببعضِهم يغلو فيقول بأنّ معظمَ سوَرِ القرآن يَجْتَمِع فيها الناسخ والمنسوخ. وبعضِهم الآخر يفرّ من النسخِ ويقول: بانْ ليسَ في القرآن ناسِخٌ ومنسوخ، وذلك خوفًا من أن يقعَ هؤلاء في القول بـ «البداء»[٢٣]. والنّسخُ هو أنّ الله يغيّرُ أحكامَه ويبدّلُها بحسَبِ الظروفِ والمناسبات. إلاّ أن المعتدلين أجمعوا على القول بأنّ الاصلَ في القرآن هو «الأحكام»، وإنْ كان يوجد فيه بعضُ «النَسْخ»، إنّما هو قليل. وقد عدّ السيوطي إحدَى وعشرين آية ناسِخة ومنسوخة[٢٤]. والشيخ صبحي الصالح

---

(٢١) الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٢٦١.

(٢٢) انظر فصل في حكم النسخ في كتاب مجموعة من التفاسير، ص ١٧٥.

(٢٣) "البَداء" هو انكشافُ ما لم يكنْ منكشفاً لله. وهو بالنسبة إلى الخلق كنسبة النّسخ إلى الأحكام. يقول به الشيعة عامّة، وبنوع خاصّ، فرقة عُرفتْ بـ "البَدائيّة".

(٢٤) السيوطي، الاتقان، ٢/٢٣، وقد نظمها في أبيات شعر.

لا يجدُ أكثرَ من عشرِ آياتٍ فقط[٢٥].

٥. ثمّ إنّ النسخ في القرآن على ثلاثة أضرب:

أحدها ما نُسِخَ حُكمُه وتلاوتُه معًا، أي إنّ آياتٍ، بحسب تعبير أبي موسى الأشعري، «نزلتْ ثمّ رُفعت»[٢٦]. واللّهُ أعلم ما هي.

الثاني: ما نُسِخَ حكمُه دونَ تلاوته. وهو قليل جداً، لأنّ في الناسخ والمنسوخ تكونَ آيةٌ نَسَخَتْ آيةً. مثلُ ذلك: "لا تقربوا الصلاةَ وأنتم سكارى" (٤/٤٣) نسختْها آية "إنّما الخمرُ... رجسٌ من عمل الشيطان" (٥/٩٠).

والضرب الثالث: ما نُسِخَتْ تلاوتُه دون حكمِه، أي إنّ كثيرًا من القرآن قد سَقَط وبقي حكمُه[٢٧]. مثال ذلك: الختان الذي لا ذكر لحكمه في القرآن.

٦. والحكمة في معرفة الناسِخ والمنسوخ، في رأي المسلمين، «تظهرنا على جانب من حكمة الله في تربيةِ الخلق، وتوقفنا على مصدر القرآن الحقيقي، وهو الله ربّ العالمين، لأنه يمحو ما يشاء ويُثبتُ ما يشاء. يرفع حكما ويبدِّلُ آخر، من غير أن يكون لأحدٍ من خلقه عملٌ في ذلك ولا شأن، حتى ولا خاتَمُ النبيين نفسه»[٢٨].

وحكمة ذلك من وجهين: أحدهما انّ القرآن يُتلى، ولو كانتْ بعضُ أحكامِه منسوخةً، لكونِه كلامَ الله، فيثابُ الانسان على هذه التلاوة. والثاني انّ النسخَ، غالبا، يكون للتخفيفِ، فأُبقِيتِ التلاوة تذكيرا للنعمةِ وَرَفْعَ

(٢٥) الشيخ صبحي، مباحث...، ص ٢٧٤.

(٢٦) السيوطي، الاتقان، ٢/٢٢.

(٢٧) السيوطي، الاتقان، ٢/٢٢ – ٢٥.

(٢٨) الشيخ صحبي الصالح، مباحث... ص ٢٥٩.

المشقّة»[٢٩].

٧. إنّ المهمّ بالنسبة إلينا الآن هو الاعتراف بأنّ الله، نظرا لاختلاف الحال، وتغيّر أوضاع الناس، وتبدّل المجتمع، من مكّي الى مدني، ومن بدوي الى حضري ومن دعوة بالسلمِ الى دعوة بالجهاد، ومن وعظٍ وتحريضٍ الى سنٍّ شرائع وقوانين...، إنّ الله أجاز لمحمّد تبديلَ مواقفه، كما أجازَ، تبريرا لهذا التبديل، أن يَرْفَعَ الأحكامَ ويبدّلَها بغيرِها. فيكون معنى ذلك :

إنّ «اللهَ سبحانه وتعالى يعلّمنا أنّ تغيّرَ الزمن والظروف يقتضي تغيّرَ الأحكام. فليستِ المسألةُ متعلّقةً بعلمِ الله شيئاً الآن لم يكنْ يعلمُه من قَبل. حاشا الله. ولكنَّ المسألةَ أنّ الحكْمَ يتّفقُ مع الظروف في فترة من الفترات فيقضي الله به، ثم تتغيّرُ الظروفُ، أو يريدُ الله التخفيفَ عن عباده، فيتغيّرُ الحكم. فالمسألةُ لا علاقةَ لها بعلمِ اللهِ الواسعِ الشامِل، ولكن علاقتُها بحاجة الناسِ من جهة، وبتعليمِهم التطوُّر حسبَ الظروفِ من جهة أخرى...»[٣٠].

٨. ولكنّنا نجيزُ لأنفسنا التساؤل: اذا كان الله أجازَ لمحمّد نسخَ بعضِ الأحكام في مدّة ثلاثٍ وعشرين سنة من الدعوة النبويّة، نظرا لتبدّلِ الظروفِ وحال الناس، وللتحفيفِ عن المؤمنين... أفلا يُجَوِّزُ لنا الدكتوران أحمد الشلبي وصبحي الصالح وصاحبا الاتقان والبرهان وكلُّ المسلمين، نَسْخًا آخر! وكل شيء يدعو الى ذلك!!! إنّ تبدّلَ ظروفِ البشر، وتطوّرَ العلم، وتغييرَ وجهِ الكون، وانقلابَ نظريّاتٍ كثيرة في العالَم رأسًا على عقب ... تستحقّ نَسْخا آخرَ قد يكون أوسَعَ وأشملَ من النسخِ الاوّل !

اذا كان أهل مكّة والمدينة استحقّوا، خلالَ ثلاثٍ وعشرين سنة، أحكامًا

---

(٢٩) السيوطي، الاتقان، ٢/ ٢٣ .

(٣٠) الدكتور أحمد شلبي، هل هناك قرآن منسوخ؟ في كتاب «القرآن نظرة عصرية جديدة»، لجملة مؤلّفين، ص ١٥٠.

تَنسخُ أحكامًا، وآياتٍ تُبدِّلُ آياتٍ، بسببِ أوضاعٍ جديدة وأحوالٍ مستحدَثة، الا نستحقُّ نحن، في مدة تزيدُ على الثلاثِ وعشرينَ سنةٍ بأكثر من خمسةَ عشرَ قرناً، رحمةً من الله تَرْفَعُ عنّا أحكامًا ولّتْ كما ولّى مجتمعُها الصحراوي.

اذا كانت أحكامُ القرآن وسنُنه في متناوَلِ بَدْوِ الحجاز، وقد آمَن بها مَن فهِمَها منهم، وأنكرَها من فهِمها منهم أيضا، وقد نُسِخَتْ وَتَغَيَّرَتْ بالنسبة الى تبدّلِ أحوالِهم، ألا يستحقُّ متحضّرو العصرِ الخامسَ عشر أن يكونَ لهم أحكامٌ وسنَنٌ هي في متناوَلِ حضاراتِهم !! أيعقلُ ألاّ يكونَ متحضّرو هذا العصر أكثرَ وعيًا وعلمًا ومعرفةً من بدائيّي الصحراء !! وكيف كان لهؤلاءِ أحكامٌ تُنْسَخُ ولأولئك أحكامٌ تبقَى مدى الدهر!!!

أيحكمُ القرآنُ على الناس بأنّهم، مهما علا كعبُهم في العلم والمعرفة، يظلّون بمستوى البدوي! اذا كان الفرق بين المدنيّ والمكيّ من القرآن واسعا الى هذا الحدّ الذي يقرُّه المسلمون، أفلا يكون هناك، بين المدنّي اليثربي والحضريّ الرياضي أو النَجَدي أو الأندلسي أو الأوروبّي، فرقٌ أوسع!!!

لقد كان النبيُّ أرحمَ بالنسبةِ الى أهلِ زمانه من المسلمين القرآنيّين بالنسبةِ الينا نحنُ اليوم! لقد أنزلَ النّبيُّ أحكامًا، ثم رَفَعَها، ثم أنزلَ أحكامًا أخرى، ثمّ نَسَخَها... الى أن استقرّتِ الأحكامُ على أيدي المسلمين القرآنيّين، وجُمّدتْ ،ووَصلتْ الينا ،وستصلُ من بعدنا الى أبنائِنا في القرن الألف للبشريّة... فلا نبي يأتي بعد خاتَم النبيين، ولا وحي آخر يأتي به جبريل جديد، ولا حكمٌ يصدر من السماء يوقِفُ حكمًا آخر... وسنظلُّ مع أهل مكّة والحجاز بمستوى واحد من العلم والمعرفة حتّى آخر الدّهر. وهم إخواننا في كلّ حال !!

لقد أقرّ المسلمون النسخَ في القرآن، وأجازوا لمحمّد أن يبدّلَ في أحكامِ الله. وفي هذا معجزةٌ عظيمة: انّ اللهَ يسايرُ نبيَّهُ المختارَ ليكونَ على مستوى

الرســالةِ التي دعاهُ اليـها. وبَدَلَ أن يُقـال إنّ في القـرآن تناقضًـا في الأحكامِ والشرائع، قيل: هناكَ آياتٌ تَنْسَخُ آياتٍ. ونقول عندئذٍ مع الدكتور أحمد شلبي: « لا أفهم مـعنى لآيةٍ أنزلَها اللهُ تُفـيدُ حكمًـا، ثم يرفَعُهـا مع بقاءِ حكمـها، لأنَّ القرآن يقـصد افادةَ الحكمِ والإعجـازبنُظُمِه. فمـا هي المصلحة في رَفْعِ آيةٍ منه مع بقاءِ حكمها ؟! إنّ ذلك غير مـفهوم. وفي رأيي انّه ليس هناكَ ما يلجئني إلى القول به»[٣١].

ومن غـيـر المفـهـوم أيضـا رفعُ الحكمِ معَ بَـقـاءِ آياته! ولا رفعُ الحكم والآياتِ معاً، كما قالت عائشة وكما قال المكيّ: «فيه المنسوخ غيرُ متلوٍّ والناسخُ أيضـا غيرُ مـتلوّ»[٣٢]... واختلط عـلينا بهذا المعتـقد كلُّ شيء. ولكن يبـقى لنا الايمانُ بالله الذي أرادَ الانسانَ حـرًا، لا تقيّدُه شريعةٌ منزَلـة، ولا ينحصرُ في عصمةِ نبيّ، ولا يخضع لطاعة كتابٍ يَصلب البشر صلباً ويسمّرهم تسميراً.

---

(٣١) أحمد شلبي، هل هناك قرآن منسوخ؟ ص ١٥٤.

(٣٢) السيوطي، الاتقان ٢/٢٢.

ثالثًا – إجازةُ التّبديل في القرآن

يتـأرجح المسلمـون في إيمـانهم بين وجـود تبـديل في القـرآن وعـدم وجوده. فمن جهة يؤمن المسلم بأنْ «لا تبديل لكلمات الله»[٣٣]، و«لن تجد لسنّة الله تبديلا»[٣٤]. ومن جهة ثانيـة يشير القرآن إلى إمكانيّـة تبديل آية مكان آية، فيقول : «اذا بدّلنا آيةً مكانَ آيةٍ. والله أعلم بما ينزِّل...»[٣٥].

والأرجح عند المسلمين عـامّة الاّ يكونَ في القـرآن شيءٌ من التبـديل أو التحريف أو التناقض. ولذلك أجمعَ المفسّرون على أنّ التبديلَ في الآية السابقة يُفادُ منه النسْخ، فيكون معناها اذًا : «اذا بدّلنا آية ناسِخَة بآيةٍ منسوخة».

ولكنّ الآية بكاملها هي كـما يلي: «واذا بدّلنا آيةً مكانَ آية – والله أعلم بما ينزِّل – قـالوا : إنّما أنتَ مـفْتَـرٍ – بل أكـثرُهم لا يعلمـون– .قل نزّلَه روحُ القـدس من ربّك بالحقّ، ليُـثَبِّتَ الذين آمنوا، وهُدىً وبُشْـرى للمـسلمين». هذا يعني، بحسب أهل التفسير: «بأنّ المشركينَ مِن أهل مكّة قالوا إنّ محمّدا يَسْخَر بأصحـابه، يأمرُهم اليومَ بأمـرٍ، وينهاهُم عنه غدًا، مـا هو الاّ مفترٍ يتـقوّلُه من تلقاءِ نفسه . فأنزلَ الله هذه الآية»[٣٦].

ولكن، يبدو أنّ هذه التهـمة في التبديل والتحريف لاحـقت محمّداً طوالَ

(٣٣) سورة يونس ١٠/ ٦٤، أنظر أيضا : ٦/ ٣٤و ١١٥، ١٨/ ٢٧.

(٣٤) سورة الاحزاب ٣٣/ ٦٢ ، وايضا : ٣٥/ ٤٣، ٤٨/ ٢٣ وغيرها.

(٣٥) سورة النحل ١٦/ ١٠١ – ١٠٢ .

(٣٦) كتاب مجموعة من التفاسير، ٣/ ٦٤١ .

رسـالته. ونحن مع القـرآن حَـيارى بين تهـمةٍ وَرَدِ تـهمـةٍ، وبين طعنٍ وطعنٍ مضاد. وإنّنا لنجـدُ آياتٍ كثيرةً يجهـدُ محمّدُ بها في رفعِ التـهمة والطعنِ عنه. منها قوله: «قال الذين لا يرجون لقـاءنا : ائتِ بقرآنٍ غيرِ هذا، أو بدّلْه... قل : ما يكونُ لي أن أبدِّلَهُ مـن تلقـاءِ نفسـي...» (١٠/١٥). وقـال أيضـا: «لا تبـديلَ لكلمـاتِ الله. ذلك هو الفـوز العظيم»[٣٧]. وقال : «سـنّةُ الله في الذين خَلَوا من قبل. ولن تجدَ لسنّةِ اللهِ تبديلا» (٣٣/٦٢). وقال: «فلن تجدَ لسنّةِ الله تبديلا، ولن تجدَ لسنةِ الله تحويلا»[٣٨]... ألخ.

وممّا يرجّح صحّةَ تهمةِ التبديلِ أيضا ما قرّره القرآنُ نفسُه في تخفيفِ سنّةِ اللهِ التي أصبـحتْ فيه مبدءًا قـرآنياً وعقيـدةً إسلاميّة في يُسْـرِ الشريعةِ وخفّتِّهـا على الناس. وآيات كثيرة تشيـر الى ذلك. قال: «الآنَ خفّف اللهُ عنكم، وعَلِمَ انَّ فـيكم ضـعفًـا (٨/٦٦). وقـال : «ويُريدُ اللهُ أن يخـفّف عنكم، وخَلَقَ الانسـانَ ضـعيفا» (٤/٢٨) . وقال أيضـا : «ويريدُ الله بكم اليُسْرَ، ولا يُريدُ بكم العسر» (٢/ ١٨٥). إلخ...

وحجّة ذلك انّ مـحمّدا هو رسولٌ لأمّةٍ مـعيّنة، لها ظروفها وأوضـاعها الخـاصّـة. لهـذا كان لكـلِّ أمّةٍ رسـولٌ خـاصّ بهـا: «لقـد بعـثنا في كل أمّـة رسـولا»[٣٩]، ورسـولُ العـرب الأمـيّين يجب ألاّ يـكونَ كـرسـولِ أهلِ الكتـاب الراسـخينَ في العلم. وليس المقصودُ من قصّـة الإسراء والمعراج الاّ طلب محمّد من اللّه أنْ يخفّفَ عدد أوقات الصلاة عن أمّتـه، من خمسينَ مرّة، كما هي عند اليهود، إلى ثلاث مرّات فقط. واثنتَين نافلتَين...

وهكذا، جَرى بـين الله والأمّةِ الإسلامـية نوعٌ من التـعاطفِ والرحـمةِ بسبب ضعفِ الإنسان... والمسلمون، اليوم، يفتـخرون ويتباهون أمام شعوبِ

---

(٣٧) سورة يونس ١٠/٦٤، انظر ٦/٣٤ و ١١٥، ١٨/٢٧.

(٣٨) سورة فاطر ٣٥/٤٣، انظر أيضا: الفتح ٤٨/١٥ و٢٣ والبقرة ٢/٥٩ و ١٨١ .

(٣٩) سورة النحل ١٦/٣٦، انظر أيضا سورة يونس ١٠/٤٧ .

الارض وأديانهم، عندما يعلنون باستمرارِ سهولةَ الشريعةِ الاسلاميةِ وخفّتَها ويُسرَها ومسايَرتها الطبيعةَ البشريةَ وأميالَها، حتى غدا «الإسلامُ بنظرهم دين الفطرة. والفطرةُ دينُ الإسلام»[٤٠]. وهذا من قولِ الله: «فطرةَ الله التي فَطَرَ الناسَ عليها» (٣٠/٣٠).

***

ومن مسايرة أميال الطبيعة وأهوائها ما نجده في الإسلام من تحريمه الحياةَ الرهبانيّة، فإذا هي بدعة نكراء (٥٧/٢٧)، ومن حبٍّ شهيٍ للطعام والشراب ولكن دونَ الاسراف (٧/٣١)، ومن حبِّ الشهوات من النساء والبنين (٣/١٤)، اذ هي زينة الحياة الدنيا.

وفي الأحاديث ما روي عن النبي: «ليس خيرُكم من تَرَك الدنيا للآخرة، ولا الآخرةَ للدنيا، ولكن خيرُكم من أخذَ من هذه وهذه». وأيضا «انّما حبّبَ اليَّ من دنياكم النساء والطيب، وجُعِلَتْ قرّةُ عيني في الصلاة». وقال لرجل ابتغى العزوبة : «أنتَ اذاً من إخوانِ الشياطين. إن كنتَ من رهبانِ النصارى فالحقْ بهم. وإن كنتَ منّا فمن سنّتِنَا النِكاح» ... ألخ.

مهما حاول المسلمون في إبعادِ شبهة التبديلِ والتحويلِ في القرآن،فإنّ شريعةَ الاسلام بَدَّلَتْ وحَوَّلتْ في شرائعِ الانبياءِ السابقين. ولئن كانَ محمدٌ يفتخرُ بالانتماءِ اليهم فإنّه أعجزَه الاخذُ بشريعتِهم التي حرَّفَ فيها وبدَّل. وأيضا، لم يُبدِّلْ محمّد في شرائع الانبياءِ وحَسبُ، بل بدّلَ في ما أُنزِلَ عليه بين مكّة والمدينة. ولذلك اتّهمَه المتّهمون بالغشِّ والافتراءِ على الله. وكان، بالطبعِ، يردّ كلَ تهمة، وحجّتُه انّه رسولُ أمّةٍ أمّيّةٍ بدائيّةٍ، يعجزُها اللحاقُ بأهلِ الكتاب وشرائِعهم.

---

(٤٠) محمد جواد مغنيّة، الاسلام بنظرة عصرية، ص ٥١ .

رابعًا – آيات شيطانيّة

١. في القرآن ظاهرةٌ عجيبةٌ غريبةٌ مثيرةٌ فريدةٌ من نوعها في الكتب السماوية، وهي إمكانيّة تدخّلِ الشيطانِ في إِلْقَاءِ التحريفِ والفسادِ على لسانِ النبي بغيرِ علمِه. وكان ذلك عندما أنزلَ جبريلُ على النّبيِّ آيةَ النَّجم: "أفرأيتُم اللاّت والعزّى ومناة الثالثة الأخرى" (٥٣/ ٢٠). وأنزلَ الشّيطانُ بعدَها مباشرةً: "تلك الغرانيقُ العلا. وإنّ شفاعتَهنَّ لَتُرجَى"... فحزنَ النّبيُّ جدًّا لتدَخّلِ الشيطان هذا. وما استطاع، لا جبريلُ ولا النّبيُّ، محوَ ما نزل.

غير أنّ جبريل عالج الأمر بإنزالِ آياتٍ في سورة الحجّ تسلّي عن النّبيّ حزنَه. جاء في هذه الآيات: «وما أرسلنا من قبلكَ (يا محمّد) من رسولٍ ولا نبيٍّ إلاّ إذا تمنّى (قرأ) ألقى الشيطانُ في أمنيّته (أي في قراءته) ثم يُحكِمُ اللهُ آياتِه. والله عليمٌ حكيم. ليَجعَلَ ما يُلقي الشيطانُ فِتنَةً (محنة) للّذين في قلوبهم مَرَضٌ (أي شقاق ونفاق) والقاسيةِ قلوبُهم (أي المشركين). وإنّ الظالمينَ لَفِي شِقَاق بعيد. وليعلمِ الذينَ أوتُوا العلمَ أنّه (القرآن) الحقُ من ربِّكَ فيؤمنوا به فَتُخْبِتَ له قلوبُهم (أي تطمئّن)»[٤١].

***

٢. وفي القرآن أيضا قوله: «... وأمّا يُنسيَنّكَ الشّيطانُ، فلا تَقْعُدْ بعدَ الذِكرى» (٦/ ٦٨). معنى ذلك: وإنْ أنساكَ الشّيطانُ بعضَ ما أُنزِلَ عليكَ، فلا تَقْعُدْ حتى يذكِّرَكَ اللهُ بهِ... ويفسّر الزمخشري بقوله: «إنّ شغلَكَ يا محمد

(٤١) سورة الحجّ ٢٢/ ٥٢-٥٤.

بوسوسة الشّيطان حتى تَنْسَى النهيَ عن مجالَسةِ المستهزئين من قريش ، فلا تَقْعُدُ معهم بعد أن تذكر النهي»[٤٢].

إلاّ أنّ بعضَ المسلمين المعاصرين لا يقبلون بحالٍ من الأحوال أن يكونَ للشيطانِ سلطانٌ أو تدخّلٌ في حياةِ النبي وفي وحيِ الله. لهذا يعلّقُ خالد الحمصي الجوجا على مثلِ هذه التفاسير لأئمّةِ المفسّرين بقوله : « وهذا الحديث، من ناحية موضوعه، يصادمُ أصلاً من أصول العقيدةِ الإسلامية، وهو عصمةُ النّبي من أن يَدِسَّ عليه الشيطانُ شيئًا في تبليغِ رسالته»[٤٣]. وهو يحيلنا الي تفسير معاصر لسيِّدِ قطب في كتابه " ظلال القرآن " ، حيث يعصمُ النبيَّ من دسائس الشيطان وحِيَله.

ولكنّ محمّدًا كان يَعي تدخّلَ الشيطانِ في ضميرِه ووجدانِه، فكان يلجَأ مراراً وتكراراً إلى خديجة لتفسّرَ له عمّا إذا كانَ ما يحدثُ له من الله أم من الشّيطان[٤٤]. وقد تعجزُ خديجةُ عن التفسير، أو قد لا تطمئنُ كثيرًا الى تفاسيرها، فكانتْ تذهبُ بزوجها الى القسِّ ورقة[٤٥]. وكان القسُ ورقة يتدبّرُهُ بعلمِه ومعرفتِه. وكم من مرة رجَعَ النبيُّ إلى منزلِه «مطمئنّا»![٤٦].

تجاه هذا الواقع المحزن الذي كان يتعرّض لهُ النبيّ، كان اللهُ يأمرُ رسولَه بالاستعاذة، قبل كلِّ عملٍ وكلِّ صلاة. ولقد يَفْتُكُ الشيطانُ بالنبيِّ فَتْكاً، ويطعنُه طعنًا، وَيَنخَسهُ، ويُفسِدُ عليه الوحيَ والتنزيل، ويستحثُّه على صنعِ الشرِّ والمفاسد، ويحملُه على المعاصي.. نقول عندئذٍ مع القرآن وبأسلوبه: «وأمّا (أي إنّ ما) يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشيطانِ نَزْغٌ فاستعذْ باللهِ إنّه هو السميعُ

---

(٤٢) الزمخشري ،الكشاف٢/ ٢٦ – ٢٨ .

(٤٣) تعليق الجوجا على تفسير الجلالين، ص ٤٤٧ .

(٤٤) انظر كتاب قس ونبي والمراجع على ذلك، ص ٥٢ – ٦١ .

(٤٥) المرجع نفسه.

(٤٦) سيرة ابن هشام ١/ ٢٢٢، تفسير الطبري ٢/ ٤٩ ....

العليم» (٤١/٣٦).

وعلى النبي، أمام حِيَل الشيطان وتجاريبه، أنْ يصلّي إلى الله لينجّيَه من دسائسه الشرّيرة: «قل: ربِّ، أعوذُ بكَ من همزاتِ الشياطين» (٢٣/٩٧). وعند قراءة القرآن لا بدّ من الاستعاذة من الشيطان: «فاذا قرأتَ القرآنَ فاستعذْ بالله من الشيطانِ الرجيم» (١٦/٩٨). والأمر بالاستعاذة جاء قبلَ الأمرِبالاستفتاحِ بالبسملة. وحتّى اليوم يستهلّ القارئ قراءته بـ «أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيم»، ثم يكمِّل "باسم اللّه الرّحمن الرّحيم".

وخشيةُ تدخّلِ الشيطانِ في الوحي لم تكنْ عندَ النبيّ، وَهْمًا، فمحمّد يردُّ التهمةَ عنه باستمرار، ويدْفَع عن القرآنِ تهمةَ دسائسِ الشيطان. يقول: «وما تنزلّتْ به الشياطينُ، وما ينبغي لهم، وما يستطيعون. إنّهم عن السمْعِ لَمَعْزولون»[٤٧]. ويقول أيضا: «وما هو بقولِ شيطانٍ رجيم» (٨١/٢٥)، وأيضا: «وكذلك جَعَلنا لكلِّ نبيّ عدوًا شياطينَ الأنسِ والجنّ، يوحي بعضُهم الى بعضٍ زخرفَ القولِ غرورًا. ولو شاءَ ربّك ما فَعَلُوه» (٦/١١٢).

***

لو انّ للشيطان سلطانًا على النبي وحَسْبُ لَهَانَ الأمرُ، فالنبيّ إنسانٌ كسائرِ الناس، له أميالُه وشهواتُه وَرغباتُه وأهواؤه الطبيعيّةُ كلُّها كاملةً. إنّه أيضا كسائرِ الأنبياء والرّسل، يتعرّضُ لتجاريب الشيطان وحِيَلِه، فالملائكة أنفسُهم نَزَغَ الشيطانُ بينهم، وآدمُ هو أيضاً أسقطَه الشيطان في حبائِله، وداوُدُ وسليمانُ وأيّوبُ ومعظمُ النبيّين دفعهم الشيطانُ الى ارتكاب المعاصي دفعاً؛ والمسيحُ، فيما هو بنظر المسيحيين إلهٌ كلّيُّ الكمال، جَرَّبَهُ الشيطانُ في البرّيّة، والرّسل أيضاً غربلهم وأدخل في نفوسهم الشكوك... ومحمّدٌ لن يكونَ أحسنَ حالاً منهم... انّه أمرٌ واقعٌ لا محالة.

---

(٤٧) سورة الشعراء ٢٦/ ٢١٠-٢١٢.

عملُ الشّيطان في خَلقِ اللّهِ، إذاً، غيرُ مستَـغرَب. إنّما المستغربُ حقّاً هو أن يتدخّل الشّيطـان في القرآن، أي في كلام اللّه نفسه. إنّ للـشّيطان، بحسب القرآنِ نـفسه، تدخّـلاً في كلامِ اللّه. ولـهُ في القرآن آياتٌ خـاصّةٌ به، سـمّاها الشرّاح والمفسّرون "آيات شيطانيّة "... فكيف لنا أن نتعاملَ معها!!! إنّها، حقّاً، محنةٌ من اللّه. وهي لنا كذلك لكي نعملَ باستمرارٍ على تمييزِ الحقِّ من الباطل! وهيَ مدعاةُ أجْرٍ لنا لكي نعملَ بحَذَر وتأهّب! إنّهـا، في النتيجة، فضيلةٌ لنا بأنْ نسعى الى طردِ الشيطانِ كلَّ مرّة نقوم للصلاة!!!

فما رأيُ المتديّنين اليوم اذا كانَ هذا الشيطانُ المسكينُ هو نفسُه الانسانَ المتشـيطِن ! أليسَ الانسانُ هذا، بحِيلَه ،ورَفعِ المسـؤوليّةِ عنه، أ كثرَ مـهارةً من كلِّ شـيطان!!! ألانسانُ خلقَ الـشيطانَ ليـريحَ ضمـيـرَه من شرٍّ يصنعُـه ولا يستطيعُ تحمّلَ نتائجِه لوحده. لقد خـلقَ الشيطانَ الرجيم وسَوَدَّ وجهَهُ لكثرة ما حَـمَّلَهُ الانسـانُ من شرورِه!! فـعمل، بذلك على تبـييضِ وجـهه هـو!!! قد يتحـمّلُ محمّـدٌ وحَده ما دسّهُ الشـيطانُ في كتابِ الله. ونحن نتـحمّل نتيـجةَ إيمانِنا وتديّننا.

خاتمة الفصل الثالث

انّ مَنِ يستعرضُ حياةَ النبيّ محمّد في صَخَبِها ونشاطِها وكثرةِ التحرّكِ فيها لَيَعجَبُ تمامَ العجَب من رجلٍ «أُمّيٍّ» يجهلُ الكتابة والقراءة – على ما يقوله المسلمون– كيف استطاع حِفْظَ ٦٦٣٦ آية مؤلّفة من ٧٧ ٩٣٤ كلمة ومن ٦٧١ ١٢٣ ٣ حرفًا!!!!... لو لم يكن هناك معجزةٌ من السماءِ لما استطعَنا فهمَ حَدَثٍ هو بهذه الاهمّيّة في التاريخِ البشري!!!...

لقد تمّتِ المعجزةُ رغمَ صعوباتٍ عديدة. ولكثرةِ الصعوباتِ كانت المعجزة. فبعد الذي رأينا من ضَعفٍ في ذاكرةِ النبي وعقلِه، ومن نسخِه بعضَ الآيات ليأتي بغيرِها، ومن تدخّلِ الشيطانِ ودسِّه في الوحي الإلهي، ومن إجازةِ محمّد للتبديلِ في الوحي بحسبِ ضَعفِ الانسانِ العربي ووهنِ طبيعتِه وكثرةِ أهوائها وأميالها... كلّ هذه جعلتِ المعجزةَ جائزةً بل واجبة على اللهِ، لكي يتمكّنَ محمّدٌ من حفظِ الوحي، كلِّ الوحي.

وبعد حياةٍ صاخبةٍ بالحروب والغزوات والمغانم والأسرى وسبايا الجهاد المقدّس... وبعد حياةٍ بيتيّةٍ فقيرةٍ تعيسةٍ، تعدّدتْ فيها الزوجاتُ والنساءُ فتتعدّدتْ فيها المشاكلُ والخصومات والتحزّبات طبعاً... وبعد هجرتَين الى الحبَشة، وثالثةٍ إلى الطائفِ، ورابعةٍ إلى المدينة، والهرب ليلاً بسببِ خدعةٍ ماكرةٍ من كفّار قريش يريدون وضعَ حدٍّ لحياة محمّد... بعد كلَ هذا، لا بدّ من معجزة إلهيّة، لكي يتمكّن النبيّ من حفظِ ما يوحَى إليه...

إنّ مثل هذه المعجزة اقتضت من الله أن يُفرِّغَ جبريلَ من كلِ عملٍ أو

رسالةٍ أو مهمّة ليـتفرّغَ لمحمّد. وقد اقتضَى لجبـريل اثنتان وستّون سنة يعملُ فيها مع محمّد، ومع خـديجة، والقسّ ورقة، وأبي بكر الصدّيق، وغيرهم ممّن لهم علاقة، قريبة أو بعيدة، بمحمّد. كما اقتضى لجبريل أيضاً ثلاثٌ وعشرون سنة ينزّلُ القرآن فيهـا منجّما، آيةً آيةً ليتمكّنَ محمّد من حـفظها. وكم لجبريل من صَبرٍ ومـصابرةٍ وتصبّرٍعلى رجلٍ أمّيّ يُلَقّنُ كلامَ الله تـلقيناً، ويَتعلمَّ كلَّ ما عند الله من علوم وقوانين ومعارف وشرائع وعقائد وسلوك!!!

ليس مـنّا منَ ينكر قــولَ اللـه تعـالـى: «إنّا نحنٌ نزّلـنا الذكــرَ وإنّا له لحافظون» (١٥/ ٩)، ولكن هل هذا يعني أنّ النّبيَّ حفظَ الذكـرَ كلّه بقوّةِ عقلهِ واتّقادِ ذاكرته، أم انّ اللهَ استحفَظَه ايّاه، فكان هو وفـيّاً أميناً لما استحفظَه من جبريل، ولم يبدّلْ فيه شيئـاً. إنّ المعجزةَ تمّت ولكننا نعجزُ حتّى الآن أن نعرف كيف وأين!

هناك مـعـجـزة، وهي ذاك «اللوح المحـفـوظ» . ولكن هذا اللوح يحـفظ الوحي حفظا تامّـا كاملا. وكل مـرّة كانتِ الذاكرة تخـونُ محمّـدا كان محـمد يرجع الى جـبـريل، وجبـريل يرجع إلى الـلوح، فيـقـرأ وينزّل منه مـا يوافق المناسبات والظروف... ومن السهل على المسلمين القول بأنّ هذا اللوح موجود في «الافق الأعلى » ، ولكن ليس من السهـل علينا الوصول الى «الافق الأعلى « هذا، قبلَ البـحث في الأفق الأدنى لنرى حقيقـةَ المعجزة! وبتعـبير أوضـح، إنّ الثـقةَ بكتـابٍ تاريخيٍّ لأفـضلَ، في علوم الدّين، من الثـقـة بذاكرة إنسـانٍ أو ظهورات ملائكة.



الفصل الرابع

مُعجزة حفظ الصَحَابة للقرآن

أولاً - تخلّف الصحابة عن كلّ القرآن

ثانياً - حديث الأحرف السبعة

ثالثاً - حفّاظ القرآن



مقدّمة الفصل الرّابع

في اعتقاد المسلمين، إنّ القرآن الذي أُنزلَ بمعجزةٍ، وحُفظ بمعجزة، سَيستمرّ في التاريخ بمعجزة: فالصحابةُ حَفِظوا القرآنَ، كلَّ القرآن، لم يُضيّعوا منه آية، ولم ينَسوا منه كلمة، ولم يُبدِّلوا فيه حرفاً، ولم يَتَدخَّلِ الشيطانُ بحِيَلِه ليَدسَّ عليهم شرَّه، كما تدخَّلَ في النبيّ؛ لأنَّ الشياطين قد أخذتْ نصيبَها من النبيّ، واستطاعَ النبيُّ عليها الغَلَبَة، وهو لها ؛ فيما الصحابةُ قد نَجَوا من مداخلةِ الشيطانِ خشيةَ سقوطِهم بتجاريبه وحِيَلِه، وليستْ لهم عليه قدرة ... لهذا استحقَّ الصحابةُ والتلاميذُ من اللهِ عصمةً قد توازي عصمةَ النبي نفسِه. وبهذه العصمةِ حَفِظوا القرآنَ من كل تبديلٍ وتصحيف وتحريف...

إنّ معجزةَ حفظِ الصحابة للقرآنِ توازي معجزةَ التنزيلِ ومعجزةَ حفظِ النبيّ. ولا فضلَ للنّبي إنْ كانَ على الوحي أميناً وفيّاً صادقاً، إنّما كلُّ الفضل يعودُ لأناسٍ ضعفاء، لهم أميالُهم وخلافاتُهم السياسيّة، ويَحفظون كتابَ الله من غيرِ تحريفٍ أو تزييف... ومع هذا فانّ الله، هو نفسُه، يَضمنُ عصمةَ هؤلاء وقد اصطفاهم من خيرةِ العبادِ وأورثَهم كلمتَه ليؤدّوها بأمانة. جاءَ في الآية: «ثم أورَثْنا الكتابَ الذي اصطفَينا من عبادِنا» (٤٠/٢-٣). هؤلاءِ الوَرَثة يحافظون على القرآن حفاظهم على أولادِهم ومقدّساتِهم. وكلّما سمِعوا منه آيةً "خرّوا سُجّدا"، «وسبّحوا بحمدِ ربّهم»[1].

---

(١) السجدة ٣٢/١٥، انظر: ١٩/٥٨، ٢٥/٧٣، ١٧/١٠٧.

هذه القدسيّة لن تبرَحَ، في نفوسِ المسلمين، نشيطةً وقّادة مدى الدهر، لانّ «القرآنَ، على ما يقول الدكتور الرّافعي، سرٌّ السماء. فهو نورُ الله في أفقِ الدنيا حتى تزول، ومعنىَ الخلود في دولةِ الأرضِ الى أن تدول»[٢]. ولئن كانتْ معجزةُ القرآن الأولى في بَيَانِه وسحرِه، فمعجزتُه الثانية هي بخلودِه واستمراريّتهِ[٣].

ولكنّنا، اذا تخطّينا هذا السحرَ الخالد، وتوقّفنا على سرِّ حفظِ القرآن، لا بدّ لنا من أن نسأل: هل حَفِظَ الصحابةُ كلَ القرآن؟ أم نَسوا منه شيئًا! هل أجمَعوا على ما حفِظوا، أم أنّهم اختَلفوا في ما جَمَعُوا! وبمعنى آخر: هل عَصَمَ اللهُ الصحابة من التحريفِ والتبديلِ والزيادةِ والنقصان، كما عَصَمَ الرسول، أم أنّ الأهواءَ البشريَّةَ والمصالحَ السياسيّةَ والأميالَ الشخصيّةَ استبدَّتْ بهم، وعملتْ هي أيضاً في عمليةِ حفظِ القرآن؟

لا مشكلةَ في جواب المؤمنين: اللهُ عملَ ويعملُ على حفظِ كتابِه. ولكنَّ جوابَ التاريخِ والعلم يَضَعُنَا أمامَ أكثرَ مِن أربعين رجلاً تمتَّعوا بالعصمة. هؤلاء الرّجال، بالرّغم من خلافاتِهم المعروفة، وانتماءاتِهم القَبَلِيَّة المتنافسة، وانقيادهم لعصبيّاتٍ عشائريّة متناحرة، يَنعَمون بعصمةِ الله، ويُجري اللهُ على ألسنتهم وأيديهم معجزةً لا شبيه بها في تاريخ العالم ... كلُّ شيء في الاسلام معدٌّ لأن يحفظَ اللهُ كتابَه، مهما كلَّف من معجزات وعجائب وتحدٍّ لنُظُم الكون... ألأمرُ في غايةِ الأهمّيّة. فلننظر.

---

(٢) الدكتور مصطفى صادق الرافعي، اعجاز القرآن، ص ٣١ .

(٣) ابراهيم الابياري، تاريخ القرآن، ص ٤٤ .

أولاً – تخلّفُ الصحابةِ عن كلِّ القرآن

في إيمان المسلمين، إنّ الله حفظَ القرآن من كل نقصٍ أو زيادة، ومن كل عِوَج واختلاف... ولكنّ في تاريخِ المسلمين اشاراتٍ واضحةً صريحةً الى ما في القرآن من نقصٍ وزيادةٍ ونسيانٍ وتصحيفٍ وتبديل... واحتكمَ المسلمون، لحلِّ هذا الخلاف، الى معجزةٍ أجراها اللهُ في الصحابة فعصَمَهم من كل ما يَتّهمُهم به التاريخُ من نواقصَ في كتابِ الله العزيز...

وليس لنا، أمامَ مشكلةٍ عويصةٍ ودقيقةٍ كهذه، أيُّ حلٍّ يُرضي الايمانَ والتاريخَ معاً. جلّ ما لدينا استعراضُ المسألة من وجهتِها التاريخيّة، التي يجهلُها معظمُ المسلمين، والتي يفسّرها المفسّرون تفسيراً ترى معه وفاقًا تامًا بين ما في الإيمان ومعطياتِ التاريخ... ولن يُعجزَنا الرجوعُ الى النصوص كما هي، فهي الحكَم، وإليها الاحتكام. والقارئُ الحصيفُ يُدرِكُ بُعْدَ المعجزة.

١. عن نافع عن ابن عمر قال: «لا يقولنَّ أحدُكم قد أخذتُ القرآنَ كُلَّهُ . وما يدريه ما كُلُّهُ ! قد ذَهَبَ منْهُ قُرآنٌ كَثِيْر. ولكنْ لِيَقُلْ قد اَخَذْتُ منهُ ما ظَهَر»[٤].

٢. وقال عمر لعبد الرحمن بن عوف : «ألم تجدْ في ما أُنزِلَ علينا : أنْ جاهدوا كما جاهدتم أوّلَ مرّة ! فإنّا لا نجِدُها ! قال : أُسْقِطَتْ فيما أُسْقِطَ مِنَ القُرآن»[٥].

---

(٤) السيوطي ، الاتقان في علوم القرآن ، ٢/ ٢٥.

(٥) الاتقان في علوم القرآن، ٢/ ٢٥ .

٣. وعن ابن سفيان الكلاعي ان مسلمة بن مخلد الأنصاري قال لهم ذاتَ يوم: «أخبروني بآيَتَينِ في القرآنِ لَمْ يُكْتَبا في المصحف. فلم يُخْبِرُوه»(٦).

٤. ورويَ عن أُبَيّ بن كعب، بإخراجِ الحاكم، أنّ رسولَ الله قالَ لي: «إنّ اللهَ أمرني أن أقرأ عليكَ القرآن، فَقَرأ... ومن جملةِ ما قرأ –ما لا نجدُه في المصحف اليوم–: «لو انَّ ابنَ آدم سألَ واديًا من مالٍ فأعطيه. سأله ثانيا. وإنْ سألَ ثانيا فأعطيه. سأله ثالثا. ولا يملأُ جَوفَ ابنِ آدم الاّ التراب. ويتوبُ الله على من تاب...»(٧).

٥. وروي عن أبِي موسى الأشعري، قال: «كنّا نقرأُ سورةً نشبّهها بإحدى المُسبحات ممّا نَسَيْنَاهَا. غير انّي حفظتُ منها: يا أيّها الذين آمنوا! لا تقولوا ما لا تفعلون، فتُكتب لكم شهادةٌ في أعناقِكم، فتُسألون عنها يوم القيامة»(٨).

٦. وجاء عن مسلم «أنّ أبا موسى الأشعري قال مرّة لخمسمائة من القرّاء بالبصرة: إنّا كنّا نقرأُ سورةً بطولِ السّهم وحدَها. أمّا الآن فَقَدْ نَسِيْتُهَا ما عدا بعضَ آياتٍ منها....»(٩).

٧. وعن عروة بن الزبير عن عائشة قالت: «كانتْ سورةُ الأحزابِ تُقْرأ في زمن النبي مائَتَي آية. فلمّا كتبَ عثمانُ المصاحفَ لم نقدر منها الاَّ مَا هو الآن» (أي ٧٣ آية فقط)(١٠).

٨. وعن أُبّي بن كعب أنّه سأل درّ بن حُبيش: «كم تَعُدُّ سورةَ الأحزاب؟

---

(٦) المرجع نفسه.

(٧) المرجع نفسه.

(٨) المرجع نفسه.

(٩) أوردها الاستاذ الحداد في كتابه: القرآن والكتاب، ٢/ ٢٠٥.

(١٠) الاتقان، ٢/ ٢٥.

قال : أثنتين وسبعين آية، أو ثلاثة وسبعين آية. قال: إنْ كانتْ لَتَعدِل سورةَ البقرة (أي ٢٨٦ آية). وإنّا كنّا لنقرأ فيها آيةَ الرجم. قال : وما آيةُ الرجم ؟ قال: إذا زَنَى الشيخُ والشيخةُ فارجموهما البتةَ نكالاً من الله. والله عزيز حكيم...»[١١].

٩. وعن حميدة بنت أبي يونس قالت: «قرأ عَلَيَّ أبِي وهو ابنُ ثمانين في مصحفِ عائشة: إنّ اللهَ وملائكتَه يُصلّونَ على النبيّ: يا أيّها الذينَ آمَنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليمًا وعلى الذين يُصلُّون في الصفوفِ الأولى... قالت: وذلكَ قَبْل أنْ يُغيِّرَ عثمانُ المَصَاحِف»[١٢].

١٠. أمّا مجموعُ سُوَرِ القرآن، فهي الآن ١١٤ سورة؛ ولكنّها كانت في مصحف ابن مسعود مائة واثنتي عشرة سورة، لأنّه لم يكتبِ «المعوذَتَين»، وفي مصحف أُبَي بن كعب مائة وستّ عشرة سورة، «لانه كتبَ في آخره سورَتَي الحَفْدِ والخَلْع»[١٣]، وفي مصحفِ عليّ بن أبي طالب زيادة سورة «النُّورَين» وتغييرٌ في موضعِ السُّوَرِ والآياتِ... الخ[١٤].

لا يَعجزُ المسلمون عن إيجاد تبريرٍ إلهيٍّ لتفسير هذا الخلاف الكبير في كتاب الله ! لقد فسّروا ذلك بقولهم : بالنسْخ، وقد أشرنا اليه، وبأنّ اللهَ تدخّلَ في ذاكرةِ الصحابة فأنساهم ما يجب أن يَنسوا. ومن ذلك قول أبي بكر الرازي أكّد بأنّ الله يُنسي الصحابةَ ما يُريد أن «يُنسِيَهم أيّاه، وَيَرْفَعَهُ من أوهامِهم،

---

(١١) انظر ما جمعه محمد دروزة عن نصوص آية الرجم، في كتابه: القرآن المجيد، ص ٥٨ .

(١٢) الاتقان، ٢/ ٢٥ .

(١٣) الاتقان، ١/ ٦٥، انظر فيها نصّ سورتي الحفد والخلع.

(١٤) انظر نصّ سورة النورَين في دروزة، القرآن المجيد،ص ٦٠-٦١ . وانظر ايضا فصلَي الاتقان، ١/ ٦٤- ٧٠ و ٢/ ٢٢ - ٢٦. ونجد أيضاً اختلافا واسعًا في قراءة كثيرٍ من الآيات التي نعجزُ عن حصرِها. ومن أرادَ إثباتًا وتبيانًا فليرجع الى السيوطي في كتابه الاتقان في علوم القرآن. ومن أراد مرجِعاً سهلَ المنالِ فليقرأ محمد عزّة دروزة، القرآن المجيد، ص ٦١-٦٢... الخ.

ويأمُـرَهم بالإعراضِ عن تلاوتِه، وكَـتْبِـهِ في المصاحف، فـيندَرس على الايامِ كسائرِ كتبِ الله القديمة التي ذكرَها في كتابه في قوله : « إنّ هذا لفي الصحفِ الأولى صحفِ إبراهيم وموسى»[١٥]، ولا يُعْرَفُ اليومَ منها شيءٌ»[١٦].

لئن كان النسـيان نقصـًا في ذاكرة البشر، فـانّه، لدى الصحابة، نعـمةٌ الهيّةٌ ومعجزةٌ من السمـاء. يتدخّلُ اللهُ ليُنسيَهم ما يجبُ أن يَنسوه، ويَرْفَعُ من أوهامِهـم ما يجب أن يُرفَع ! إنّ هذا لا يُدرِكُـه العقلِ البـشريّ المحـدود الآفاق ! وحدَه الله يستطيع أنْ يجـعلَ من النقصِ فضيلةً، ومن النسيانِ مـعجزةً، ومن التخلّف ترقٍّ، ومن النسخِ والتحريفِ حِـكْمةً، ومن الضعفِ قوّةً... وليس علينا، نحنُ، إلاّ الطاعة والانصياع، والإيمان بالمعجزات، كلِّ المعجزات!!!

---

(١٥) سورة الاعلى ٨٧/١٨ – ١٩ .

(١٦) الاتقان، ٢/٢٦ .

ثانيًا – حديث الأحرف السبعة

بسبب نسيان صحابة النبي بعضَ آيات القرآن، وبسبب ضعف ذاكرتهم، وبسببِ تخلّفهم عن كثيرٍ ممّا نُسِخَ وبُدِّلَ، وبسببِ بعضِ التحريف والتصحيف... أوْجَدَ المفّسرون للقرآنِ حديثًا طريفا على لسانِ محمّد، وأجمع أصحابُ الحديث على صحّته. جاء فيه قوله: «أُنْزِلَ القرآنُ على سبعةِ أحْرُف». وهو حديثٌ شائعٌ متواتر، نقلته كتبُ الحديثِ والتفسيرِ والتاريخ جميعها، وأجمعَ عليه أحدُ وعشرون صحابياً ثِقة[١٧].

وأُضيفَ على هذا الحديث توضيحات متعددة ومختلفة. فمنهم مَن زادَ عليه : «فاقرأوا ما تيسَّر منها». ومنهم: «كلّها شافٍ كافٍ... أيّهما قرأتَ أصَبْتَ. فمن قرأ منها حرفًا فهو كما قرأ. فأيّما حرفٍ قرأوا فقد أصابوا... كلّها شافٍ كافٍ ما لم يختمْ آيةَ عذابٍ برحمةٍ، أو آيةَ رحمةٍ بعذاب...» الخ[١٨].

ويبدو أنّ العلماء المسلمين جميعهم يأخذون بحديثِ الأحرفِ السبعة، ويعتمدون عليه في شرحِ ما تعسَّر تفسيرُه، وفي تفسيرِ ما اختُلِفَ فيه. وقال

---

(١٧) يعدِّد السيوطي أسماء مَن أجمعوا على صحة الحديث. هم: أُبَيّ بن كعب، أنَس بن مالك، حُذيفة بن اليمان، زيد بن أرقم، سمرة بن جندب، سلمان بن صرد، ابن عباس، ابن مسعود، عبد الرحمن بن عوف، عثمان بن عفّان، عمر بن الخطاب، عمرو بن أبي سلَمَة، عمرو بن العاص، مَعاذ بن جبل، هشام بن حكيم، أبو بكرة، أبو جهم، أبو سعيد الخدري، ابو طلحة الأنصاري، ابو هُرَيرة، ابو أيوب (الاتقان ١ / ٤٥).

(١٨) انظر الطبري في تفسيره، ١ / ٢٠ – ٤٥ ، والشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن ، ص ١٠٢، وغيرهما.

القاضي أبو بكر بن الطيّب الباقلاني في ذلك : «الصحيحُ أنّ هذه الأحرفَ السبعةَ ظهرتْ واستفاضتْ عن رسولِ الله (ص)، وضبطَها عنه الائمّة، وأثبتَها عثمانُ والصحابةُ في المِصحَف، وأخبَروا بصحّتِها، وإنّما حَذَفوا منها ما لم يَثْبُتْ متواتِراً»[١٩].

***

لكنَّ اتّفاق الصحابة على صحّة حديثِ الاحرف السبعة لم يُظْهِر، من حيث معناه، إلاّ خلافًا واسعًا وتناقضًا بيّنًا في تفسيرِه وشرحه. وقد رَفَعَ السيوطي نحوًا من أربعين قولا متباينا في معنى الاحرفِ السبعة. فيقول مثلا: إنّ الحرفَ هو «من المشكلِ الذي لا يُدرى معناه، لأنّ الحرفَ يصدقُ ، لغةً، على حرفِ الهجاء، وعلى الكلمة، وعلى المعنى ، وعلى الجهة». ثمّ إنّه «ليسَ المراد بالسبعةِ حقيقةَ العدد، بل المرادُ التيسير والتسهيلُ والسَعَة. ولفظُ السبعة يُطلق على إرادةِ الكثرة... ولا يُراد العدد المعيّن». وهكذا...[٢٠].

***

ومع اختلاف الصحابة في معنى الاحرف السبعة، نرى المسلمين مُجِدّين في البحث عمّا جعلَهم يختلفون في فهمِ القرآن وقراءتِه على أوجهٍ عديدة، وكلّها صحيحة. وبذلك فسّروا تعدّدَ القراءاتِ وأجازوها، رغم تصريحِ القرآن بأنّه نزلَ بلسانٍ عربيّ مبين، وبإعجازٍ هو مثال كلّ معجز. وعندنا، في كتب تفاسير القرآن والأحاديث النّبويّة، أمثلةٌ واضحةٌ كثيرةٌ عن اختلافِ القرّاء بحضرة النبيّ نفسِه في مختلف طرقِ القراءة. وقد أجازها النبيّ كلَّها.

* ويعطينا البخاري ومسلم صورةً عن هذا الخلاف، فيقول البخاري : «إنّ عمر بن الخطاب (ر) قال : «سمعتُ هشامَ بن حكيم يقرأ سورة الفرقانِ

(١٩) الزركشي، البرهان، ١/ ٢٢٤.

(٢٠) السيوطي،الاتقان، ١/ ٤٥ – ٤٩.

في حياةِ رسول الله (ص)، فاستمعتُ لقراءته، فاذا هو يقرؤُها على حروفٍ كثيرةٍ لم يُقْرِئْنِيهَا رسولُ الله(ص). فكدتُ أساوره في الصلاة، فانتظرتُه حتى سَلَّم، ثم لَبَبتُه بردائه أو بردائي، فقلتُ : من أقْـرَأكَ هذه السورةَ؟ قال: أقرأنيها رسولُ الله (ص). قلتُ له: كَذِبْتَ، فوالله إنّ رسولَ الله (ص) أقرأني هذه السورةَ التي سمعتُكَ تقرؤُها. فانطلقتُ أقودُه الى رسول الله (ص). فقلتُ: يا رسولَ الله، إنّي سمعتُ هذا يَقرأُ بسورةِ الفرقانِ على حروفٍ لم تُقْرِئْنِيْهَا، وأنت أقرأْتَني سورةَ الفرقان! فقالَ رسولُ الله (ص): أرسِلْهُ يا عمر. إقرأْ يا هشام. فقرأ هذهِ القراءةَ التي سمعتُه يقرؤُها. قال رسولُ الله (ص): هكذا أُنزِلَتْ. ثم قالَ رسول الله (ص): إنّ هذا القرآنَ أُنزِلَ على سبعةِ أحرُفٍ. إقرؤوا ما تَيسَّرَ منه»(٢١).

يعلّق الاستاذُ الحداد على هذا الحديث بقوله : «هذا الحديثُ يُشعِرُ بأنّ الاختلافَ في النصِّ بلغَ مبلغًا كادَ منه عمر أن يقتلَ صاحبَه، ويشهدُ بأنّ الاختلافَ في القراءة، ليسَ فقط من القرّاءِ، بل هو أيضاً من النبيِّ نفسِه الذي يثبت قراءَتَين ونصَّين معًا. وهذه القصةُ تجري مع عمر نفسه الذي سوفَ يشيرُ بتوحيدِ النّصِّ عند استفحالِ الأمرِ في زمنِ أبي بكر. فالاختلافُ في النّصّ يعودُ إلى النّبيِّ وأركانِ صحابته»(٢٢).

* وينقل إلينا الطبري عن زيد بن أرقم هذه الرواية: «جاءَ رجلٌ الى رسول الله (ص) ، فقال : أقرأني عبدُ الله بن مسعود سورةً، أقرأنيها زيدٌ، وأَقْرَأنِيها أُبَيّ بن كعب، فاختلفتْ قراءتهم. فبقراءةِ أيّهم آخذ؟ قال. فسكتَ رسولُ الله (ص)، وعَليٌّ إلى جنبِه، فقالَ عَلِيٌّ: لِيَقْرأْ كلُّ إنسانٍ كما عُلِّمَ. كلٌّ

(٢١) صحيح البخاري ٦/ ١٨٥، انظر تفسير الطبري ١/ ١٠، ومسند أحمد بن حنبل،/ ٢٤ ١، والبرهان، ١/ ٢١١ ، والاتقان، ١/ ٤٩ ...

(٢٢) الاستاذ الحداد، القرآن والكتاب ٢/ ٢٠٨ - ٢٠٩ .

حَسَنٌ جَميلٌ»[٢٣].

* وروي عن أُبيّ بن كعب قال : «دخلتُ المسجدَ فصلّيتُ فقرأتُ (سورةَ) النحلِ. ثم جاءَ رجلانِ فقرآها خِلافَ قراءتِنا، فدخلَ نفسي مِن الشّكِّ والتكذيبِ أشدُّ ممّا كنتُ في الجاهليّة. فأخذتُ بأيديهما، فأتيتُ بهما النبيَّ (ص) ، فقلْت : يا رسولَ الله ، استقرِئْ هذين. فقرأ أحدُهما. فقال: أصبتَ. ثم استقرأ الآخر، فقال: أصَبْتَ. فدخلَ قلبي أشدُّ ممّا كان في الجاهليّة من الشكِّ والتكذيب. فضربَ رسولُ الله (ص) صدري، وقال : أعاذَك الله من الشكِّ، وأخْسَأَ عنكَ الشيطان»[٢٤].

***

هذا قليل جدًّا ممّا رواه مسلم والبخاري والطبري السيوطي وأحمد بن حنبل والزركشي وغيرهم في اختلاف الصحابة في قراءة القرآن. وقد كرّسَ حديثُ « الأحرف السبعة» الذي أوجدوه على لسانِ النبيّ، هذا الخلافَ بينهم. كما اعتمدوا، على النبيِّ نفسِه، لتكريس هذا الخلاف. فمحّد نفسُه أجازه، وسمحَ لصحابتِه بتعدّدِ القراءات بتعدّد الأحرف.

فجاء على لسان أبي العالية حديثٌ قال فيه : «قرأ على رسول الله (ص) من كلِ خمسةٍ رجلٌ، فاختلفوا في اللّغةِ، فرضيَ قراءَتهم كلَّهم»[٢٥] ويبدو أنّ بعضَ الصحابة قرّروا هذا الخلافَ، ورَضوا به، وحَرّضوا على البقاء عليه. روي عن ابن مسعود قوله: «مَنْ قَرأَ منكم على حرفٍ فلا يتحوَّلنَّ منه إلى غيره»[٢٦]. ويبدو أيضاً أنّ رسولَ الله توسّعَ في تغييرِ بعضِ كلماتٍ وتبديلِها

---

(٢٣) تفسير الطبري، ١/ ٢٤ .

(٢٤) المرجع نفسه، ١/ ٢٥ .

(٢٥) تفسير الطبري، ١/ ٥٤ .

(٢٦) المرجع نفسه، ١/ ٥١ و٥٢ .

عندما سأله سائل ماذا يكتب : «أعزيزٌ حكيم؟ أو سميعٌ عليم؟ فقال الرسول : أيّ ذلك كتبتَ فهو كذلك» (٢٧).

* كل هذا «يفيد، بحسب محمّد دروزة، أنّ القرآنَ لم يكنْ في كتابتهِ ومصاحفه وصُحُفِه المتداوَلةِ، وفي قراءتِه، محَرّرًا، بحيثُ يؤمن معه ذلك الخلاف»(٢٨).

* ويفيد أيضاً أنّ الاحتكامَ الى النبيّ لم يُجْدِ الصحابة المختلفين نفعًا، لأنّ الرسولَ «أمَرَ كلَ امرئ منهم أنْ يقرأ كما عُلِّمَ حتى خالَط بعضُهم الشكّ في الإسلام لِما رأى من تصويبِ الرسولِ قراءةَ كلِ قارئٍ على خِلافِها مع غيرِها»(٢٩).

* وتفيدُ أيضاً، على ما علّقَ الطبري على الآية: «أفلا يتدّبرون القرآن» (٤/ ٨٢)، بانّ الخلافَ كانَ بين الصحابة، لا على الألفاظِ والمباني، بل على المعاني والأحكامِ. قال : إنّ هذه الآية إنّما «تقصد اختلافَ المعاني والأحكام، لا اختلافَ الألفاظِ والتعابير، بدليلِ اختلافِ الصحابة، كلٌّ في قراءتِه، وتصويبِ النبيّ لهم جميعا»(٣٠). ولو كان الاختلافُ في الألفاظ وحسب، لَما «خالَط بعضُهم الشكّ في الإسلام»(٣١)، «ولَمَا اقتتلوا فيما بينهم»(٣٢)، ولَمَا «اختُلفَ في معنى هذا الحديثِ على نحو أربعين قولاً»(٣٣)...

ومع هذا الاختلاف الواضح والخطير، لا بدّ من التنبّهِ الى موقفِ بعضِ

---

(٢٧) المرجع نفسه، ١/ ٥٤ .

(٢٨) محمد دروزة، القرآن المجيد، ص ٦٢ .

(٢٩) تفسير الطبري، ١/٤٨ – ٤٩ .

(٣٠) تفسير الطبري، ١/٤٨ .

(٣١) تفسير الطبري، ١/٤٧ و٥٣ .

(٣٢) الاتقان، ١/ ٥٩ .

(٣٣) الاتقان، ١/٤٥ .

العلماء المسلمين الذين يصرّون على أنّ الاختـلافَ هو في الألفاظِ والتعابير، لا في المعـاني والأحكام. وعبّـروا عن ذلك بقـولهم : إنّ اخـتلافَ اللفظِ لا يحـدّه سوى تناقـض المعنى ، مثل ان تجـعلَ المغفرةَ عَـذَابًا والعذابَ مـغفـرةً. فيكونُ المقصودُ، عندهم، المحافظةَ على سلامةِ المعنى ولو اختلفتِ الألفاظ...

ولكنّنا نسأل:

١.كيف يتـفق حديثُ الأحرف السـبعة، بمـعانيه المخـتلفة، مع معـجزةِ إعجاز القرآن، ومعجزة حفظهِ ؟

٢. ثم، لئن سلّمْنا بصحّةِ الأحرفِ السبعة ونسبتِها الى النبّي، فلماذا إذاً، أسقـطَها عـثمـانُ بنُ عَفّـان، ومنع تلاوتَها؟ ويؤكّـدُ الطبري ذلك بقـوله: «إنّ الأحرفَ السـتة الأخْـرى أسـقَطَهَـا عثـمان، ومنعَ تلاوتَهـا، ولا حاجـةَ بنا الى معـرفتِـها، لأنّ الحكمةَ في جـمْع الناس على حرفٍ واحـد. والصوابُ مـا فَعَلَ عثمان»[٣٤].

٣. ثمّ لو كـانت الأحرفُ السـبعـة رُخْصَـةً نبويّة، فلمـاذا اقتـتلَ الناسُ بسببها؟ ونحن نسمعُ عن أنَسِ بن مالك هذه الرواية، قال : «اختلفوا في القرآن على عهـدِ عثمان حـتى اقتتلَ الغلمـان والمعلّمون. فبلـغَ ذلك عثمانَ بن عـفّان. فتسـاءل: «أعندي تَكذِبون به. وتَلحنون فيه؟! فَمَن نأى عنّي كـانَ أشدَّ تكذيبا، وأكثـرَ لَحْنًا. يا أصحابَ محـمّد! اجتمـعوا، فاكـتبُوا للناسِ إمَامًـا. فاجتَمَـعوا فكَتَبـوا. فكانوا اذا اختلفوا وتدارؤوا في أيِّ آيةٍ، قالوا: هذه أقـرأها رسولُ الله (ص) فـلانًا، فيُـرْسَلُ إليه، وهو على رأسِ ثـلاثٍ من المدينة، فيُـقال له: كـيف أقرأكَ رسولُ الله (ص) آيةَ كذا وكـذا، فيقولُ كذا وكذا، فيكتبـونها، وقد تركوا لذلك مكانًا»[٣٥].

---

(٣٤) تفسير الطبري، ١/ ٦٦ و٦٣.

(٣٥) الاتقان، ١/ ٥٩.

٤. ثم أخيراً لو كانتِ الأحرفُ السبعةُ مرخّصَةً من النبي، فلماذا تخَوَّفَ حُذَيفَة، و«قال لعثمان: أَدْرِكِ الأمّةَ قبلَ أن يختلِفوا اختلافَ اليهودِ والنصارى»[٣٦].

***

وبالنتيجة، لا بدّ من التسليم بصحة هذا الحديث، لإجماعِ المسلمين عليه؛ ولا بدّ أيضاً من ايجادِ معنًى له يَتّفقُ عليه المسلمون جميعُهم، لأنّ مثلَ هذا الحديث، في رأي بلاشير، هو «بلا ريبٍ أخطرُ نظريةٍ في الحياة الإسلاميّة، لأنّها أسلمتِ النّصَ القرآني الى هوى كلِ شخصٍ يُثبُته على ما يهواه»[٣٧].

وفي رأي المسلمين اليوم، إنّ الرسول «وسّعَ الى المسلمين في أوّل الأمر، وراعَى التخفيفَ على العجوز والشيخِ الكبيرِ، وأذِن لكلٍّ منهم ان يقرأ على حرفِه، أي على طريقتِه في اللغةِ، لِمَا يجدُه من المشقةِ في النطقِ بغيرِ لغته ... فالمرادُ من هذه الاحرف السبعة -واللهُ أعلم- الأوجه السبعة التي وسّع بها على الأمّة. فبأي وجهٍ قرأ القارئُ منها أصاب. ولقد كان النبي يصرّحُ بهذا كلَ التصريح حينَ قال : أقرأني جبريلُ على حرفٍ، فراجعتُه فلم أَزَلْ استعيدُه حتى انتهى الى سبعةِ أحرف»[٣٨].

وهكذا يرى الشيخ صبحي الصالح انّ هذا الحديث« يُبرز الحكمةَ الكبرى... ففيه تخفيفٌ وتيسيرٌ على هذه الأمّة التي تعدّدتْ قبائلُها، فاختلفتْ بذلك لهجاتُها، وتباينَ أداؤُها لبعضِ هذه الالفاظ، فكان لا بدّ أن تُراعى لهجاتُها وطريقةُ نطقِها. أمّا لُغَاتُها نفسُها فلا موجب لمراعاتِها، لأنّ القرآنَ اصطفى ما

(٣٦) المرجع نفسه، ١/ ٥٩ .

(٣٧) Régis Blachère, Introducion au Coran, p.69 .

(٣٨) صحيح البخاري ٦/ ١٨٥ ، الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ١٠٨- ١٠٩ .

شاءَ بعد أن صهرَه في لغةِ قريش التي تمثّلتْ فيها لغاتُ العربِ قاطبةً لا لغاتُ قبائلَ معيّنة...»[٣٩].

وفي رأي ابن الخطيب، إنّ الله «أرادَ بلطفِه ورحمتِه أنْ يجعلَ لهم متّسَعًا في اللغاتِ ومتصرّفا في الحركاتِ كتيسيره عليهم في الدين» ... وقال أيضا: «والقراءاتُ إنّما جُعِلَتْ على ألسنةِ القبائل ولهجاتها تلطّفًا بالناسِ وتسهيلاً عليهم وتقريبًا لأذهانهم»[٤٠].

ولكنّنا نسألُ الشيخَ وابنَ الخطيب ومَن قال قولَهما: كيف توحّدتِ اللغاتُ في لغةِ قريش ؟ وكيف يكونُ اختلاف اللهجات ؟ ولماذا وحّد عثمانُ الاحرفَ على حرفٍ واحد ؟ وكيف يكونُ الإعجازُ في رخصةِ تبديلِ الالفاظِ في النّص؟ وكيف نزل القرآنُ «بلسانٍ عربي مُبين» ؟ وكيفَ نفهمُ تحدّي القرآنَ للأنسِ والجنِّ بأنْ يأتوا بسورةٍ مثل سوره؟ وبسؤالٍ واحدٍ بسيط: كيف يكونُ الإعجازُ في القرآن وهو على هذا الإقرارِ الصريح بالاختلافِ والتباين؟ !

إنّ الجوابَ سيكونُ حتماً: ان لطفَ اللهِ ورحمتَه خفّفَا على هذه الأمّة الأميّةِ الضعيفةِ المفككةِ المختلِفةِ في لغاتِها ولهجاتها ... وهو جوابٌ، فيه من مداراةِ أحوالِ البشر أكثرُ ممّا فيه من فهمِ حقيقةِ الوحي والنبوّة. والحقُّ يقال، كما يقول الإستاذ الحدّاد: إنّ مثلَ هذا الحديثِ النبوي «يبعثُ إشكالاً ضخمًا على وَحْدَةِ القرآن مع تعدّدِ نصوصِه الى سبعة، وعلى صحّةِ النصِّ العثماني بعدَ إسقاطِ الحروفِ الستة، وعلى أفضليةِ إعجازِ الحرفِ العثماني دون سواه. وهذا الإشكالُ الضخمُ تنبّهَ له أدباءُ العصر، فكانَ أهونَ ما عندهم أنّهم نفوه أو كادوا»[٤١].

---

(٣٩) الدكتور الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ١١٣ .

(٤٠) ابن الخطيب، الفرقان، ص ٩٨ و١٣١.

(٤١) الاستاذ الحداد، القرآن والكتاب ١ / ٢١٥ .

لذلك قال محمّد صَبيح : إنّ «التوفيقَ بين هذه الاحاديث الكثيرةِ التي تكادُ تتفقُ في معناها، وما ذكرنا من تفسيرٍ للاحرفِ السبعة، عسير. ولكنْ لِتُفْهَمِ الاحاديثُ على أيِ وجهٍ شاء الناس؛ أمّا الذي نعتقدُ أنَ مِنَ الخير فهمَه هو عدمُ جَوازِ هذا التبديلِ والتعديلِ في القرآن : فاختلافُ الناسِ في شأنِ أحاديثٍ جمعَها المتأخّرون من المسلمين أهونُ بكثيرٍ من اختلافِهم في شأنِ نصوصِ القرآن»[٤٢].

***

هذا الموقف الأخير هو أيضا خطيرٌ جداً: إنّ المسلمين لم يُجمعوا مثلَ ما أجمعوا على حديثِ الاحرف السبعةِ. فعلى مثلِ هذا الحديث بُنِيَتْ في الإسلام نظريّاتٌ مرتبطةٌ بعضُها ببعض، إنْ ألغَيْتَه أو شككتَ بصحتِه، لم تعدْ تعرف كيفَ تفسِّرُ آياتٍ كثيرةً في القرآن، ولم تَعدْ تعرف كيف تفسّرُ «العقيدَة والتاريخ واللغة... وحقيقةَ القرآن العظيم»[٤٣]...

لئن «لم تُثِرْ مشكلةٌ من مشكلاتِ البحثِ في تاريخِ القرآن ما أثارتْه الاحرفُ السبعة، ولم يختلفِ العلماءُ في موضوعٍ مثلما اختلفوا في تفسير هذه الاحرف السبعة»[٤٤]، فإنّ قبولَ هذا الحديثِ، مثلُ رفضِه، فيهما خطرٌ جسيمٌ على معجزةٍ إلهيّةٍ أقرّها المسلمون قاطبة، الا وهي معجزةُ حفظِ القرآن واعجازِه. ومهما تفادى العلماءُ المشكلة واستهانوا أمرَها فانّهم لواقعون في فخِّ التاريخِ الذي لا يَرحمُ لا النبيَّ ولا جبريل...

وأيَّ موقفٍ نتّخذُه من هذا الحديث، في قَبولِه أم في رَفضِه، فان معجزَةَ الصحابةِ في حفظِ القرآن لن تسلمَ: في قبولِه تسليمٌ باختلافِ النصّ، وفي

---

(٤٢) محمد صبيح ، بحث جديد في القرآن، ١٢٦ .

(٤٣) الدكتور بكري شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن، ص ٧٧ .

(٤٤) المرجع نفسه .

رفضِه رفضٌ لما أجمعَ عليه المسلمون. ولن نبقى ، بين هذين الموقفين المتناقضَين حَيارى. فالذي يقرّر موقفَنا هو النظرُ في حفّاظِ القرآن وجمّاعِه، هؤلاء الذين استعانَ بهم عثمانُ بن عفّان، ليحلَّ مشكلةَ الاحرفِ السبعة. مَن هم: وما هي كفاءاتهم؟ وما علاقته بهم؟

فإنْ كانَ الدافعُ عند عثمان حصرَ الخلاف فهو إقرارٌ بالخلاف؛ وإنْ كان الدافعُ استباقَ ما يمكن ان يحدثَ من خلاف، فعثمان نبيٌّ آخر يستحقُّ التقديرَ والإعجاب. وبهذا لا يزال جبريلُ مستمرًا في عملِه ونشاطِه وسهرِه على كتابِ الله العزيز.

ثالثًا – حفّاظ القرآن

في معتقد المسلمين إنّ النبيّ «كان عليه السلام سيّدَ الحفّاظ وأوّلَ الجمّاع، وتيسّرَ ذلك لنخبةٍ من صحابتِه على عهدِه »[٤٥]. هؤلاء النخبة اختُلِفَ في أسمائِهم وعددِهم وأهليتِهم. وعند البخاري نفسِه «سيّدِ المحدِّثين وطبيبِ الحديثِ في عَالَمِه»[٤٦] ثلاثُ رواياتٍ مختلِفَة:

١. في روايةٍ أولى، قال البخاري نقلا عن عبد الله بن عمرو بن العاص: «سمعتُ النبي (ص) يقول : خذوا القرآن من أربعة : من عبدِ الله بن مسعود، وسالِم، ومَعَاذ، وأُبَيّ بن كَعْب»[٤٧].

٢. وفي روايةٍ ثانية نقل البخاري عن قتادة قال: «سألتُ أَنَس بن مالك : مَن جَمَعَ القرآنَ على عهدِ رسولِ الله (ص) ؟ فقالَ : أربعةٌ كلُّهم من الأنصارِ : أُبيّ بن كعب، ومَعاذ بن جَبَل، وزَيد بن ثابت، وأبو زيد. قلت: مَن أبو زيد ؟ قال: أحد عمومتي»[٤٨].

٣. وفي روايةٍ ثالثة روى البخاري من طريقٍ ثابتٍ عن أنس. قال: «مات النبي (ص) ولم يَجْمَعِ القرآنَ غيرُ أربعة : أبو الدرداء، ومَعاذ بن جبل، وزَيد بن

---

(٤٥) الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن ، ص ٦٥.

(٤٦) مقدمة صحيح البخاري، جزء ١ ، القول لمسلم صاحب الصحيح.

(٤٧) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ١ / ٧٠ .

(٤٨) المرجع نفسه، انظر صحيح البخاري، الباب ١٧ في مناقب الانصار .

ثابت، وأبو زيد»[٤٩].

فالأسماء الواردة في هذه الروايات الثلاث سبعة، هم : عبد الله ابن مسعود، وسالم بن معقل، ومَعاذ بن جبل، وأُبَيّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو زيد بن السكن، وأبو الدرداء. والظاهر أنّ هذا العدد يعود الى حديثٍ نبويٍّ يقول: «لا يعرِفُ القرآنَ الاّ سبعة»[٥٠]. ولكنّ بعضَ العلماء يرون لعددِ سبعة معانٍ غيرَ محصورة. فالسيوطي، مثلا، يذكر من المهاجرين: الخلفاءَ الاربعة (أبا بكر وعمر وعثمان وعليّ)، وطلحة، وسعد، وابن مسعود، وحذيفة، وسالما، وأبا هريرة، وعبد الله بن السائب، والعبادلة الأربعة[٥١]، وعائشة، وحفصة، وأم سلَمة؛ ومن الأنصار: عبادة بن الصامت، ومعاذ الذي يكنّى أبا حليمة، ومجمع بن جارية، وفضالة بن عبيد، ومسلمة بن مخلد...»[٥٢]. أي ٢٣ صحابياً.

ويذكر القرطبي عددَ الصحابة في قوله: «قد قُتِلَ منهم يومَ بئرِ معونة سبعون، وقُتل في عهدِ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مثلُ هذا العدد»[٥٣]... وفي كتب الحديثِ والسيَر أسماءُ عديدة يختلفُ عدُّها باختلافِ الرواة[٥٤].

***

هذا الخلاف في عدد الصحابة يدعو الى التحفّظ والريبة أكثر ممّا يدعو الى الارتياح. وعلى كثرتهم نسأل: إلى أيٍّ مدى يمكننا الثقة بهم كلِّهم؟ واذا

---

(٤٩) السيوطي، الاتقان، ١/ ٧٠ .

(٥٠) عن الماوردي المتوفّي سنة ٤٥٠ هـ .

(٥١) هم : عبد الله بن عباس،وعبد الله بن عمر، وعبدالله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن الزبير.

(٥٢) السيوطي، الاتقان، ١/ ٧٢ – ٧٣ .

(٥٣) انظر في الاتقان،١/ ٧١ .

(٥٤) انظر تذكرة الحفاظ ٢/ ٥ ، وتهذيب التهذيب ٤٧/ ٣١٥ وغيرهما.

كنّا نمحضُ ثقتَنا بعضهَم، فهل بالثقةِ نفسِها يمكننا أن نأخذَ بما حفِظَه عبدُ الله بنُ ابي سَراح ؟ وهو الذي بدّلَ وحرّف ! وابنُ أبي داود يخبرنا، في سننه، عن كاتبٍ آخر، دون ذكر اسمه، قد بدّل في الوحي وحرّف(٥٥).

ورغم كل ضعف أو نقيصة، فإنّ حفظَ القرآن كانَ فضيلَة المسلمين منذ بدء الدعوة. وقام الحفظُ على أساسين : حفظ القلوب، والتدوين في الرقاع. ويؤكّد ابن الجزري «انّ الإعتمادَ في نقلِ القرآن كان على حفظِ القلوب والصدور، أكثر ممّا كان على خَطِّ المصاحف والكُتبِ. وحفظُ القلوب هو أشرفُ خصيصة من الله تعالى لهذه الأمّة»(٥٦).

ويبدو انّه، في زمن النبي، كانتِ الذاكرةُ هي المعتمَد الأساسي، لأنَ صاحبَها لا يحتاجُ «الى النظرِ في صحيفةٍ كُتبتْ بالمدادِ الذي ينطمسُ ويزول إذا غُسِلَ بالماء»(٥٧). وهذا معنى الحديث المرويّ عن مسلم قال «قال النبي: انّ ربّي قال لي: انّي منزلٌ عليكَ كتابًا لا يغسلُه الماءُ، تَقْرَؤُهُ نائِما ويقظانَ»(٥٨)... ولكنّنا نعلم ما للذاكرةِ من أوهان.

لهذا نسأل أيضاً : هل الذين حفظوا القرآنَ قد حفظوه كلَّه؟ ألنبيُ نفسُه، عندما كان مارًا بالقربِ من مجتمعٍ، سمع واحدًا يتلو مقطعًا من القرآنِ. فذُهِلَ وَعَرَفَ انّه (أي النّبيّ) كان قد نَسِيَه. وعادَ الى ذهنِه بفضلِ تلك المناسبة. وهناك خبرٌ عن ابن مسعود يقول: «في زمن النبي كنّا نتلو سورةً تُشَابِهُ سورةَ التوبة، وإنّني لا أعرفُ منها غَيبًا إلاّ آيةً واحدة». يعني نسي ما يقرب من ١٣٠ آية!!! ونعرف أيضاً قصةَ آية الرجمِ التي كانَ عُمَر وحدَه يعرفُها(٥٩)...

---

(٥٥) سنن ابن أبي داوود ٣ .

(٥٦) هو صاحب كتاب «النشر في القراءات العشر»، انظر الاعلام، ٣/٩٧٨ .

(٥٧) الزرقاني، مناقع العرفان، ١/٢٣٥ .

(٥٨) خرّجه أبو مسلم في صحيحه.

(٥٩) انظر ما سبق في «النسيان النبوي» .

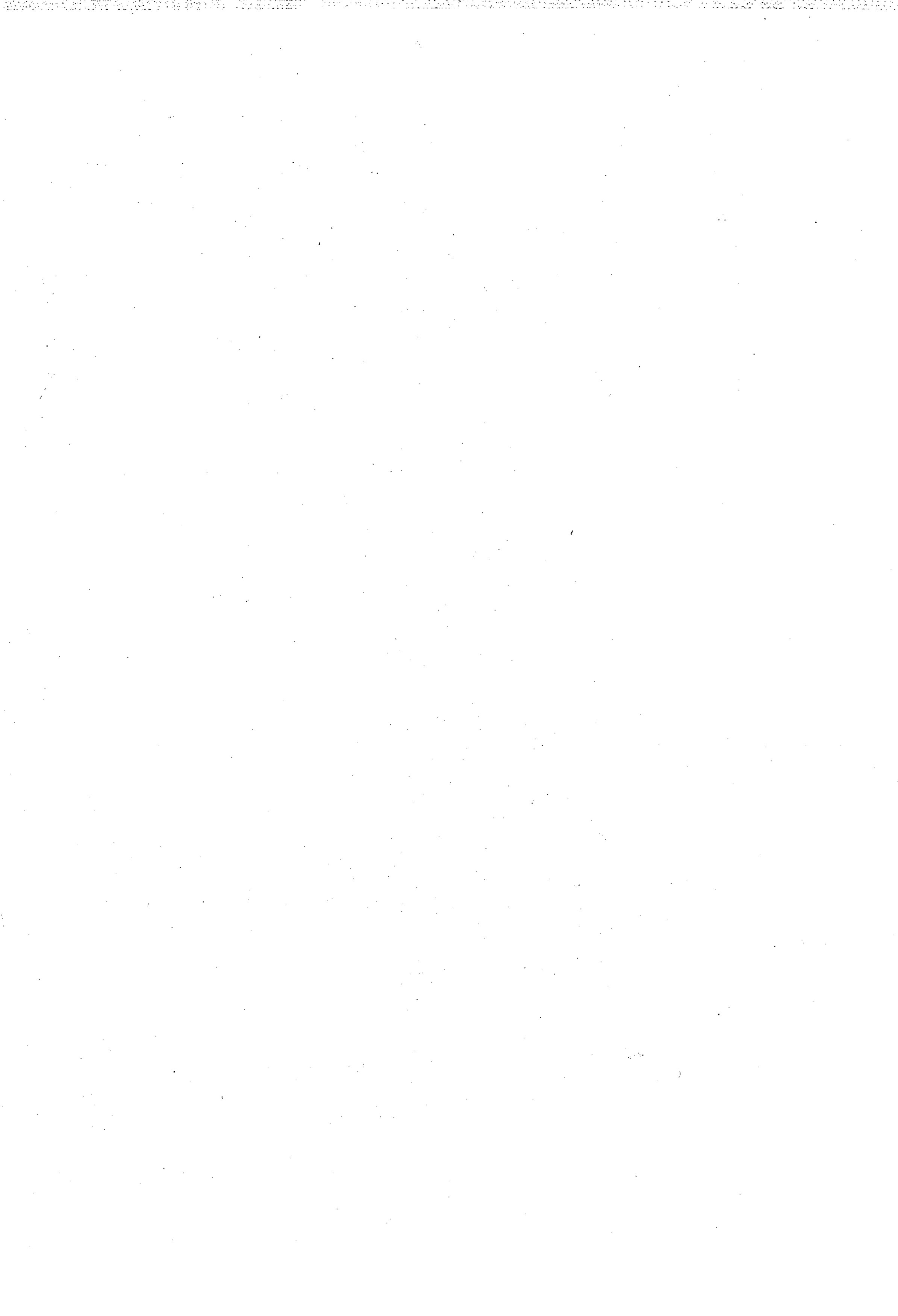
وممّا يقطع بسوء الاعتماد على الذاكرة الشعورُ بضرورةِ كتابةِ القرآنِ وتدوينه. فلولا مفاسدُ الحفّاظِ لَمَا ألحَّ عُمرُ بن الخطابِ على أبي بكر الصديق في الإسراع على جمْعِ القرآن وتدوينهِ، ولَمَا تجرّأ عثمانُ على تأليفِ اللجانِ لوضْعِ مصحفٍ واحدٍ وإحراقِ سائرِ المصاحف بالرّغم من انتسابِها إلى خيرِ الصحابة! فلولا اختلافُ الحفّاظِ، وموتُ الكثير منهم، وتعدّدُ المصاحفِ، وكثرةُ الاحرفِ والقراءات... لما أقدَم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمانُ بن عفّان على صنعٍ ما لم يصنعْه رسولُ الله!!!

خاتمة الفصل الرّابع

ما زالت معجزات الوحي والتنزيل تتوالى: فمن معجزةِ تنزيل القرآن من اللّوح المحفوظ؛ إلى معجزةِ وحيه على محمّد منجّماً؛ إلى معجزةِ حفظِه بالرغم من مشاغله ونسيانِ بعض آياته، أحياناً. وتدخّلِ الشيطان مرارا؛ الى معجزةِ حفظِ الصحابةِ رغم كثرتهم واختلافاتهم السياسيّة والقَبليّة والاجتماعيّة والثقافيّة... وإلى الكثير غيرها من معجزات مستمرّة.

نحنُ من المؤمنين بأنّ اللهَ القديرَ لن يبخلَ علينا بمعجزة، ولن تُعجزَه الحِيْلَةُ في الحفاظ على سلامةِ كلامِه الإلهيّ. ولن يتركَ كتابَه عرضةً لأهواءِ صحابةٍ قد تتحكّمُ بهم نزعاتُ أعرابٍ يُحرقون مدينةً بأمِّها وأبيها في سبيلِ كلمةٍ صدفتْ على لسانهم. فكيفَ بهم وهم في سبيلِ الدفاعِ عن كلامِ الله!!!

ثمّ لو كانتْ مهمّةُ جبريل محدّدةً في زمنٍ معيّنٍ لَهَانَ الأمرُ، ولكنّه مُلزَمٌ من قِبَلِ رسالته الإلهيّة، ومهمّته في الوحيِ بأن يستمرّ في عمله. وتعلّقنا به يُلزمُه بأن يبقى معنا حتّى النّهاية، وكذلك قدسيّة الكتاب الذي يقوم على صيانته من التحريف وحفظه من كلّ تحريف وتزييف...



الفصل الخامس

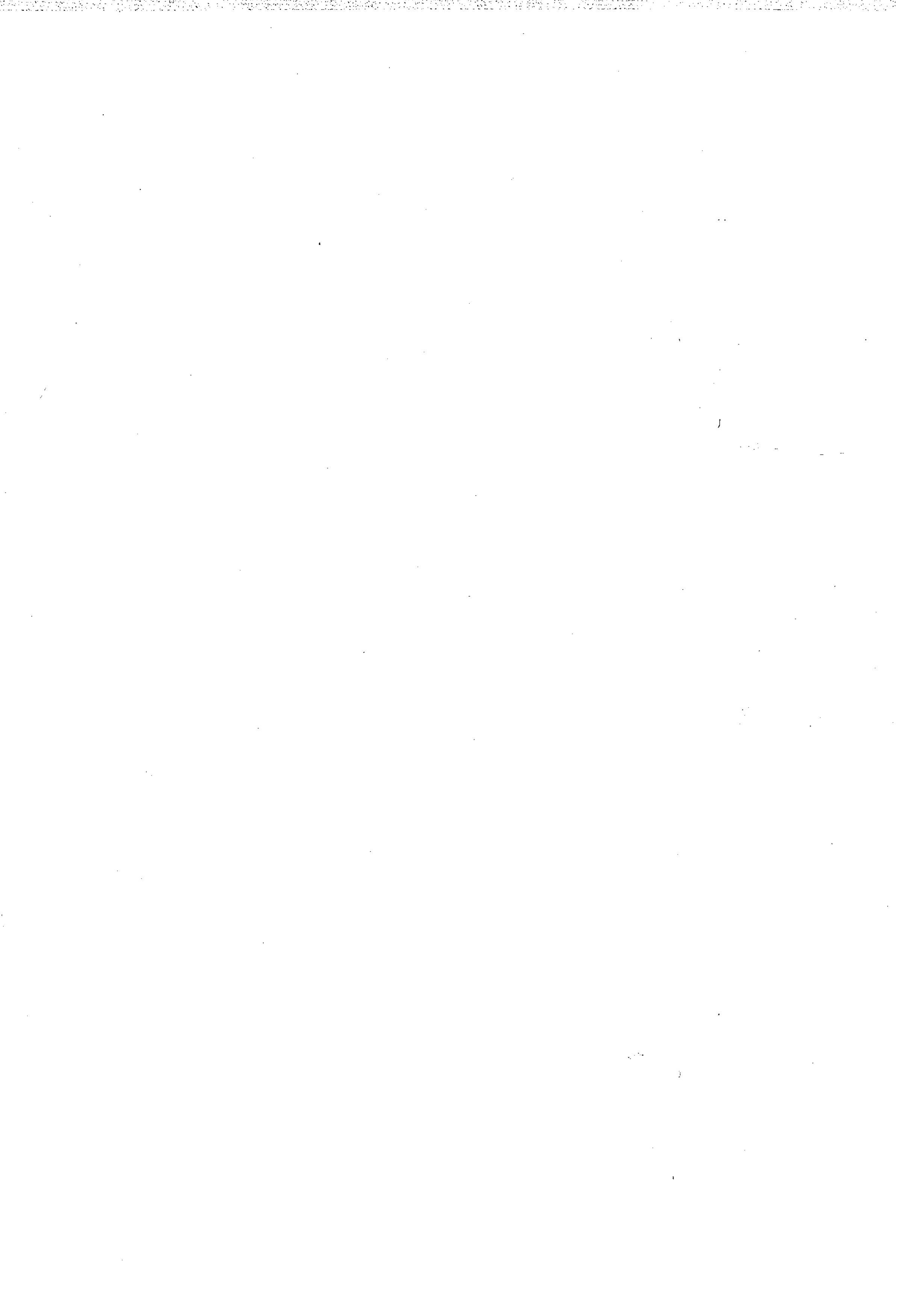
مُعجزة جَمْع القرآن وتَدْوِينه

أوّلاً – جمع الرّسول للقرآن

ثانياً – مصادر القرآن في التّاريخ

ثالثاً – جمع أبي بكر للقرآن

رابعاً – مصحف عثمان



مقدّمة الفصل الخامس

يُجمع المسلمون على أنّ «القرآنَ كُتِبَ كلُّه في عهدِ رسول الله، ولكن غيرُ مجموعٍ في موضعٍ واحد، ولا مرتّبُ السور»(١). ويُجمعون أيضا على القولِ بأنّ القرآنَ جُمِعَ ثلاثَ مرّات: أولاها بحضرة النبيّ، والثانية بحضرة أبي بكر الصديق، والثالثة في عهدِ عثمان بن عفّان(٢).

ولكن، كم من الأسئلة تُطرح في هذا المجال! وكم من علاماتِ استفهامٍ يَرْسِمُها المتبصّرُ بأمور الوحي! وكم من صعوباتٍ باتتْ لا تخضع لمسلّماتِ الإيمانِ والعلومِ الدينيّة!

هل كُتِبَ القرآنُ كلُّه في عهدِ النبيّ، أم بعضُه؟ وما هو هذا البعض؟ ومَن كتبه؟ ومتى كُتِبْ؟ وإذا كان النبيّ «أمّيّا» لا يعرفُ القراءةَ ولا الكتابةَ، فهل الذين سمِعوا القرآنَ مِن فم الرسولِ كانوا يكتبونه حرفيّاً، أم انّ خلافاً بين كاتب وآخر حدث؟ وهل حدثَ ذلكَ بعلمِ الرسولِ أم بجهلِه؟ ثم هلْ رُتِّبتْ سُوَرُ القرآنِ وآياتُه أيّامَ محمّد، أم أنّها من عملِ الصحابة؟ والمسلمون يقرّون بترتيبٍ زمنيٍ للقرآن يَختلفُ عن ترتيبه عمّا هو في المصحف!!!

وهناك سؤال آخر يمكننا افتراضُه، وقد يكوُن مناسبا أكثر من سواه، وهو : هل يُعقَل أن يكونَ للقرآن مصدرٌ غير "اللّوح المحفوظ" الذي منه نزل القرآن، كما يعتقد المسلمون؟ أي هل يمكننا أن نجدَ في التّاريخ مرجِعاً أخذ منه

---

(١) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ١/٥٧ .

(٢) المرجع نفسه، ١/٥٧ و ٥٩ .

القرآن؟ وما هو هذا المرجع؟ وأيـن هو؟ مَن كتبه؟ من كان يعـتمدُه؟.. واذا ثبتَ ذلك، أيكونُ قـرآنُ محـمّد ترجـمةً له ؟ ومـا هو مَـدى مطابقةِ هذه التـرجمـة للأصل؟ وهل يتـعيّنُ لدينا هذا الأصل؟ وبأيّةِ لـغةٍ كان؟ ومَـن وضَعَه بلـسانٍ عربي مبين، في حالِ كان بلغةٍ أعجميّة؟

ثمّ مـا هي نيّات الذين اسـتجـمعوا قِـواهُم، وألّفـوا اللّجان، واخـتـاروا الرِّجال، ومَـوّلوا المشروع، وتجـرّأوا على إحراقِ الكتب والمصـاحف... ما هي نيّـاتهم في جَمْعِ الـقرآن في مـصحفٍ واحـد؟ هل كـان في البالِ وضعُ حـدٍّ للخلاف؟ أم هي محـاولةٌ لصدِّ خلاف؟ وما وراءَ ذلك؟ هل هو توحيدُ العـقيدة والشريعة، ومِن ثمّ توحيدُ الشِيَع والأحزاب والقبائل والعشائر والعصبيات؟؟؟

إنْ ثبُتَتْ عـمليّةُ التوحيـد هذه يكونُ المسلمون الأوّلون قامـوا بمشروعٍ يستحقّون عليه تهنئَة الأجيـالِ.. ولكن، هل بتمزيقِ مصاحفِ الصحابةِ يُقضى على التشيّعِ والتحـزّب والعصبية؟ يقول لنا المخـبرون: ما ان توفيّ النّبيّ حتى اختلفَ المسلمون: «وأوّل خلافٍ وقع منهـم اختلافُـهم في موته، فـزعَم قومٌ منهم انّه لم يمتْ... ثم اخـتلفوا بعـدَ ذلك في موضـعِ دفنِه، فـأرادَ أهْل مكةَ ردَّه الى مكّة، وأرادَ أهلُ المدينة دفنَه بها... ثم اختلفـوا بعد ذلك في الإمامة... ثم في مَن يَرثُ الأنبياءَ... ثمّ في وجوب مقاتَلَةِ مانِعي الزكاة»...الخ[٣]. بعد ذلك افترقَ المسلمون ثلاثا وسبـعين فرقة. ثمّ تقسّموا دُوَلاً ودويلاتٍ وأحـزابًا وأشتاتا... ولم يزلِ الخلافُ قائما فيـهم الى اليوم. هذا واقعٌ يجب أن يُعالجَ في الأساس، أي يُبـحَثُ منذُ أنْ شـرعَ النّبيُّ والخلفـاء الرّاشدون بجـمع القـرآن وتدوينه. فلننظر:

---

(٣) البغدادي، الفَـرْق بين الفِرَق، ص ١٤، «في بيان كـيفيّة اخـتلاف الامّة وتحصـيل عدد فرقها الثـلاث والسبعين»، وأيضا : مقالات الاسـلاميين للاشعري، ص ٣٤ وما بعدها، ثم التبصير للإسفرائيني، ص ١٢ وما بعدها، والبدء والتاريخ للمطهر المقدسي / ١٢١ ٢٥ وما بعدها، والملل والنحل للشهرستاني١ / ٢١، وما بعدها ... الخ.

أوّلاً – جمعُ الرّسول للقرآن

في إيمان المسلمين، إنّ «القرآن كان يُدَوّن، وتُرتّب آياتُه وسُوَرُه في حياةِ محمّد وبأمرِه»[٤]. وذلك عندما «اتّخذَ النبيّ (ص) كتّابًا للوحي... وكان يأمرُهم بكتابةِ كلِ ما يَنزِلُ من القرآن، حتى تُظاهِرَ الكتابةُ جَمْعَ القرآنِ في الصدور»[٥]. وكان يأمرُهم بترتيبِ السُوَرِ بعضِها إثر بعض، وبوضعِ الآياتِ في مكانِها من السور. وبذلك يكونُ ترتيبُ القرآن «تَوقيفيًا» أي وَقْفًا على النّبيّ، لا «تَوفيقيًا»، أي باتفاقِ الصحابة.

وعلى هذا المعتقد الاسلامي رواياتٌ ورواياتٌ في كتبِ الاخبار والأحاديث النّبويّة: لقد أخرجَ الحاكم بسَنَد شرطِ الشيخَين، عن زيد بن ثابت، قال: «كنّا عندَ رسول الله (ص) نُؤلّفُ القرآنَ من الرقَاع». وقد علّقَ البَيْهقي على هذا القول بقوله: «يُشْبِهُ أن يكونَ المُرادُ به تأليفَ ما نَزَلَ منَ الآياتِ المفرّقَةِ في سُوَرِها، وجَمْعَهَا فيها، بإشارةِ النبيّ وحضرتِه»[٦].

وروى البخاري حديثا عن فاطمة «أنّ النبيَّ أسَرَّ اليها بأنّ جبريلَ يُعَارِضُه (أي يعرض عليه) بالقرآنِ كلَ سنة، وأنّه عَارَضَه في العامِ الذي تُوفِي فيه مرّتين وقال لها: ولا أراهُ الاّ حَضَرَ أجَلي»[٧].

---

(٤) محمد عزّة دروزة، القرآن المجيد، ص ٦٤.

(٥) الدكتور الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٦٩ .

(٦) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ١/ ٥٧ .

(٧) المرجع نفسه، ١/ ٥٠، وقد اخرجه أيضا ابن اشتة عن ابن سيرين.

وقال البغوي في شرح السنّة : «يُقال ان زيد بن ثابت شهد العُرْضَةَ الاخيرة التي بيّنَ فيها ما نُسِخَ وما بَقي، وكتَبها لرسولِ الله، وقرأها عليه، وكان يُقرئُ الناسَ بها حتى مات. ولذلك اعتمدَه أبو بكر وعمر في جَمْعِه، وولاّهُ عثمانُ كتْبَ المصاحف»[٨].

«هذا يفيد أنّ النبيّ كان يستعرِضُ القرآن جميعَه في رمضان، وأنّه استعرَضَه مرّتين في رمضان الأخير، وأنّ المصحَفَ الذي كتَبهُ زيدٌ في عهد أبي بكر انّما كانَ وفاقًا لذلك نصّاً وترتيبا»[٩].

وثَمّةَ روايات لا حصرَ لها في ترتيب السّورِ والآيات كما هي اليوم في القرآن، على أنّها توقيفٌ من النبي. والمسلمون يُجْمِعون «على أنّ ترتيبَ الآياتِ توقيفيٌ لا شبهةَ في ذلك»[١٠]. وقد رَوى الزركشي : «أمّا الآياتُ في كل سورةٍ، ووضعُ البسملة أوائِلَها، فترتيبُها توقيفيٌ بلا شكٍّ ولا خلاف فيه»[١١].

وعن الامامِ أحمد، وابن أبي داود، والترمذي، والنسائي، وابنِ حيّان، والحاكِم، عن ابن عبّاس، عن عثمان قال: «فكانَ (الرسول) اذا نَزلَ عليه شيءٌ دعا بعضَ مَن كانَ يكتبُ له، فيقول : ضَعُوا هذه الآياتِ في السورةِ التي يُذْكَر فيها كذا ...»[١٢] .

وكذلك أخرج أحمد عن عثمان بن أبي العاص، قال: «كنت جالسًا عند رسول الله (ص) اذ شَخَصَ ببَصَرِه، ثمّ صوَّبَه، ثمّ قال : أتَاني جبريلُ، فأمرَني أن أضعَ هذه الآيةَ هذا الموضعَ من هذِه السورة...»[١٣]. وعن القاضي

---

(٨) السيوطي، الاتقان ١/ ٥٠.

(٩) محمد دروزة، القرآن المجيد، ص ٦٩ – ٧٠.

(١٠) السيوطي، الإتقان ١/ ٦٠ .

(١١) الزركشي، البرهان في علوم القرآن ١/٢٥٦.

(١٢) السيوطي، الاتقان ١/ ٦٠.

(١٣) السيوطي، الاتقان ١/ ٦٠.

أبي بكر في الانتصار : «لقد كانَ جبريلُ يقول : ضَعُوا آيةَ كذا في موضع كذا»[١٤]. وأخرج البخاري عن ابن الزُبَيْرِ عن عثمان قالَ : «لا أُغَيِّرُ شيئًا من مكانِه»[١٥].

وقال القاضي أبو بكر : «الذي نذهبُ اليه انَّ جميعَ القرآن الذي أنزَلَهُ اللهُ وأمرَ بإثباتِ رَسْمِه ولم يَنسخْه ولا رَفَعَ تلاوتَه بعدَ نزولِه، هو هذا الذي بينَ الدَّفتَين الذي حواه مصحفُ عثمان، وأنَّه لم يَنقُصْ منه شيءٌ، ولا زِيدَ فيه، وأنَّ ترتيبَه ونَظْمَه ثابتٌ على ما نَظَّمَهُ اللهُ تعالى ورَتَّبَهُ عليه رسولُه من آي السُوَر، لم يُقدَّمْ من ذلك مؤخَّر، ولا أخِّر منهُ مقدَّم، وأنّ الأمّةَ ضَبَطتْ عن النبي (ص) ترتيبَ آيِ كلِّ سورةٍ ومواضعَها، وعَرفتْ مواقعَها». وبهذا المعنى أيضا نَقَل البَغَوي في شرحِ السنّة، وابن حصّار، وغيرهم[١٦].

***

ولكن، إذا كنّا نجدُ اختلافًا في ترتيبِ الصحابةِ لمصاحفِهم الخاصّة، فهذا، بحسبِ الشيخ صبحي الصالح «كانَ اختيارًا شخصيًا، لم يحاولوا أن يُلزِمُوا به أحدًا... إذ لم يكتبوا تلكَ المصاحفَ للناس، وانّما كتبوها لأنفسِهم»[١٧]. والرأي الرّاجح عند المسلمين كافّة هو أنّ النبيّ «اهتمَّ بكتابة القرآن، وأنّ القرآنَ كُتِبَ في عهدِه وحَضرتِه بكلِ إتقانٍ وضبط»[١٨]. و«ترتيبُ السُوَرِ، ووضعُ الآياتِ مواضِعَها انّما كانَ بالوحي . كان رسولُ الله يقول : ضَعُوا آيةَ كذا في موضعِ كذا. وقد حصلَ اليقينُ من النقل المتواترِ بهذا

---

(١٤) المرجع نفسه، ١/ ٦١ .

(١٥) المرجع نفسه، ١/ ٦٠، صحيح البخاري ٦/ ٢٩ .

(١٦) انظر السيوطي، الاتقان، ١/ ٦١ – ٦٢.

(١٧) الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ٧١.

(١٨) الزنجاني، تاريخ القرآن، ص٤٣.

الترتيب»[١٩]. واذا كان للصحابةِ من سعيٍ فهو يعودُ الى جمعِ القرآنِ من المصاحفِ وصدورِ الرجال، لا في كتابتِه وترتيبِه وجمعه.

ويبدو، بحسب المسلمين، أنّ جَمْعَ القرآنِ لم يتمّ في عهد النبيّ بسببِ انتظارِ محمّد آياتٍ جديدةً تنزلُ عليه. لهذا «لم يُكْتَبْ في عهد النبي مصحفٌ لئلا يُفضى الى تغييرِه في كل وقت. فلهذا تأخرتْ كتابتُه الى أنْ كَمُلَ نزولُه بموتِه»[٢٠]. وهذا معنى قولِ زيد بن ثابت : «قُبِضَ النبيُّ (ص) ولم يكنِ القرآنُ جُمِعَ في شيء»[٢١]. وبهذا المعنى قال الخطابي : «انّما لم يَجْمَع النبيُّ القرآنَ في المصحفِ لما كانَ يترقبُّه من ورودِ ناسخٍ لبعضِ أحكامه، أو تلاوتِه. فلما انقضَى نزولُه بوفاته ألْهَمَ اللهُ الخلفاءَ الراشدين ذلك، وفاءً بوعدِه الصادقِ بضمانِ حفْظِه على هذه الأمّة. فكان ابتداءُ ذلك على يدِ الصدّيق بمشورةِ عمر»[٢٢]. وفي ذلك أيضا قال السيوطي : «إنّ القرآنَ كُتِبَ كلُّه في عهدِ رسولِ الله (ص)، لكن غيرُ مجموعٍ في موضعٍ واحدٍ، ولا مرتَّبِ السُوَر»[٢٣].

هذا الإشكال الضخم، إشكال جمْع القرآن، إنْ كان من النّبيّ أو من الصحابة، لا يحلّه إلاّ النظر في مصادر القرآن. أي: هل كان القرآن، حقّاً، قبل محمّد؟ فأين كان؟ في "اللّوح المحفوظ"، كما يقول المسلمون كافّة، أم في "صحف إبراهيم وموسى"، وغيرها، كما يشهد هو على نفسه؟ فلننظر.

---

(١٩) السيوطي، الاتقان ١/٦٢.

(٢٠) الزركشي، البرهان في علوم القرآن ١/٢٦٢.

(٢١) السيوطي، الاتقان ١/٥٧.

(٢٢) المرجع نفسه ١/٥٧.

ثانياً - مصادر القرآن في التّاريخ

ليستِ المشكلة، كما يتصوّرها المسلمون، في جمعِ القرآن وحفظِه وتدوينه؛ بل المشكلة في إمكانيّةِ وجودِه على الأرضِ قَبْلَ محمّد. أي وجودِه، لا في «اللوح المحفوظ»، كما يقول المسلمون؛ بل في مصادرَ تاريخيّةٍ نُقِلَ القرآنُ عنها. والحقيقة، إنّنا لن نعتمدَ إلاّ على القرآنِ نفسه لنقولَ ما نتجرأُ على قوله. والقرآن نفسُه يعترفُ بأنَّ له مصادرَ أَخذَ عنها واستَنَدَ اليها واستقَى منها :

١- يقول القرآن إنّه كان موجوداً في الصُحُفِ الأولَى، صحفِ إبراهيم وموسى. وعلماءُ بني اسرائيلَ يَعلمونَ ذلك تمامَ العلم. قال : "انّ هذا (القرآن) لَفي الصُحُفِ الأولى، صُحُفِ إبراهيم وموسى»[٢٤]. وقال أيضاً : «أولَمْ يُنَبَّأْ بما في صُحُفِ موسى وإبراهيم الذي وَفَّى... نَذيرٌ من النُذُرِ الأُولى »[٢٥]. وقال: «إنّه لَتنزيلُ ربِّ العالَمين، على قلبكَ لتكونَ من المُنذِرين، بلسانٍ عربيٍّ مُبين. وإنّه لَفي زُبُرِ الأوّلين. ألم يكنْ لهم آيةٌ أن يَعْلَمَه علماءُ بني اسرائيل»[٢٦]؛ أي، كما جاء في تفسير الجلالَين: «إنّ ذِكرَ القرآنِ المنزَلِ على محمّد لفي كُتبِ الأوّلين، كالتوراةِ والإنجيل»[٢٧]...

٢ - يعترِفُ القرآنُ أيضاً بأنَّ له «إمامًا » سابِقا عليه، هو كتاب موسى. والقرآن "مِثْلُهُ" و"مُصدقٌ" له. قال: «وشهدَ شاهِدٌ من بني إسرائيل على مِثْلِه، فآمنَ واستكبرتُم... وإذا لم يَهْتَدُوا به فسيقولون: هذا إفْكٌ قديمٌ... وَمِنْ قَبْلِه

(٢٣) المرجع نفسه ١/٥٧.

(٢٤) سورة الاعلى ٨٧/١٨ - ٨٩، انظر سورة طه ٢٠/١٣٣.

(٢٥) سورة النجم ٥٣/٣٧-٤٠ و ٥٦ .

(٢٦) سورة الشعراء ٢٦/١٩٦، انظر ٥٤/١٧و ٢٢ و ٣٢ و ٤٠ و ٥١ - ٥٣.

كتابُ موسى إمَاماً ورحمةً. وهذا كتابٌ مصدِّقٌ: لسانًا عربيًا، لِيُنْذِرَ الذينَ ظَلَموا، وبُشرَى للمحسنين»[٢٨]. وقال أيضا: «أفمن كان على بيّنةٍ من ربّه، ويتلوه شاهِدٌ منه، ومن قَبْلِه كتابُ موسى إمامًا ورحمة. أولئك يؤمنون به... فلا تكُ في مريةٍ منه. إنّه الحقُ من ربّك»[٢٩].

٣ – ويعترفُ القرآنُ بأنّه ذكرٌ من اللهُ مُحْدَثٌ: فيه ذكرُ الأوّلين وقَصَصُهم وتعاليمُهم. وما هو الاّ تذكيرٌ لما أتَوا به. قال : «لقد أنزلنا إليكم كتابًا فيه ذكُركم، أفلا تعقلون؟.. وما يأتيهم من ذكرٍ من ربّهم مُحْدَث... فاسألوا أهلَ الذّكر إنْ كنتم لا تعلمون... هذا ذكرُ مَن معي وذكرُ مَنْ قَبْلِي...»[٣٠].

٤– ويستشهدُ القرآنُ بأهلِ الكتابِ وبعلمِهم ومعرفتِهم بالكتب، وهو يسألُهم عن صحّةِ ما فيه، ويدعو أ تباعَه لأن يسألوهم بدورِهم ليكونَ في نفوسِهم اطمئنانٌ. قال: «فاسألوا أهلَ الذكرِ ان كنتم لا تعلمون»[٣١]. وقال أيضاً: «فاسألوا أهلَ الذّكر إنْ كنتم لا تعلمون بالبيّناتِ والزُبُر. وأنزلنا إليكَ الذّكرَ لتبيّنَ للناسِ ما نُزِّلَ إليهم. ولعلهَّم يتفكّرون»[٣٢]. وقال: «فان كنتَ في شكٍّ ممّا أنزلنا اليكَ فاسألِ الذينَ يقرأون الكتابَ مِن قَبْلِكَ» (١٠/ ٩٤).

٥– ويبدو انّ أهلَ الكتاب هم على مُستوى اطمئنانِ المسلمين في الردّ على سؤالهم. فهم يعرفون القرآنَ تمامَ المعرفة ، يعرفونه كما يعرفون كتابَهم الذي بين أيديهم، ويعرفونه كما يعرفون أبناءَهم. قال: «الّذين آتيناهم الكتابَ يعرفونه كما يعرفونَ أبناءَهم»(٦/ ٢٠). وقال: «والّذي أوحينا اليكَ مِنَ الكِتابِ

(٢٧) تفسير الجلالين على ٢٦/ ١٩٦.

(٢٨) سورة الاحقاف ٤٦/ ٩ – ١٢ .

(٢٩) سورة هود ١١/ ١٧، انظر السجدة ٣٢/ ٢٣ – ٢٤ .

(٣٠) سورة الانبياء ٢١/ ٢ و ١٠ و ٢٤ و ٢٥ .

(٣١) سورة الانبياء ٢١/ ٧ وما بعد.

هو الحقُّ مُصَـدِّقًا لما بين يديه... ثم أورثنا الكتـابَ الذي اصطفينا من عـبادِنا» (٣٥/ ٣١)، ويوضـح : «أورثـنا بني اسـرائـيلَ الكتـــابَ»(٤٠ / ٢). و«الذينَ آتيناهم الكتابَ يعلمونَ أنّه مُنْزَلٌ من ربِّكَ بالحقِّ» (٦/ ١١٤).

٦- ويبدو أيضا أنّ القرآن هو «تصديقٌ» للتوراة والإنجيل. ومرارا ذكّر مـحمّـد بذلك: «إنّي رسـولُ الله إليكم مُـصدِّقـاً لما بينَ يديَّ من التـوراة» [٣٣]. والكتابيون يعـرفونَ ذلك تمامَ المعرفة «لمّا جاءَهم كتـابٌ من عندِ الله مصدِّقٌ لما مـعهم»(٢/ ٨٩ و٩١). ويدعـوهم القـرآنُ بقوله: «يا أيّهـا الذين أوتُوا الكتـابَ آمِنوا بما نَزّلْنا مُـصدِّقاً لمـا معكم»[٣٤]. وهكذا يظهـرُ القرآنُ بكل وضـوحٍ بأنّه تصديقٌ للتـوراةِ والإنجيل، فيـكونُ الإنجيلُ، كالتـوراة، مصدَرًا من مـصادِرِهِ التي لا يتنكّرُ لها أحدٌ من المسلمين الواعين.

٧- ومن جملة الإشارات إلى مـصادر القرآن قولُه بأنّه كتـابٌ مترجَمٌ عن «كتـابٍ (أعجمـي) «فُصِّلَتْ آياتُه قرآنًا عـربيّاً» (٤١ /١)، و«كـتابٌ أحكِمَتْ آياتُه ثمّ فُصِّلَتْ من لدنِ حكيمٍ خـبير»(١١ /١). وممّا يشير إلى وجـودِ مصدرٍ أعجميٍ للقـرآن هو تمنّي العرب أن يكونَ لهم كتابٌ بلغـتِهم، وتلبيةُ مـحمّد (؟) لهـذا التـمنّي، من قولـه : «ولو جعلنـاهُ قرآنًا أعـجـميّـا، لقـالوا: لولا فُـصِّلَتْ آياتُه!»[٣٥]... فيكونُ القرآنُ العـربي «تفصيلَ الكتابِ (الأعجـمي)، لا ريبَ فيه» (١٠/ ٣٧).

٨- وفي وصفِ القـرآنِ نفسَه بأنّــه قرآنٌ عربيٌ دلالةٌ علـى أنّه قراءةٌ عربيــةٌ لكتابٍ هو في الأصلِ بغيرِ لغــة العرب. وقد وُضِعَ بلسانٍ عـربيٍّ مُبين، ليعـقلَهُ العرب: «وأنزلناه قـرآنًا عربيـا لعلّكم تعقلون»(١٢ /٢)، و«إنّا جـعلناه قـرآنًا عربـيّا لعلّكـم تعقلون. وإنّــه في أمِّ الكتاب لـدينا»(٤٣ /٣)، وليتـبـيّنوا

---

(٣٢) سورة النحل ١٦/ ٤٣ - ٤٤.

(٣٣) سورة الاحقاف ٤٦/ ٣٠، انظر: ٣/ ٥٠، ٥/ ٤٦ الخ...

(٣٤) سورة النساء ٤/ ٤٧. انظر كتاب قس ونبي، ص ٧٦ - ٧٧.

تفاصيلَه: «كـتابٌ فُصِّلتْ آياتُه قرآنًا عـربيا لقومٍ يعلمون»(٤١/٣)، ويتـعَرّفوا على أخباره وقَصَصِـه: «نحنُ نقصُّ عليك أحسنَ القَصَص بما أوحينَا اليكَ هذا القرآن»(١٢/٣)، ويهـتدوا به من كلِ عِـوَجٍ وضلال: «وقرآنًا عـربيًا غـيرَ ذي عِوَجٍ لعلّهم يتّقون»[٣٦].

٩- هذه الإشارات السريعة تفيدنا بأنّ للقـرآنِ العربيِّ مصدرًا في غيرِ لغة العرب. بل إنّ هذا المصدر هو القرآنُ الأعجمي الذي نرى له في كتبِ السيَر إسـمًا لامِـعـاً، وفي تاريخِ الكتـابِ المقدس وتـاريخِ الكنيـسة إسمَ «الانجـيل العبراني»، الذي كـانَ القسُّ ورقة بن نوفل، ابنُ عمّ خديجة، يَنْقُـلُه الى العربيّةِ بحَضرة النبيِّ محمّد[٣٧].

١٠- ولكنَّ في القرآن العربي إشاراتٍ الى مقتَبَسَاتٍ أخرى ، لا نجدُها في «الإنجيلِ العبراني»؛ إنّما العـارِفُ بالتاريخِ الكنسي وبعلومِ الكتابِ المقدس، في عهدَيه القديم والجديد، يعلَم تمامَ العلم أنّ القرآنَ اعـتمدَ عليها، وأَخَذَ منها، واقتَـبَسَ عنهـا. كمـا نجدُ تقالـيدَ منتـشرةً على ألسنةِ المرسَلين والوعّـاظِ في جزيرة العـرب، استلهمهـا القرآن وسجّلهـا على صفحـاته. وعلى ذلك مراجع كثيرة[٣٨].

بعد هذه الإشارات إلى مصادرِ القرآن، من الـقرآن نفسه، ماذا يَبقى من قولِ أهل الأخبار والمحـدِّثين بأنَّ القرآنَ جُمِعَ كلُّه في عهدِ محـمّد! أليسَ، في ما

---

(٣٥) سورة فصّلت ٤١/ ٤٤. انظر «قسّ ونبيّ» ، ص ٧٥ - ٧٦ .

(٣٦) سورة الزمّر ٣٩/ ٢٨ . انظر : قسّ ونبيّ، ص٧٤ - ٧٥ .

(٣٧) انظر كتاب قسّ ونبيّ حيث يعالج موضوع الإنجـيل العبراني وصلته بالقرآن العربي. وفيه قصّة مصادر القرآن المباشرة..

(٣٨) د. فلهلم رودلف، صلة القرآن باليهودية والمسيحية، ترجمة عصام الدين حفني ناصف، دار الطليعة، بيروت ١٩٧٤.

D. Masson, Monothéisme coranique et monothéisme biblique. Doctrines comparées. DDB 1976.

Tor Andrae, Les origines de L'islam et le christianisme, Adrien-

رأينا، دلالةٌ على انّه كانَ مـوجوداً قَبْلَ مـحمّد ! ؟ ولكنّ رغـبةَخَلْطِ تاريخِ الله بتاريخِ البشر جعلتِ الناسَ مطمئنّين لمعـجزاتٍ يُحدِثُها اللهُ في كلِّ شـيء. وفيما الناسُ تُعوِزُهم معجزةٌ، جعلوا اللهَ لا تُعجِـزُه معجزة. بهٰذا يطمئنُ كلْ حَيرانٍ، ويستريحُ كلُ ذي بالٍ قَلِقٍ.

Maisonneuve, 1955...

ثالثاً – جمع أبي بكر الصديق للقرآن

في السنة الأولى من خلافةِ أبي بكر الصدّيق، ظَهَر مُسَيلَمة النبيّ الكذّاب باليَمامة، فجهّزَ أبو بكر لقتالِه جيشًا من المسلمين، وفيهم كثيرٌ من القرّاء والحفّاظ، فَقُتِلَ مُسَيْلَمة، واشتد القتلُ على قرّاءِ القرآن، حتى قُتِلَ منهم أكثرُ من سبعين قارئًا، فأحسّ عمر بن الخطاب بضرورةِ جَمْعِ القرآن، ودعا أبا بكر الصديق ليفعَل[٣٩].

وجاء في سُنَنِ ابن أبي داود «إنَّ عُمَر سألَ عن آيةٍ من كتاب الله، فقيل: كانتْ مع فلان قُتِلَ يومَ اليمامة. فقال: إنَّا لله. فأمرَ بجَمْعِ القرآن. فكان أوّلَ مَنْ جَمَعَهُ في المصحف ... أي أشارَ بجمعِه»[٤٠].

وروى البُخاري عن زيد بن ثابت قال: «أرسلَ إليّ أبو بكر، بعد مقتلِ أهلِ اليَمامة، فإذا عُمَرُ بن الخطّابِ عنده؛ فقالَ أبو بكر: إنّ عُمَر أتاني، فقال: إنّ القَتْلَ استَحَرَّ يومَ اليمامةِ بقرّاءِ القرآن، وإنّي أخشَى أن يَستَحِرَّ القتلُ بالقرّاءِ في المواطِنِ (أي في سائر البلاد)، فَيَذْهَب كَثيرٌ من القرآن. وإنّي أرى أن تأمرَ بجَمْعِ القرآن. فقلتُ لعُمر: كيفَ تفعَلُ شيئًا لم يفعلْه رسولُ الله (ص). قال عمر: هُوَ واللهِ خيرٌ. فلم يَزَلْ يراجِعُني حتى شَرَحَ اللهُ صدري لذلك. ورأيتُ في ذلك الذي رأى عُمَر. قال زيد: قال أبو بكر: إنّك شابٌ عاقل، لا نَتَّهِمُكَ، وقد كنتَ تكتبُ الوحيَ لرسولِ الله (ص)، فَتَتَبَّعِ القرآنَ واجمَعْهُ. فوالله، لو كلّفوني نَقْلَ جَبَلٍ من الجبال ما كانَ أثقلَ عليَّ مّما أمَرَني به من جَمْعِ القرآن. فقلتُ:

---

(٣٩) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ١/ ٥٩.

(٤٠) المرجع نفسه، ص ١/ ٥٨.

كيفَ تفعلانِ شيئًا لم يفعلْه رسولُ الله (ص). قالَ : هو واللهِ خيرٌ. فلم يَزَلْ أبو بكر يراجعني حتى شرحَ اللهُ صدري لـلذي شرحَ اللهُ له صدرَ أبي بكر وعمر. فتتبّعتُ القرآنَ أجمعُـه من العسُبِ واللخَافِ وصدورِ الرّجال، حتى وجدتُ آخرَ سورةِ التوبةِ مع أبي خُزيمةَ الأنصاري لم أجـدْها معَ غيرِه... فكانتِ الصحفُ عندَ أبي بكر حتى توفّاه الله، ثم عند عُمر حياتَه، ثم عند حفصة بنتِ عمر»[٤١].

***

لقد استعجلَ أبو بكر وعمر في جَمْعِ المصاحف، لأنّ هناك خطرًا مُداهِمًا يتأتّى من مصاحفَ أخـرى مختلفةٍ بعضُها عن بعض. وقد كـان أصحابُها من صـحابةِ النّبيّ المشـهـورين بالعلمِ والفـضيلة، ومن أمّـهـاتِ المؤمنين اللواتي عايَشْنَ النبيّ وعرفنَه في حالاتِه الخاصّة والعامّة. وكان عددُ المصاحفِ كبيرًا، وخطرُها أكبر، والخلافُ بينها واسعًا، والثقة بها أوسع:

١- فهناك **مصحفُ سالِم** بن معقل مولى أبي حُذَيْفَة الذي حرّره النبيّ. ولكنّ سالِمًا ماتَ بعدَ النبيّ بسنة[٤٢]. وقد أخرَج ابن أشتة في كتابِ المصاحف عن ابن بريدة قال : «أوّلُ مَنْ جَمَعَ القرآنَ في مصحفٍ سَالِمٌ مَولى أبي حُذَيفة، أقسَمَ: لا يرتدي برداءٍ حتى يجمَعَه. فَجَمَعَهُ»[٤٣].

٢ – وهناك **مصحفُ عبـد الله بن عبّاس**، (+ ٦٨ هـ). لابن عباس، في الإسلام مكانةٌ مرموقة. تخصّصَ في تفسـيرِ القرآن، وكان تلميذًا لعليّ بن ابي طالب. ذُكِر له مصحف يختلف بترتيبِه عن مصاحف الصحابة[٤٤].

---

(٤١) الإتقان ١/٥٧، البرهان ١/ ٢٣٤، تهذيب التهذيب ٣/ ١٤٠ .

(٤٢) تفسير الطبري ١/٦٣ .

(٤٣) الاتقان ١/٥٨ عن كتاب المصاحف لابن أشتة .

(٤٤) انظر الاصابة في مـعرفة أسماء الـصحابة ١/ ٩٤، وانظر ترتيب مصحـفه في كتاب «تاريخ القرآن » للزنجاني، ص٧٦ .

٣ - **ومصحف عقبة بن عامر** (+ ٦٠ هـ). هو من صحابة النبي، وقد حكَم مصرَ فيما بعد. له مصحَفٌ وُجِدَ سنة ٣١٣هـ/ ٩٢٥م، ولكنّه لم يعدْ يوجَد اليوم[٤٥].

٤ - **ومصحف المقداد بن عمر** (+٣٣ هـ) من صحابة النبي المشهور بتقواه وشجاعته. لقد كان مصحفُه منتشِرًا في حمص بسوريا[٤٦].

٥ - **ومصحف أبي موسى الأشعري** (+٥٢هـ) من شيعةِ علي. أنتشر مصحفُه في بصرى. وكان شبيهًا الى حدٍّ بعيد بمصحَفي ابنِ مسعود وأبيّ ابن كعب. عُرِفَ بمخالفته لمصحفِ عثمان الإمام[٤٧].

٦- **ومصحف أُبَيّ بن كعب** (+ ٢٣ هـ) من المدينة. استخدَم النبيُّ أُبيًا لتدوينِ الوحي، ولكتابةِ الرسائلِ الى القبائلِ. اشتهرَ باتّقادِ ذاكرته، وهو بين القلائلِ الذينَ حَفِظُوا كلَّ القرآن. يختلفُ بمصحفِه عن مصحفِ عثمان، بعددِ سُوَرِهِ وبترتيبِه. فيه ١١٦ سورة بدل ١١٤. والسورتان الزائدتان هما: سورة الخَلْعِ وسورة الحَفْد[٤٨].

٧ - **ومصحف عبد الله بن مسعود** (+٣٠ هـ) . نشأ راعيا، وأسلم باكِرا، وخدمَ النبي بورَعٍ. نَقَلَ عنه البخاري قولَه : «باللهِ، ليسَ من سورةٍ في الكتابِ أُوحِيتْ الاّ وعرفتُ أينَ أوحِيَتْ وبمناسبةِ مَنْ أوحِيَتْ»[٤٩]. ينقص من مصحفه سورةُ الفاتحة والمعوذتّان. ويختلف ترتيبُه عن سائر المصاحف[٥٠].

---

(٤٥) نولدكه، تاريخ القرآن، ٣/ ٩٧، حاشية١ .

(٤٦) نولدكه، تاريخ القرآن ٢/ ٢٩ - ٣٠ .

(٤٧) تاريخ القرآن لنولدكه، ٢/ ٢٨ و ٣٠ ، الانسكلوبيديا الاسلامية ٤٨٨ .

(٤٨) انظر : الاصابة ١/ ١٦، الفهرست ٤٠، الزنجاني ٧٢ حيث ترتيبه.

(٤٩) عن نولدكه، تاريخ القرآن ٣/ ٥٢٧، رابعا .

(٥٠) انظر ترتيبه في «تاريخ القرآن » للزنجاني ٧٤ - ٧٥ .

٨ - ومصحف عائشة، جمعَه لهـا مولاها أبو يونس. ورَوى عنها عروةُ ابنُ الزبير انها قـالتْ: «إنّ سورةَ الأحزابِ كانتْ تُقرأ في زمـنِ النبيّ مئتي آية. فلما كتبَ عثمانُ المصاحف لم نقدر منها إلاّ ما هو الآن»(٥١).

٩- ومصحف حفصة، جمَعهُ لها مولاها عُمر بن رافع. ولكن لا نستطيعُ ان نعرفَ عمّا اذا كان هو نفسه مصحف بن ثابت الذي أودَعه عندها أم غيره.

١٠- ومصحف علي بن ابي طالب (+ ٤٠هـ). كلّمنا عنه اليعقوبي وابن النديم والسيـوطي وغيرهم. عَرَفَ الإمـامُ محمـدُ الباقر هذا المصحفَ ونَسَـبَهُ اليه(٥٢). سمَّى عـليٌّ مصحـفَه بـ «الناسِخ والمـنسوخ»(٥٣) وقسّـمَه الى سبـعةِ أجزاء، وكلُ جزء من ١٥ أو ١٦ سورة. ولا يُستبْعَد أن يكونَ مصحفُ عليّ فاقَ سائرَ المصاحفِ لمكانة عليٍّ في الإسلام. ولا يستبْـعَدُ أيضا ان يكونَ مصحفُه مغايرًا لسائرِ المصاحفِ ومختلفًا عـنها، لاختلافِ موقفِه من مواقفِ أهلِ السنّة وجمـاعة الخلفـاء الذين اغتـصَبـوا منه الخلافة. ومن الـطبيعي أن نجـدَ لعليٍّ مصاحِفَ كثيرة تَنتَسِبُ اليه لكثرةِ الشيَعِ التي نشأتْ عنه.

والغريب في الأمر أن يشرَعَ عليٌّ، بعد مـوت النبي مباشرة، وعند بيعة أبي بكر ، بجـمعِ الـقـرآن! والغـريبُ أيضـا ان يَرى عليٌّ، منذ تلـكَ اللحظة، أنّ القرآنَ يُحَرَّفُ فيه ويُزَادُ عليه. قال عكرمة : «لمّا كانَ بعدَ بَيعَةِ أبي كبر، قعد عليٌّ بنُ أبي طالب في بيـته. فقـيل لأبي بكر: قد كَـرِهَ بَيْعَـتَكَ. فأرسلَ اليـه وقالَ: أكَرِهْتَ بَيـعَتي؟ قال: لا والله. قال: مـا أقعدكَ عنّي ؟ قال: رأيتُ كـتابَ اللهُ يزادُ فيه، فحدّثتُ نفسي أن لا ألبَسَ ردائي إلاّ لصـلاةِ حتى أجمَعَهُ. قالَ له أبو بكر: فانّكَ نِعْمَ ما رأيت».(٥٤)

---

(٥١) السيوطي، الاتقان ٢/ ٢٥ .

(٥٢) تفسير القمي، ٤١٩ - ٤٢٠ .

(٥٣) الاتقان ١/ ٥٨ .

(٥٤) السيوطي، الاتقان ١/ ٥٧ - ٥٨ .

وعن ابن أبي داود قال: «سمعتُ عليّاً يقول: أعظمُ الناس في المصاحفِ أجرًا أبو بكر، رحمةُ الله على أبـي بكر، وهو أوّلُ من جَمَعَ كتابَ الله»[٥٥]. وعن ابن سيـرين قال: «قالَ عليّ لمّا ماتَ رسـولُ الله، آليتُ أن لا آخذَ عليَّ ردائي إلاّ لصلاةِ جُمْعَة حتى أَجْمَعَ القرآنَ. فَجَمَعْتُهُ»[٥٦].

***

أمّا نحن فلنا حول هذه المعطياتِ أكثرُ من تساؤل:

١. لماذَ يُشيدُ المحدِّثون برضى عليٍّ على صنيعِ أبي بكر وعمر؟

٢. هل يُعـقَل أن يباشِـرَ عليّ بوضـعِ القرآن ولم يَمضِ على مـوت النبيّ ساعات؟

٣. وهل منذ هذه اللحظة ابتـدأتِ الزياداتُ تَظهَرُ في القرآنِ حـتى يقولَ عليٌّ « رأيتُ كتابَ اللهِ يُزاد فيه»؟

٤. واذا كانتْ غَـيرَةُ عليٍّ كـبيرةً الـى هذا الحدّ، فلماذا لم يأخـذْ أبو بكر وعمر بمصحَفِه ؟

٥. ولماذ فضّلَ أبو بكر وعمر مـصحفَ زيد بن ثابت على مصحفِ عليّ؟ وعليٌّ هو المسلمُ الأوّل والمجاهِدُ الأكـبر، ابنُ عمِّ النبيّ وصهرُه وربيُـه وحاملُ لواء الإسلام!!

٦. ثمّ ما الذي دفَع أبا بكر الصدّيق وعمر بن الخطّاب الى جَمْعِ القرآن؟

٧. ولماذا اختارَا زيدًا بنَ ثابت لهذه المهمّة؟ والمعروفُ أنّ زيدًا لم يزلْ في بطنِ أمّه عندما ابتـدأ النبيُّ بالرسالة والنبوّة؟ بل إنّ عُمْـرَ زيدٍ لم يكنْ أكثرَ من

---

(٥٥) المرجع نفسه، ١/٥٧ .

(٥٦) المرجع نفسه، ١/٥٧.

عَشْرِ سنين عندما هاجَرَ النبيُّ الى المدينة. فهناكَ إذاً أكثرُ مِن ثِلْثَي القرآن نَزَلَ على النبيِّ ولم يكنْ زيدٌ يَعِيهَا لِصِغَرِ سِنِّه!

٨. وما معنى قولِ أبي بكر لزيد : «إنّك شابٌ عاقِلٌ لا نتهِمُك»؟ فهل من اتّهامٍ لغيرِ زيد من كَتَبَةِ الوحي ؟

٩. ولماذا فُضِّلَ زَيدٌ على عبد الله بن عبّاس، وقد مَدَحَ النّبيُّ ابنَ عبّاس بأنّه خيرُ مَنْ عَرَفَ القرآنَ وفَسَّرَهُ، وعلى أُبَيّ بن كعب صاحبِ الذاكرةِ الوقّادة، وعلى عبدِالله بن مسعود المسلِمِ الورع؟

١٠. ولماذا وَضَعَ زيدٌ المصحفَ الذي جَمَعَهُ عندَ حفصة بنتِ عُمَرْ وزوجةِ النبي وليَس عند أم سَلَمة مثلا، أو غيرها؟

أسئلة كثيرة تخطر على البال، وليسَ عليها جواب. الإيمانُ وحده يستطيعُ نَقْلَ الجبال. ونحنُ بنقلِ الجبالِ مؤمنون. ورواياتِ أهلِ الاخبارِ غيرُ صحيحة. وأحداث التاريخ تتحوّل، على ما يبدو بالإيمان. وأهلُ الأخبار لم يعبّروا عن هذا الايمان إلاّ بعدَما يَزيدُ على المائةِ سنة من موتِ النبي. وليسَ مَن يفصلُ بين التاريخِ والإيمانِ سوى التنقيبِ في آثارِ مكّة. ولكنّ حُرْمَةَ البيتِ الحرام تمنعُ عنّا البحثَ والتنقيب. ولن يبقَى أمامَنا الاّ الايمانُ بمعجزةِ الهيّةٍ دائمة!!!

رابعاً - مصحف عثمان بن عفّان

في إيمان المسلمين، إنّ القرآنَ المتداوَلَ اليومَ قد جمعَه عثمانُ بن عفّان من الرقاعِ وصدورِ الرّجال، وقد ألّفَ من أجلِ ذلك لجنةً من عدّة قرّاء، فوضعوا ما وضعوا متّفقين. ولمّا انتهتِ اللجنةُ من أعمالِها، أمرَ الخليفةُ بنسخِ المصحفِ عدّةَ نسخ، أربعةً أو ستّةً أو سبعةً، ووزّعَ النسخَ على الأمصارِ الإسلاميّة، ثمّ أتلفَ كلَ المصاحفِ الخاصّة.

لقد باتَ كلّ شيء معدًا، الآن، إلى أن يتدخّلَ الخليفةُ الثالث عثمان بن عفّان (٢٣-٣٥هـ/ ٦٤٤-٦٥٥م) ليحسمَ موضوعَ جَمْعِ القرآنِ ببطشٍ وسلطان. زَيد بن ثابت لا يزالُ حيًّا يُرزق. والفتوحاتُ الاسلاميّة تتوالى. والقتلُ بين الصحابة يزداد. والاختلافاتُ بين القرّاء تتفاقمُ هي أيضا. والاقتتالُ بين الناس يشتدُّ بسبب هذا الاختلاف. لقد «اقتتلَ الغلمانُ والمعلمون»(٥٧)، وتوزّعَ الحفّاظُ والقرّاءُ في الشامِ والعراقِ واليمنِ وأرمينيا وأذربيجان، ولَحَنَ العربُ في لغتهِم لمجاورتِهم أممًا غيرَ عربية، أو عربيةً غير مَضَرِيَّة، وفسدتِ اللغةُ، فدخلَ فيها ألفاظٌ أعجميّة، وفُقِدَتْ منها ألفاظٌ أخرى... وكلُّ هذا دعا الخليفةَ الى التدخّلِ المباشَر، لأنّ القرآنَ أصبحَ في خَطَرِ التحريفِ والتصحيفِ...

يخبرنا البخاري في صحيحه عن ابن شهاب عن أنَس بن مالك حدّثه «أنّ حُذَيفةَ بن اليمان قَدِمَ على عثمان، قَبْلَ الذهابِ الى فَتْحِ أرمينيا

(٥٧) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ١/ ٥٩.

وأذربيجيان (سنة ٣٠هـ/ ٦٥٠م)، وقال له: «يا أميرَ المؤمنين، أدْرِكْ هذه الأمّةَ قبلَ أن يختلفوا اختلافَ اليهودِ والنصارى». فأرسلَ عثمانُ الى حفصة: أرسلي الينا الصُحُفَ ننسخُها في المصاحفِ. ثم نردُّها إليكِ. فأرسلتْ بها حفصةُ الى عثمان. فأمرَ عثمانُ زَيداً بنَ ثابت، وعبدَ الله بن الزبير، وسَعيدَ بن العاص، وعبدَ الرحمن بن الحارث بن هشام ،فنسخوها في المصاحف. وقال عثمانُ للرّهطِ القرشيِّين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيءٍ من القرآن فاكتبوه بلسانِ قريش. فانه إنّما نَزَلَ بلسانِهم. ففعلوا، حتى اذا نَسخُوا الصحفَ في المصاحفِ، ردَّ عثمانُ الصحفَ الى حفصة. وأرسلَ إلى كلِّ أفقٍ بمصحفٍ ممّا نَسَخُوا. وأمرَ بما سواه من القرآنِ في كل صحيفةٍ أو مصحفٍ أن يُحْرَق»[٥٨].

وعن أنَسِ بن مالك أيضًا قال: «اختلفوا في القرآن على عهد عثمان حتى اقتتلَ الغلمان والمعلِّمون، فبلغَ ذلك عثمانَ بن عفّان، فقال: عندي تكذِبون به وتلحنون فيه! فمن نأى عنّي كانَ أشدَ تكذيبًا وأكثرَ لحنًا. يا أصحابَ محمّد! اجتمعوا فاكتُبوا للناسِ إمَاماً. فاجتمعُوا. فكتبوا. فكانوا إذا اختلفوا وتدارؤوا في أيِّ آيةٍ قالوا : هذه أقرأها رسولُ اللهِ فلانًا. فيُرسَلُ إليه وهو على رأسِ ثلاثٍ من المدينة، فيُقال له: كيفَ أقْرأكَ رسولُ الله آيةَ كذا وكذا. فيقولُ: كذا وكذا، فيكتبونها، وقد تركوا لذلك مكاناً»[٥٩].

***

لنا حول رواية البخاري الذي «ما عَرفَ التاريخُ مَنْ يُضَارعُه في الثقةِ والضبطِ والأمانة»[٦٠] تساؤلاتٌ عديدة :

---

(٥٨) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، الباب الثاني والباب الثالث، السيوطي، الاتقان ١/ ٥٩، ابن ابي داود، ١٨ الطبري ١/ ٢٠ – ٢١ .

(٥٩) الإتقان، ١/ ٥٩ .

(٦٠) الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٧٩ .

١. لماذا زيد بن ثابت ؟ ومن المعروف أنّ بين الصحـابة وكَتَبةِ الوحي مَن هو أكثرُ ثقةً وعلمًا وبلاغةً منه؟ وأنّه لم يَسمَعْ من النبيّ نفسه سوى آيات قليلة من القـرآن؟ وأنّه، بالنسبـة الى أُبَيّ وابنِ عبّـاس وعليٍ بن أبي طالب، لا يُعْـتَدُّ بوَرَعِه أو بعلمه أو بوعيه أو بجهادِه أو برفع راية الإسلام؟ ولماذا فضّلَ عثمانُ، وقبلَه أبو بكر وعمر، أنْ يكونَ زيدٌ رئيسًـا على جمّاعِ القرآن وحفّاظه؟ ثمّ على أيّ دينٍ كان زيد؟ هل حـقّا كان يعـرفُ العبريةَ والسـريانية[٦١]، وان كان ذلك فعلا، فأين تعلّمهما؟ وعلى يدِ مَن أخذهما ؟ وهل هو من نصارى المدينة؟!

٢. ثمّ لماذا أحـرقَ عثمـانُ المصحـاف؟ وكيفَ أحـرقها ؟ هـل أحرِقَتْ أم مُزِّقَتْ أم طُرِحَتْ في الماء!!! ألتّقليدُ يختلف في ذ لك. وكيف تجرّأ المؤمنون على إتلافِ هذه المصاحف، وهي من أيدي صحابةٍ أجلاّءَ محتَرمينَ موفوري الوَقارِ والكَرامة!

٣. وكيف تـألّفتِ اللجنةُ ؟ ومِمَّنْ؟ ألتّـقليدُ على خـلافٍ ظاهر. فمنـه ما يشيـر إلى إثنين فقط: زيد وسَعيـد بن العاص؛ ومنه ما يشـيرُ الى ثلاثة: زيد وسعيـد وعبد الرحمن بن هشام؛ ومنه ما يشـير الى أربعة[٦٢]، ومنه ما يشير الى لجنة اثني عشرية[٦٣]... ومن المعروف أيضـا ان سَعيدًا بن العاص كان إبّان تأليفِ اللجانِ والياً على الكوفة، فكيـف يكونُ من أعضائها؟ وثلاثة من اللجنة الرباعية كانوا مكيّين من قريش ومن الطبقة الأرسـتقراطيّة ومن أقرباء عثمان بن عفّان، وبين بعـضـهم بعضا صلاتُ مـصاهَرَة وقربى ومصالحُ مشـتركة. وزيدٌ وحدَه كـان مدنيًـا من الأنصار. ومع هذا كـان رئيسـا على اللجنة. وفي نصيـحة عـثمان للّجنة: «إذا اخـتلفتم أنتم وزيد بن ثابت فـي شيء من القرآن

(٦١) طبقات ابني سعد، ٢/ ١١٥ .

(٦٢) يضاف الى الثلاثة المذكورين ابن الزبير، انظر البخاري وأبن أبي داود .

(٦٣) ابن ابي داود، كتاب المصاحف، ص ٢٢، ٢٤ و ٢٥ .

فاكتبوه بلسانِ قريش»[٦٤]، وهو ما يشير الى إمكانية الخلاف، والى مداخلة الخليفة، واشرافه، وسلطانه.

٤. ثمّ هل لعثمان نيّات وخفايا في ما فعل؟ الحقيقةُ أنّه كانَ يعرفُ مدى خطورةِ مصحفِ عليِّ بن أبي طالب خصمِه وعدوِّه السياسيِّ العنيد. وكان يعرفُ انّ هناك مصاحفَ دُوِّنتْ أيّامَ النبيِّ ،ولها قدسيّتُها وأهمّيتها. وكان يعرفُ أنّ مصاحفَ الصحابةِ المعروفَة آنذاك كانتْ تنتمي الى المدينةِ وسائرِ المواطن الإسلامية، وهو يريد لمكّةَ السَبَقَ في هذا المجال ... لعلّها العصبيّة القبليّة تحكّمتْ بعثمان؟ وليستْ هذه العصبية خفيّةً على أحد: فالعصبيةُ الأمويّة والعصبيّةِ العباسيّة والعصبيّةُ العلويّة كانتْ باديةً وقد أخذتْ مجراها في الخِصام والاقتتالِ والثوراتِ حتى الإبادة...

٥. ثمّ ما هو موقفُ عليّ؟ وقد وضعَ المحدِّثون على لسانِه كلَ الرِضى: «أخرَجَ ابنُ ابي داود بِسنَدٍ صحيحٍ عن سُوَيد بن غَفلة، قال : قال عليّ: لا تقولوا في عثمانَ إلاّ خيْرا. فوالله ما فعلَ الذي فعلَ في المصاحفِ إلاّ عن ملأ منّا»[٦٥]. ولكن: هل رِضى عليّ هو حقيقة؟ والمعلوم أنّ لعليٍّ مصحفًا دَوَنَّهُ بيدِه، وسمعه مباشرةً عن النبيّ، وهو، والحالةُ هذه، يجب أن يكونَ أكثرَ أصالة من مصحفِ زيد أو سواه. ومع هذا، أتلفَه عثمان. فهل هذا يوجِبُ من علي سخطًا أم رضى؟

٦. لماذا ردّ عثمانُ المصاحفَ لحفصة؟ إنّ الخليفةَ مروان بن الحكم، سنة ٦٤، حاولَ أن يأخذَها منها ليحرقَها. فأبَتْ. ولمّا توفّيتْ أخذَها وأتلَفها. وقال مدافعًا عمّا فعل: «إنّما فعلتُ هذا لأنّ ما فيها قد كُتِب وحُفِظَ بالمصحفِ الإمام، فخشيتُ إنْ طالَ بالناسِ زمانٌ أن يَرتاب في شأنِ هذه الصحُفِ مُرتاب»[٦٦].

---

(٦٤) السيوطي، الإتقان ١/ ٥٩.

(٦٥) المرجع نفسه ١/ ٥٩ – ٦٠ .

(٦٦) ابن ابي داود، كتاب المصاحف، ص ٢٤ .

ألســؤال : هل كانت مـصاحف حـفصة تخـتلف عن مـصحف عـثمان، حـتى يتصرّف مروان هكذا ؟ إذا كان الأمـرُ كذلك، فما صحّة علاقة مـصحف عثمان بما جمعه أبو بكر إذاً؟!

ألحقّ يُقال: إنّ اعتـمادَ عثمان على جمـعِ أبي بكر هو عملٌ ذكيّ، بل عملٌ سياسيٍ ماهِر. لقـد كانَ يعرفُ أنّه إذا اعتمدَ مصحفَ ابنِ مـسعود، مثلاً، لكانَ أثارَ عليه حَنَقَ السـوريّين وأهلِ بصرى الذين كانوا يقـرأون بمصحفِ أُبَي بن كعب وبمصـحفِ الأشعري، ولكان شَـتَم عملَ سَـابِقَيه في الخـلافة، أبي بكر وعمـر، وقد كان يعـرفُ بذكائه أنّ المسلمينَ لن يختلفـوا كثيـرًا إذا ما رَفَعَ من شأن الخليفَتين اللذَين سَدَّدا خطواتِ الإسلامِ، وفتحا البلادَ، وأعليَا العمران.

٧. ثمّ أيضا مـا هو موقفُ ابن مسعـود من مصحفِ عثـمان؟ إنّ دلائلَ كثيرةً تشـيرُ الى عدم رضاه؛ لقد رفضَ رفضًـا قاطعًا ما جَمَعَه عـثمان، وقال: «كيفَ تأمرني أن أتبعَ قرءاةَ زيد في الوقتِ الذي كنتُ أقرأ القرآنَ سبعين مرّة، وأسـمعُـه من فمِ النبي، وزيدٌ كـان لا يزالُ في صلبِ أبيـه يحـملُ لُعَبَ الاولاد ويلعبُ بالمكانس! »[٦٧]. ومرّة أخـرى قال : «سأتركُ مـصحفَ عثـمان لأنّه من عمل إنسانٍ. عندما كنتُ قد أصبحتُ مسلِما، كان زيدٌ في أحشاءِ أمّه»[٦٨]

قـد تكون هذه الأقوال المنسـوبة الى ابن مـسعـود صحـيحـة أو غيـر صحيحة، ولكنّ عدم رضاه فيها واضح. ومُبرِّرُ عدم الرضى لا يرقى إليه شكّ. وهو موقفُ أبيّ بن كعب أيضا، ولكن لا عِلْمَ لنا به على طريقِ الوضوح، غير أن الذين كـانوا يتبعـون مصـحفـه أظهـروا عدمَ رضـاهم على إتلافِ عـثمـان المصـاحف. ولا شيءَ أيضـاً يمنعُ من القـولِ بعدم رضـى عليّ بن ابي طالب، بدليلِ ما وُضعَ على لسانه من رضى، ظنّا أنّ في قلبِه غيرَ هذا الرضى.

---

(٦٧) المرجع نفسه، ص ١٧، ابن سعد /٢ قسم ٢ ص ١٠٥ ،

(٦٨) المرجع نفسه، ص ١٧ سطر ١٥ .

ومع هذا كلّه، ورغم حسنِ نيّـات عثمان في توحيـدِ الكلمة بين المسلمين وفي توحيدِ كتاب اللّه، لم تُحَلِّ المشكلة من أساسهـا؛ بل قد يكون عثمان عقَّدَها أكثر، لأنّ المصاحفَ القديمةَ كانَ يقرؤُها الناسُ بأكثرَسهولة لاعتيادهم عليها، ولأنّ بعضَهم كان يحفظُها عن ظهرِ قلبـه. وأمّا مصحفُ عثمان فليسَ هناك من يحفظُه، أو مَن يقـرؤُه بسهولة. وليس فيه نقَطٌ لـتمييز الحـروف. ولا حركاتٌ لتعـيين مواقعِ الكلمات. وليس فيـه حروفُ علّةٍ لتعيين طبـيعةِ الكلمة وتمـييز الكلمات المتشابهةِ بعضها عن بعض ...

بهذا دخل في مصحف عثمان قـراءاتٌ من مصاحفَ سابقة، وتصحيفٌ من قرّاءِ غير قرشيّين أو مضريّين، أو حـتى غير عرب. فكل شيء فيه يدعو الى القلق. وما يزيد القلَق في صحّته انتسابُ مصاحفَ قديمةٍ إليه، وذلك بعدَ مقتلِ عثمان الذي أضـفى عليهِ المسلمون معنَى الاستشهادِ الملكوتـي. فبعدَ ان عرفَ الناسُ عثمانَ ظالما محتالاً، عرفوه الآنَ بـعد استشهادِه، شهيدًا ووليّا طاهِرا. وبفضلِ هذا أصـبحَ لمصحفِه مكانٌ فـريد. وأصبحَ كلُ قرآن مجـبولٌ بنقطةِ دمٌ من دم عثمـان قرآنًا مقدّساً. وباتَ كلُّ صـاحبِ مصحفٍ ، لكي ينفذَ بمصـحفه إلى قلوبِ الناس، ينسبُ مصـحفَه إلى عثمـان. وهكذا أصبحَ مصحفُ عـثمان سحرًا أفـاضَه عليه الخليفـةُ الاموي عبد الملك بن مـروان ووزيرُه الحجّاج بن يوسف، كما سنرى.

وممّا يزيدُ الأمورَ تعقيدًا اختلافُ أهلِ الأخبار والمحدِّثين في عددِ النسخِ التي أرسلَهـا عثمـانُ الى الأمصار. فـمنهم مَن يجعلُهـا أربعةً، ومنهم سـتّة، ومنهم سـبعـةً. أرسلَ كلَ واحدة منهـا الى قطر: «الى مكة، والشام، واليـمن، والبحرين، والبصرة، والكوفة، وحبسَ بالمدينة واحدة»(٦٩).

٨. وأخيـراً لماذا لم يعدْ عثمـانُ راضيًا على مـصحفِ زيد بن ثابت الذي

---

(٦٩) السيوطي ، الاتقان ١/ ٦٠ .

جَمَعَ لأبـي بكر وعمـر؟ هل من خلافٍ بين مـصحفِ زيدٍ الأوّل، ومـا يجمـعُه لعثـمان الآن؟ ثمّ لماذا فضّلَ عـثمـانُ حرفًا واحِـدًا من الأحرفِ السبـعة؟ ومِنَ المسلَّم به أنّ اللهَ «أنزلَ القرآنَ علـى سبعةِ أحـرف. فرأى عثمـان أن يزيلَ منها ستّةً ، وان يَجْمَعَ الناسَ على حرفٍ واحد، فلم يُخالِفْه أكثرُ الصحابة، حتى قال عليٌّ: «لو كنتُ مـوضِعَه لفـعلتُ كما فـعل... كانوا يقـرأون القرآنَ على سبـعةِ أحرفٍ، فوقَع بينَهم الشرُّ والخـلافُ، وأرادَ عثمانُ أن يختارَ من السبـعةِ حرفاً واحِداً هو أفْصَحُـهَا، ويُزيلَ الستّةَ. وهذا من أصحٍّ ما قيـل فيه، لأنّه مرويّ عن زيد بن ثابت»[٧٠].

لكنّنا نسأل: ما هو الحرفُ الصحيح، وما هو «أفصحُ الحروفِ الستة»؟ «ألا يعني اختيارُ الأفصح، أنّه كانَ في النّصوص السبعةِ فصيحٌ وأفصح؟»[٧١]، والمسلمـون يعتـقدون بأنّ حـروفَ القرآنِ جمـيعَـها هي في مُنـتهى البـلاغةِ والفصاحة!

---

(٧٠) ابو جعفر النحاس، الناسخ والمنسوخ، ص ٣٧، انظر ١٥٩.

(٧١) الاستاذ الحداد، القرآن والكتاب ١/ ٢٤٣ .

خاتمة الفصل الخامس

عشــرات الأسئلة المطـروحة في موضـــوع "جمع القــرآن وتدوينه" لا يُجيب عليها الإيمان بالمعجزة فحسب، بل على الأبحاث التاريخيّة ألاّ تقف عند حـدّ. والعلمُ يقضـي بألاّ يـطلب من اللّه خريطة نـظام الكون الذي وضعــه على أحسن ما يكون. والعلم يقضي بأنّ هذا النّظام يحترم حريّة الإنسان أحسن ما يكون. ويُخشى من الذين يحـشرون اللّه في إتيان المعــجزات أن يكون إيمانهم بإلههم من صنعهم. فمن الإيمان المستقيم أن نعتــرف اعترافاً حقيقيّاً بما صنع اللّه لنا، وبما ترك لنا من حرّيّة البحث عنه في نظام هذا الكون الرّائع.

ومّا لا نعرفُه هو ما حدَث في تاريخِ الـنبوّةِ والقرآنِ من معجزات. نحن لا نستطيعُ اتّهامَ الله بأيٍّ تدخّل مــاكر، أو أي مكر منه في خربطة نظام الكون، رغم انّه، بحسبِ القرآن،هو «خـير الماكرين»[٧٢] . ولا يسعنا، والحالة هذه، أن نطلبَ من الإنسانِ أيَّ فعلِ إيمانٍ على حساب حـريّته ومعطياتِ التاريخ. ولكنَّ المسلمين استحبّوا الدخولَ في عالمِ المعجـزات، فقالوا، بمعجزات لا حصر لها. منها أنّ القرآنَ نَزلَ بمعجزة، وحُفظ بمعجزة، وجُمع بمعجزة، ودُوِّن بمعجزة. فكان لهم ما أرادوا.

---

(٧٢) سورة ٣/ ٥٤، ٨/ ٣٠، انظر ٢٧/ ٥٠، ١٠/ ٢١، ١٣/ ٤٢ ..



الفصل السادس

معجزة ضَبط القرآن وإتلاف المصَاحف

أولاً - الوضع السياسي

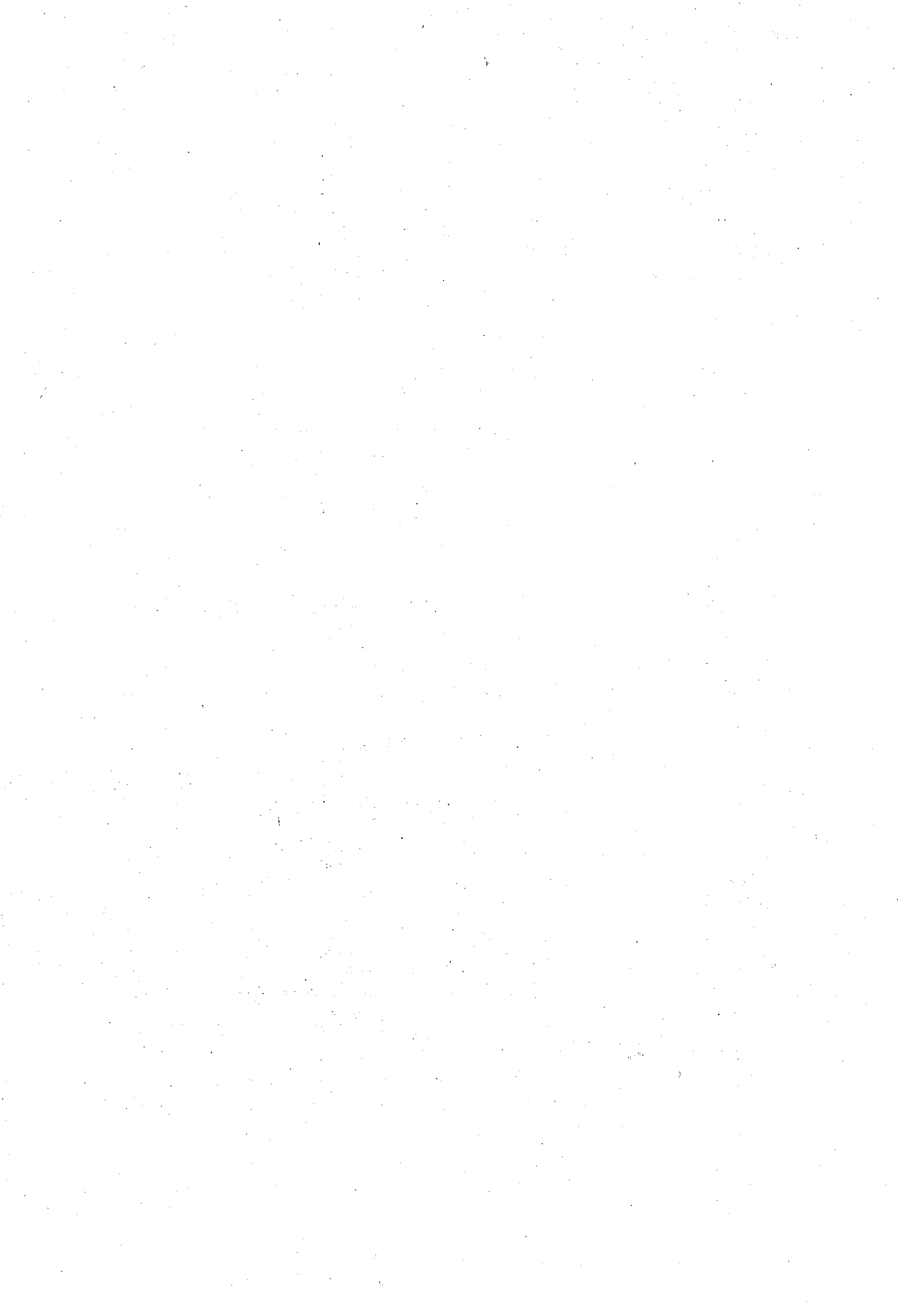
ثانياً - وضع المصاحف العثمانيّة

ثالثاً - ضبط المصاحف العثمانيّة

رابعاً - رخصة القراءات

خامساً - المُحكم والمُتشابِه

سادساً - الإقحام



مقدّمة الفصل السادس

قام من المسلمين مَن قال: انّ «أهلَ العصرِ الأوّل... كانت كتابتُهم للمصحفِ الشريفِ سقيمةَ الوضعِ، غيرَ محكمةِ الصنع. فجاءتِ الكِتْبَةُ الأولى مزيجًا من أخطاءَ فاحشةٍ ومتناقضاتٍ متباينةٍ في الرَسْمِ والهجاء... (لذلك) وقعَ في كتابةِ المصاحفِ اختلافٌ كبيرٌ في وضعِ الكلماتِ من حيثُ صناعة الكتابة ورسمها»[١].

هذا كلامٌ صحيح. يعبّر عن الواقع. ولكنَّ المؤمنينَ يقولون غيرَ ذلك. إنَّ اللّهَ، في رأيهم، لا يُعجِزُه حفظُ كتابِه العزيزِ سالِمًا وسليما من المتناقضاتِ والأخطاءِ والاختلافاتِ والعوَج، وهو القائل: «إنّا له لحافظون»، و«لا اختلافَ فيه»، و «لا عوَج». وظلَّ اللهُ يقاوِمُ الانحرافاتِ والتباييناتِ التي أصابتْ مصحفَ عثمانٍ حتى جاءَ بالحجّاجِ بنِ يوسف أشهر «دهاةِ التاريخِ العتاةِ الذين يستبيحون جميعَ المحرّماتِ في سبيلِ مآربهم»[٢].

لقد قاوَمَ اللهُ حتى الآن ضعفَ النّبيِّ ووهَنَ ذاكرتِه، ومَنَعَ عنه حبائلَ الشيطانِ ودسائِسَه، وحفظَ الصحابةَ من كلِ ميلٍ وهوى، وعصمَهم بقدرتِه العاصمة، ودَفَعَ الخلفاءَ الراشدين لجمعِ شتاتِ المصاحفِ دفعاً، وأنار عقل عثمان بن عفّان ليختارَ من الحروفِ السبعةِ «أصحَّها»، وألهَمَ زيداً بنَ ثابت اختيارَ مصحفِ حفصة من مصاحِفَ مختلفة، وجعلَ في قلوبِ أصحابِ

(١) ابن الخطيب، الفرقان، ص٥٧ – ٥٩ .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ٢/٢١٦.

المصاحـف فضيلـةَ القبولِ والرِّضـى، ووقفَ بوجهِ كلِّ مـحاولةِ انشـقاقٍ في الدين... وظلَّ اللهُ يسير بالقرآنِ بنجاحٍ حتى جاءَ بالحجّاج.

جاء الحجّاج بنُ يوسف فارتاحَ المسلمون إليه. فضُبِطَ القرآن. وأُعجِمَت الحروف. وشُكِّلَـتِ الكلمات. وأُثْبِتتِ الـقواعد. واسـتَوتِ الكتـابة. ورُكِّزَ الخطُّ والرّسْمُ ... كلُّ شيءٍ مع الحجّـاج أصبحَ مُـسْتَقِـيمًا. وكلُّ مـا يمّتُّ الى القرآنِ بصلةٍ ضُبِطَتْ قـوانينُه. فلن يعودَ بعدَ الآنِ مـجالٌ لأيٍّ اختلافٍ في كـتابِ اللهِ العزيز. إنّ بعضَ الأمورِ، على ما يبدو، لن تستقيمَ بدونِ قوّةٍ وبطشٍ وسلطان. فكانَ الحَجّاج لها.

أمّا كيفَ وصلتْ حالُ القرآن الى الحجّاجِ؟ فهذا من أمورِ البحث. وكيف تدخّلَ الحجّاجُ ليـضبط المخالفين؟ فهـذا أيضا من عملِ علماء وباحـثين. غيرَ أنّ الله هو مسيّرُ التاريخِ في كل حالٍ. وهو لن يَستـعصيه حال، ولن يَتْركَ كتابَه لعبةً بأيدي العابثين.

إنّ معـجزةَ اللهِ التي تمّـتْ على يدِ الحجّاج لـن تكونَ الأخيرةَ فـي عَالَمِ المعـجزات. ولن يسلَم مـا صحّـحَه الحـجّاجُ ببطشِـه وسلطانِه من صعـوباتٍ جديدةٍ وتصحيفـات كثيرة. ولهذا تعدّدتْ، بعدَ عصـرِ الحجّاج، قراءاتُ القرآن، كمـا تعدّدتْ، من قَـبْلُ، أحرُفُه، ومـصاحِـفُه. وأكثـرُ هذه المفاسـد حصلتْ في العراق، بسـببِ وضعٍ سياسـيٍّ خطير، وثقـافات التقتْ على ضفـاف النّهرَين. فلننظر :

أوّلاً – الوضع السياسي

إنّ وصـولَ عـبدِ الملك بـن مروان على خـلافـةِ الأمـويّين سنة ٦٥ هـ / ٦٨٥ لهوَ حاسمٌ في العـالَم الإسلامي. ففكرةُ العصرِ الرئيسـيّةُ كانتْ آنذاك دَعْمَ السلطةِ المركزيّةِ للحـكمِ الأمَوِيّ، وتوحيدَ قِـوَى الامبراطوريّةِ الإسلامـيّةِ الواسعة، وتحطيمَ كلِّ مخالِفٍ مـعاندٍ في الداخل. عندئذٍ تكونُ ساعةُ الإصلاحِ مؤاتيةً حـيثُ تُصبحُ اللغةُ العربيةُ اللّغـةَ الّرسميةَ للدولةِ الإسلامـيّة، ويصبحُ القرآنُ مُـوَحّداً، مـضبوطًـا بحرفِه ورَسْـمِه وترتيـبِه فيِ الأمـصار والأقطار الإسلاميّة كلِّها.

وكانَ لعبدِ الملك بن مروان قـائدانِ بارزان: عُبيدُ اللهِ بنُ زياد (+٦٧هـ)، والحـجّاجُ بنُ يوسـفَ الثقـفي (+٩٥هـ). كـان الأوّلُ حاكـمًـا على خَرَسَـان وَسجستّان وبلادِ ما بين النهـرين، و«يُنْسَبُ إليه أنّه أمَر رجلاً فارسيَ الأصلِ بإضـافةِ الألِف الى ألْفَي كلمـة حذفتْ منهـا، فكانَ هذا الكاتِبُ ينسخُ: (قَـالَتْ) بدلاً من (قَلَتْ) ، و (كَانَتْ) بدلاً من كَنَتْ»[٣].

وكان الثـاني، الحجّاجُ بن يوسف، وَالِيًا عـلى الحجازِ بعدَ قـضائه على ثورةِ مصعبٍ بنِ الزُّبير وأخيهِ عبـد الله، ثمّ حاكِمًا على العراقِ المضطرِب بِفِتَنِ الخَوارِجِ والشّيـعةِ الرّافضين، فأخـمدَها وأرسلَ الجيوشَ التي فـتحتْ بُخَارَى وَبَلْخَ والسنْدَ وعُمَانَ وسائرَ المقاطعاتِ الايرانية[٤]. و «كانَ يرى طاعةَ الخليفةِ

(٣) ابن أبي داوود، ، كتاب المصاحف، ص ١١٧، ونولدكه، ص٢٥٥.

(٤) لامنس، الانسكلوبيديا الاسلامية، ٢/ ٢١٥ .

فرضاً دينيّاً، فأدّى به ذلكَ، مع كثرةِ الفِتَنِ، إلى القَسوةِ في سياستِه، فكَرِهَهُ الكثيرونَ، وألصَقُوا باسمِه القَصَصَ الكريهَة. وكان متعصِّبًا للعروبة، فقَسَا على الموالي، وأحلَّ اللغةَ العربيةَ محلَّ غيرِها في الدواوين. ولمّا كثُرَ الخطأُ في قِراءةِ القرآنِ عَهِدَ الى نصرِ بن عاصم بضبطِه»[٥].

وخلالَ هذه الفِتَن، في الداخلِ والخارجِ، نشطَ كثيرٌ من القرّاء، وانقسموا فيما بينهم، بين مناصرٍ للثورة، ومناصرٍ للحجّاج. فاختلفوا في نصوصِ القرآن وقراءتِه وحروفِه وإعرابِه... ومثالُ ذلك مالك بن أنَس الذي انتصرَ لقرآنِ ابن مسعود وقرآن أُبَي بن كعب، وكانَ الاضطهادُ عليه من قِبَلِ الحجاج عنيفًا، وكذلك على الذين أحبُّوا قرآنَي عليّ بن أبي طالب وأبي موسى الأشعري.

ومن هَمِّ إخمادِ الفِتَنِ وتوحيدِ المسلمين، انتقلَ الحجّاجُ الى همِّ إصلاحِ مِصحَفِ عثمان وتوحيدِ الكتاب؛ لأنَّ توحيدَ الكتابِ يجرُّ حتمًا الى توحيدِ صفوفِ المسلمين، وهو الأمرُ الذي قامَ به القَسُّ وَرَقَة بن نَوْفَل والنبيُّ محمّد من قَبْل، ومن بعدِهما عثمانُ بن عفّان، والآن الحجّاجُ بن يوسف، وهو لها، لاتّقادِ ذكائِه، وشدّةِ بطشِه، ووفرةِ تعصّبِه.

ولئن كانتِ المهمّةُ صعبةً، وصعبةً جدًّا، في تتبّعِ المصاحفِ العثمانيةِ المنتشرةِ في كلِ مكانٍ بانتشارِ المنشقّينَ وأصحابِ البِدَعِ والفِرَقِ المتعدّدة، فإنَّ أهونَ الأمورِ كان، عندَ الحجّاج، ضبطَ مصحفِ عثمان وإصلاحَه، فتزولُ، بذلك، سائرُ المصاحفِ، وتتوحّدُ الأمّةُ على قراءةٍ واحدة. وليسَ من وسيلةٍ أخرى[٦].

---

(٥) الموسوعة العربية الميسّرة، باشراف محمد شفيق الغربال، مادّة الحجاج بن يوسف، ١/ ٦٩٠.

(٦) انظر الحيوان للجاحظ ٥/ ٦٥، نزهة ٢٠، القالي للأمالي ١/ ٨٦ ...

ثانيًا – وضع المصاحف العثمانيّة

إنّ الحالة التي وصلَ اليها القرآن، أيّام الحجّاج، تشير إلى فشل. فيها «كَثُرَتِ التصحيفاتُ وانتشرتْ في العراق»[٧]. وفيها " وقَعَ في كتابةِ المصاحفِ اختلافٌ كبيرٌ في وضع الكلمات»[٨]. وقد عبَّر أحدُ المسلمين عنها بـ «تناقضاتٍ واضحةٍ فاضحة»[٩]. وأعطى أمثلةً على ذلك: «مِثْل تحريفِ صيغةِ التوكيدِ الى صيغةِ النفي: «لا أذبحنّه»(٢٧/٢١)، ومثل نقصِ الألف وزيادتِها بغيرِ مُوجب: «وعتو»(٢٥/٢١) و «يدعوا حزبه»(٣٥/٦)، ومِثْل زيادةِ أحرفٍ ونقصانِها في بعضِ الكلمات دونَ بعض: «من نبإى المرسَلين»(٦/٣٤)، " وسبع سموات ... سموت»(٤١/١٢)، ومِثْل رسمِ التاءِ مفتوحة في بعضِ الكلمات دون بعض: «نعمت»(٢/٢٣١) و «نعمة الله»(٥/٧)، كذلك «سنّت الله»(٣٥/٤٣) و«سنّة الله»(٤٨/٢٣)، ومثل إبدالِ السّين صاداً في بعض المواضع: «بسطة»(٤/٨٢) وبصطة»(٧/٦٩)، ومثل حذفِ الألف مِن «قالَ» في بعض المواضع وإثباتها في بعضها الآخر[١٠].

«والناظر لهذا الاختلاف، الذي أوردنا بعضَه، يرى أنّ الرسْمَ القديمَ يقلبُ معاني الألفاظ، ويشوِّهُها تشويّها شنيعاً، ويعكسُ معناها بدرجةٍ تُكَفِّرُ قارئيه، وتحرّفُ معانيه. وفضلاً عن هذا فإنَّ فيه تناقضًا غريبًا، وتنافرًا مُعيبا،

---

(٧) وفيات الاعيان، ص ١٢٥.

(٨) ابن الخطيب، الفرقان، ص ٥٧.

(٩) المرجع نفسه.

(١٠) انظر: ٢٣/١١٢ و ١١٤، ٢١/٥٢ و٥٤ و٥٦ و٦٣.

لا يمكنُ تعليلُه، ولا يُستطاع تأويله»(١١).

«ولَحْنُ الكتّابِ في المصحفِ العثماني أدّى الى تحريفٍ في الكَلِمِ المُنزلِ: ذلك رأيُ عائشة في قولِه: «إنّ هذان لساحران»(١٢)، وفي قوله: «المقيمين الصلاة والمؤتون الزكوة»(١٣)، وفي قوله: «إنّ الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون»(١٤)... قالت: «هذا مِنْ عَمَلِ الكُتّابِ أخطأوا في الكتاب».

ورأى سعيد بن جُبير قال: «في القرآنِ أربعةُ أحرف لَحْنٍ ... وقد قرأها مستقيمةً بعضُ القراء، مثل أبي عمرو ويعقوب. وسُئِل أَبَانُ بن عثمان عن «المقيمين»، وما بين يديها وما خلفها، رَفْعٌ وهي نصبٌ؟ قال: «مِنْ قِبَلِ الكَاتِب».

و«كانَ ابنُ عَباس يُبَدِّلُ القراءَة المشهورةَ بقراءته: «حتى تستأنسوا وتُسَلِّموا»(٢٤/٢٧)، و«أفلم يتبيّنِ الذينَ آمنوا»(١٣/٣١)، و «وصّى ربُّك» (١٧/٢٣)... بدلاً من «حتى تستأذِنوا»، «أفلم ييأس»، «وقضَى ربّك». ويقول: «إنّما هي مِنْ خَطأ الكاتبِ قد كَتَبَها وهو نَاعِسٌ». وكانَ يَقرأ: «مَثَلُ نورِ المؤمن كمشكاةٍ»(٢٤/٣٥) بدلاً من «مَثَلُ نورِه». ويقولُ هي خطأٌ مِنَ الكَاتِبِ، وهو تَعالى أعظم من أن يكون نورُه مِثلَ نورِ المشكاة». وختَم بقوله: «ومما لا شكَ فيه أنّ كتّابَ المصاحفِ من البشرِ يجوزُ ما يجوزُ على سائِرهم من السَّهْوِ والغَفْلَةِ والنِّسيان. والعصمةُ للّهِ وحدَه. وقد اختلفوا في عصمةِ الأنبياء. والقولُ الراجح أنّهم معصومون فيما يتعلّقُ برسالاتهم فقط، أمّا ما عداها فشأنُهم كشأنِ بقيّةِ البشر»(١٥).

---

(١١) ابن الخطيب، الفرقان ٧١-٧٢ الفصل كله، عن الحداد ١/٢٤٦.

(١٢) سورة طه. ٢٠/٦٣. والأصح: "إنّ هذين".

(١٣) سورة النساء ٤/١٦٢. والأصح: "والمؤتين".

(١٤) سورة المائدة ٥/٦٩. والأصح: "والصابئين".

(١٥) ابن الخطيب، الفرقان ٤١ - ٤٥، الفصل كلّه، عن الحداد ١/٢٤٦.

هذه صورةٌ عمّا يُمكنُ تصوّره. ومَن أرادَ المزيدَ من هذه الصورة فليرجِع، مثلاً، الى كتاب «حجّةِ القراءات» للامامِ أبي زرعة بن زنجلة، وفيه أكثر من ٧٠٠ صفحة في تعدّد القراءات والاختلافات فيها[١٦].

أمّا السيوطي فيحصرُ أخطاءَ مصحف عثمان في «ستةِ قواعد: «الحذْف، والزيادة، والهمْز، والبَدَل، والفَصْل، والوَصْل»، ويعطينا أمثلةً ضافيةً عن كلِ قاعدة، يبيّنُ فيها ما في المصحفِ العثماني من كلماتٍ كُتِبَتْ بأشكالٍ متعدّدة، خلافًا لما هو في اللغة العربيّة[١٧].

وكذلك الحجّاجُ بن يوسف رَفَعَ، في أثني عَشَر موضِعًا، كلماتٍ قرأها الصحابةُ بَدَلَ كلمات، مثل: «إيمانِهما «بدل» أيديهما»(٥/٣٨)، و«لا تُجزَى نسمةٌ عن نسمة» بدل «لا تُجزى نفسٌ عن نفس»(٢/٤٨)، و«صَفراء لذّة للشاربين» بدل «بيضاء لذة للشاربين»(٣٧/٤٦)، و«ادراس وادراسين» بدل «الياس والياسين»(٣٧/١٢٣)، و«جاءت سكرةُ الحقِ بالموتِ» بدل «وجاءتْ سكرةُ الموتِ بالحق»(٥٠/١٩)، و«صراط مَن أنعمتَ عليهم» بدل «صراط الذين انعمتَ عليهم»(١/٧)، و «الحيُّ القيّام» بدل «الحيّ القيّوم»(٣/٢)، و «للذين يقسمون» بدل «للذين يؤلون»(٢/٢٢٦)، و «اركعي واسجدي مع الساجدين» بدل «واسجدي واركعي مع الراكعين»(٣/٤٣)، و«مثقالُ نملة» بدل «مثقال ذرّة»(٤/٤٠)، و«تزوّدَا وخيرُ الزادِ التقوى» بدل «وتزوّدوا إنّ خيرَ الزاد التقوى»(٢/١٩٧)، وأخيرًا «وشاوِرهم في بعضِ الأمر» بدل «وشاورهم في الأمر»(٣/١٥٩)...

***

(١٦) حجة القراءات، للامام ابي زرعة بن زنجلة، تحقيق سعيد الافغاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٣، سنة ١٩٧٩.

(١٧) السيوطي، الاتقان في علوم القران ٢/١٦٦ – ١٧٣.

وهكذا ترى، بعد جمْع عثمان للمصاحف وتوحيدها في مصحفٍ واحد، كيفَ وقعتِ الأخطاءُ والمتناقِضاتُ أحيانًا، رغم حرصِ المسلمين على سلامةِ النّصِ والحرف. وأنتَ ترى أيضا كيفَ كانتِ الحالُ قبلَ عثمان، ولماذا قرّر عثمانُ توحيدَ المصاحف، ولماذا قال: «أَجِدُ فيه (في القرآن) ملاحِنَ وستُصْلِحُها العرب»[١٨]، ولماذ تدخّلَ الحجّاج بسلطانٍ، فتجرّأ على إتلافِ المصاحفِ العثمانيّة، حتى لم يبقَ منها إلى اليومِ مصحفٌ واحد..

---

(١٨) ابن ابي داوود، كتاب المصاحف، ص ٣٢ .

ثالثًا – ضبط المصاحف العثمانية

بسبب هذا الوضعِ السّيّءِ للمصاحفِ العثمانيّة وسوءِ تلاوتِها، تَدَخَّلَ الحَجّاجُ فأصلحَ ما أمكنَ إصلاحُه، وأتلفَ ما أمكنَ إتلافُه. ولمسَ الجميعُ مع الحَجّاجِ فسادَ القراءات، فطلبَ زيادُ بن سميّة والي البصرة من أبي الأسود الدّؤلي النحويّ الشهير أن يضعَ طريقةً لاصلاحِ الألْسنة، وقالَ له: «إنّ هذه الحَمْراءَ قد كَثُرَتْ وأفْسَدتْ من ألسنةِ العرب، فلو وضعتَ شيئًا يُصلِحُ به الناسُ كلامَهم، ويُعرِبُون بهِ كتابَ الله».

«فأبَى أبو الأسود، أولاً، لبعضِ أسبابٍ كان يراها. فأمرَ زيادُ رجلاً أن يقْعُدَ في طريقِ أبي الأسود، فلمّا قاربَه رفعَ صوتَه بالقراءةِ كأنّه يقصُدُ إسماعَ أبي الاسود، وقرأ: «إنَّ اللهَ بريءٌ مِنَ المشركين ورسولِهِ»، (بِكَسْرِ اللام). فأعظمَ ذلك أبو الأسود، وقال: «عزَّ وجهُ اللهِ أنْ يبرأ منِ رسولِه. ثمّ رَجَعَ من حينِه الى زياد، وقالَ له: «قد أجَبْتُكَ إلى ما سألْتَ، ورأيتُ أن أبْدَأ بإعرابِ القرآن». فكانَ ذلك[١٩].

ولكن، بالرغم من هذه الرواية، يختلفُ الناسُ في مَنْ بدأ بضبطِ المصحف. أهوَ أبو الاسود الدؤلي، أم الحسنُ البصري، أم يحي بن يعمر، أم نصرُبن عاصم اللّيثي[٢٠]؟؟؟ ألله أعلم. وفي كلِ حال، جرَى الاصلاحُ، وقام

(١٩) الزركشي، البرهان ١/ ٢٥٠ –٢٥١، الزنجاني، تاريخ القرآن ٨٧ ...

(٢٠) السيوطي ٢/ ١٧١. انظر في سيرة هؤلاء الرجال : وفيات الاعيان٢/ ٢٢٦، وغاية النهاية ٣٨١، وسيرة النبلاء ٤/ ٢٥١ وغيرها...

على وَضعِ النقَطِ فوقَ الحروفِ المتشابهة، والشّكلِ فوقَ الحروفِ لتعيينِ مواقعِ الكلمات، ووضعِ الهمزِ والتشديدِ والرّم (أي السكون) والإشمامِ[٢١]، ورسْمِ الخطِ وحروفِ العلّة... وغيرِ ذلك.

ومع هذه بقيَ في القرآنِ كلماتٌ لم يُجْرَ عليها الاصلاح، وكلماتٌ أُصلحَتْ في مكانٍ وَبقيتْ كما هي في مكانٍ آخر. فتجدُ مثلا: كافرون وكفرون، وأنهار وأنهر، وأطيعونِ وأطيعوني، وسموات وسموت... وَيُعَدُّ هذا الشذوذُ بالآلاف. لعلّ التصحيحَ توقّفَ في منتصف الطريق؟ أو لعلّ في القرآنِ لغَتَين : حجازيّة ونجديّة؟ أو لعلّ قدسيّةَ الحرف أوقفتْ حماسةَ المصلحين! والمعروفُ عن ابنِ مسعود أنّه كان يقولُ: «جرِّدوا القرآنَ ولا تَخلِطوه بشيء»[٢٢].

ولخشية المسلمين في زيادة شيءٍ على القرآن، اعتمدَ المصلحون على استعمالَ الألوان: فكانَت الحركاتُ والتنوينُ والتشديدُ والسكون والمدُّ باللّون الأحمر، والهمزاتُ باللّون الأصفر[٢٣]. وأمّا الشّكلُ فكان نقَطًا: ألفتحةُ نقطة على أوّلِ الحرف. والضمّةُ على آخِرِه، والكسرةُ تحت أوّله»[٢٤]. وعندما جاء الخليل (+٧٨٦هـ) «جعلَ الفتحَ شكلةً مستطيلةً فوق الحرف، والكسرَ كذلك تحتَه، والضمَّ واو صُغرى فوقه، والتنوينَ زيادة مثلها»[٢٥].

ومن ناحيةِ السُّوَر، لم يكنْ يفصِلُ بين سورةٍ وسورةٍ إلاّ فسحةٌ بيضاء أو دائرةٌ مزركشة، دونَ عنوانٍ لها[٢٦]. ولكن، في المخطوطاتِ الكوفيّة، أصبحَ

---

(٢١) الإشمام هو "الإشارة إلى الحركة بالشفة من غير تصويت، وذاك بأن تُضمّ الشفتان بعد الإسكان في المرفوع والمضموم من غير صوت" (المنجد).

(٢٢) أنظر السيوطي، ٢/ ١٧١ .

(٢٣) المرجع نفسه.

(٢٤) المرجع نفسه.

(٢٥) المرجع نفسه .

(٢٦) ابن ابي داوود، كتاب المصاحف، ص ١٥٨ .

عنوانُ السورةِ في الدائرة. وهو، كما يبدو، أُضيفَ إليها فيما بعد. وقد أخرجَ ابنُ أبي داود عن النخعي أنّه كانَ يكرَهُ أن يَكتبَ في المصحفِ سورَةَ كذا وكذا. وكذلك الحليمي يكرهُ كتابَةَ أسماءِ السُّوَرِ وعددِ الآياتِ وكتابةَ الأعشارِ والأخماسِ والفَوَاتِحِ والخواتِمِ[٢٧]...

ويبدو أيضًا أنّ المصاحفَ الحجازية لا تتضمّنُ أرقامَ الآيات، مثل مخطوطِ المكتبةِ الوطنيةِ بباريس رقم ٣٢٨، في حين تتضمّنها مخطوطتا ٣٢٦ و ٣٢٤ . وفي البدءِ كان يفصلُ بينَ الآيةِ والآية خطٌّ منحرف، وفيما بعد فصلتْ بزخرفةٍ على شكلِ زهرة، وكانتْ غالبَ الأحيانِ مذهّبةً. كما كان يوضَعُ بين أوراقِ المصحفِ أوراقٌ من زهرِ الورد، إذ «يُستَحَب تطييبُ المصحف»[٢٨].

هذا التجديد في المصحف، باضافةِ عناوين السورِ، وأرقام الآياتِ، ووضع الحركاتِ والنقطِ، وتقسيمِ القرآنِ إلى أجزاء وأعشار وأخماس وأحزاب، وغير ذلك، كان مدارَ جدالٍ طويلٍ في الإسلام حتى أواخرِ القرن الثالث للهجرة/بداية القرن العاشر للميلاد. وكان الجدالُ يدور حولَ شرعيّتها، وكانتِ السلطاتُ السياسيّة تحزمُ بالأمرِ وتجزم. واختلفَ المحدِّثون في شرعيّتها وصوابيتِها، كما هم مختلفون حتى اليوم في شرعيّةِ طباعةِ المصاحف بخطِّ المطابع دونِ الرسْم العثماني.

ففي نَظَرِ بعضِهم، كالزرقاني، وابنِ المبارك، وعبدِ العزيز الدباغ، وغيرهم، إنّ الرّسمَ العثماني أمْرٌ إلهيٌّ وسِرٌّ ربّاني. و«ما للصحابةِ، ولا لغيرهم في رسمِ القرآن، ولا شعرةٌ واحدة، وإنّما هو توقيفٌ من النبيِّ، وهو الذي أمَرَهم أن يكتبوه على الهيئةِ المعروفة... لأسرارٍ لا تهتدي إليها العقول؛ وهو سرٌّ من الأسرار خصَّ اللهُ بهِ كتابَه العزيز دونَ سائرِ الكتب السماوية.

---

(٢٧) السيوطي، الاتقان ٢/ ١٧١ . الاعشار والاخماس أي تقسيم الآيات إلى ١٠ و ٥ .

(٢٨) المرجع نفسه ٢/ ١٧٢، انظر المحكم، ص١٥ .

فكما أنّ نَظْمَ القرآنِ مُعجَز فرسْمُه أيضا معجز»(٢٩).

وللرّسم العثماني في نفسِ الإمام أحمد بن حنبل قدسية لا مجالَ للشكّ فيها، وهو «يُحرِّم مخالفةَ خطِّ مصحفِ عثمان في واو، أو ألف، أو ياء، أو غير ذلك»(٣٠). وعندما سُئل الإمامُ مالك عن إمكانيةِ تغيير الرّسمِ العثماني أجاب: «لا أرى ذلك. ولكن يُكتَبُ على الكَتْبَةِ الأولى»(٣١). وقال البيهقي: «مَنْ يكتب مصحفًا فينبغي أن يحافظَ على الهجاءِ الذي كتبوا به تلكَ المصاحف، ولا يخالِفُهم فيه، ولا يُغيِّر مما كتبوه شيئًا، فإنّهم كانوا أكثرَ علماً، وأصدَقَ قلبًا ولسانًا، وأعظمَ أمانةً منّا»(٣٢).

أمّا القاضي أبو بكر الباقلاني فهو يجيز تغييرَ الرّسمِ العثماني دون خوفٍ على قدسيّته. ولكنّ الزرقاني ردَّ عليه واستشهدَ في دحضِ آرائه بجمهرة من العلماء(٣٣).

وفي رأي المسلمين اليوم بعضُ الشَفَقةِ على العامّةِ من الناسِ الذين «لا يستطيعون أن يقرؤوا القرآنَ في رَسْمِهِ القديم، فيحسن، بل يجب، أن يُكتب لهم بالاصطلاحاتِ الشائعةِ في عصرهم... ولكنهّم، مع هذه الشفقة، لا يستطيعونَ التخلّصَ من قدسيّةِ الرسم العثماني، لهذا فَهُمْ لا يُبيحون إلغاءَه بهذه السهولة، لأنّ في إلغائه تشويهاً لرمزٍ ديني عظيم، اجتمعتْ عليه الكلمة، واعتصمتْ به الأمّة من الشقاق»(٣٤).

---

(٢٩) الزرقاني، مناهل العرفان ١/ ٣٧٠.

(٣٠) السيوطي، الاتقان ٢/ ١٦٧.

(٣١) المرجع نفسه، المقنع ١٠ :

(٣٢) السيوطي، ٢/ ١٦٧.

(٣٣) الزرقاني ١/ ٣٧٣ – ٣٧٨.

(٣٤) الصالح، ص ٢٨٠.

رَابعًا – رخصة القراءات

قَضى الحَجّاج، وفي ظنِّه أنّ كلَ خلافٍ حولَ المصحف قد حُلَّ من جذوره. ولكنَّ الناس، بعد موتِه، عادوا إلى ما كانوا عليه من خلاف. والخلافُ، الآن، يقوم على قراءةِ مصحفِ الحَجّاجِ نفسِه، أي على كيفيّةِ قراءته. وكانَ كلُ قارئ يقرأُ القرآنَ بحسبِ ما نشأ عليه، لا بحسبِ ما جرى الإصلاح فيه.

«وتدور هذه الخلافات على الأغلب في النطاق التالي :

١. مخارج الحروف، كالترقيق، والتفخيم، والمَيلِ الى المخارج المجاوِرَةِ، كنطقِ الصراطِ بإمالَةِ الصّاد الى الزّاي.

٢. والإداء، كالمدِّ، والقصرِ، والوقفِ، والوصلِ، والتسكينِ، والإمَالَة، والإشْمَام.

٣. والرّسم، كالتشديدِ والتخفيف، مثل «يُغشَى ويُغَشّى»، «فُتِحَت وفُتِّحت»؛ والإدغام والإظهار، مثل «تَذَكّرون وتتذكرون»؛ والهمز ومدّ الألف، مثل «مَلكِ ومالك»، «مَسَجِد ومساجد»، لتحمّلِ الرّسمِ النطقَين.

٤. والتنقيط، والحركات النحويّة، مثل «يفعلون وتفعلون»، «أرجلَكم وأرجلِكم»، مثلا[٣٥].

---

(٣٥) محمد عزّة دروزة، القرآن المجيد، ص ١٣٦.

أمّا الشروط التي حدّد بها المسلمون صحّة القراءة، منعًا لتفاقم الخلاف، فأربعةٌ : التواترُ، وموافقةُ قواعد اللغة العربيّة، ورسمُ المصحف العثماني، وصحّةُ سَنَدِ القراءة الى أحدِ قرّاءِ الصحابة.

ورأى المسلمون تبريرًا من النبيّ نفسِه لهذه الاختلافات، فقال الإمامُ الطحاوي، والقاضي الباقلاني، وأبو عمر بن عبد البرّ، وغيرُهم من أئمّة الكلام : «إنّ القراءاتِ جميعَها كانتْ رُخْصَةً في أوّلِ الأمرِ، لتعسّرِ القراءةِ بلغةِ قريش على كثيرٍ من الناس...»[٣٦]

وقال ابنُ قُتَيبَة: «إنّ مِن تيسيرِ الله أنْ أمَرَ نبيَّه أن يُقرِئَ كلَّ قومٍ بلغتهم»[٣٧]. وكذلك هو رأي الطبري الذي جوّز لعثمان بن عفّان جمعَ الناسِ على حرفٍ واحد من الأحرف السبعة، كما رأينا.

ورأى المسلمون أيضا للنبيّ تبريرًا من عندهم، فقال ابنُ قتيبة : «لو ان كلَ فريقٍ من هؤلاء أمرَ أن يزولَ عن لغتِه وما جرى عليه اعتياده طفلاً وناشئًا وكهلاً، لاشتدَّ ذلك عليه، وعظمتِ المحنةُ فيه، ولم يمكنْه، إلاّ بعد رياضة للنفسِ طويلة، وتذليلِ اللسان، وقطعِ العادة»[٣٨].

***

أمّا القرآءات فهي تختلف من حيثُ انتماء أصحابها إلى العواصم الإسلاميّة الكبرى، كما تختلف من حيث عددها. فمنهم مَن قال بسبعِ قراءاتٍ، ومنهم بعشرٍ، ومنهم بأربعَ عشرة.

---

(٣٦) دروزة، ص ١٣٩، عن ابن الخطيب، الفرقان، ص ١٦٧ .

(٣٧) المرجع نفسه.

(٣٨) تأويل مشكل القرآن، ص ٢٧، النشر في القراءات العشر ١ / ٢١، ابراهيم الابياري، تاريخ القرآن، ص ١٢٣ .

وشيخ القرّاء في المدينة كان «نافع المدني»(+١٦٩ هـ) ، وفي مكّة «ابن كثير»(+١٢هـ)، وفي البصرة «زبان بن العلاء المازني» (+ ١٥٤هـ)، وفي الشام «ابن عامر الدمشقي». (+١٨هـ)، وفي الكوفة «عاصم بن أبي النجود» (+١٢٧هـ)، وهكذا الى آخرهم، كما هو معروف في الكتب. ومَن أرادَ معرفتهم بالتفصيل فليقرأ مثلاً كتابَ«حجّة القراءات» للإمام أبي زرعة بن زنجلة[٣٩]... ومن المعروف أيضا أنّه كان لكلِ قارئ تلاميذ، أخذوا عنه طريقتَه في التلاوةِ والأداءِ والتجويد.

«هذا غيرُ قراءاتٍ أخرى لا عدادَ لها سُمّيت «شاذّة»، لشذوذها عن اللّغة، وعمّا أجمعَ عليه المسلمون، ولتغييرِها للألفاظِ والمعاني في كثيرٍ من المواضع. وقد بلغَ من هذه القراءاتِ والاختلافاتِ أنّ الآيةَ الواحدةَ، التي لا يَختَلِفُ في النطقِ بها ولا في معناها، إثنان، قد يَبلغُ الاختلافُ في روايتها إلى عشرينَ، أو ثلاثينَ، أو أكثر من ذلك. وقد بلغتْ هذه الطرق تسعماية وثمانين طريقًا للقراءاتِ العشر فقط»[٤٠].

ومن أجل هذا كان اتّفاق المسلمين اليوم بأن يتولّى السهر على طباعة المصحف ونشره لجنة "الدّفاع عن القرآن" ، وهي تعمل بسهر خادم الحرمَين وإدارته وتمويله.

---

(٣٩) انظر : صفحة ٥١ – ٧٣ حيث تجد سيرة كل قارئ مع تلاميذه.

(٤٠) انظر : الحداد، القرآن والكتاب ١ / ٢٥١، عن الفرقان لابن الخطيب.

خامساً - المُحْكَمُ والمُتَشَابِه

لم يقتصر الخلافُ في القراءاتِ وحسب، بل تعدَّاها إلى معنى الآياتِ وكيفيّةِ فهمِها. ومن هذا القبيل قالوا بـ «المُحْكَم والمُتَشَابِه» في القرآن. وهذا يعتمدُ على ما جاء في الكتاب: «هو الذي أنزلَ عليك الكتاب، منه آياتٌ مُحْكَمَات هُنَّ أمُّ الكتاب، وأُخَر مُتَشَابِهَات»(٣/٧). وقامَ من بين المسلمين مَن قال: «إنّ القرآنَ كلُّه مُحكَم، لقوله تعالى: «كتابٌ أحكمت آياته». ومَن قال: كلُّه متشابِه، لقولِه تعالى: «كتابًا مُتَشَابها مثاني»[٤١].

وتحديدُ «المُحكمِ» هو «ما عُرِفَ المُرادُ منه»، أو «هو الذي يَدلُّ على معناه بوضوحٍ لا خَفَاء فيه»، أو أيضا: «ما لا يَحْتَمِلُ من التأويلِ إلاّ وجهًا واحدا».

وتحديدُ «المتشابِه» هو «ما استأثرَ اللهُ بعلمِه، كقيام الساعة وخروجِ الدَّجَّالِ والحروف المقطعة في أوائل السور»، أو «هو الذي يخلو من الدلالةِ الراجحةِ على معناه»، أو أيضا: «ما لا يُدْرَك إلاّ بالتأويل»[٤٢].

واختلفَ المسلمون في مَنْ يعرفُ المتشابِه: أهوَ اللهُ وحدَه، من قولِه تعالى: «لا يعلمُ تأويلَه الاّ اللّه»؛ أم يعلمُه أيضا «الراسخون في العلم» ؟ والواقع إنّ أمورًا متاشبهةً يعرفُها اللهُ وحده، وأمورًا يعرِفُها العلماءُ الذين يعتمدون على الاجتهادِ والتأويل. وما لا يعلمُه العلماءُ مثلاً: علمَ الساعةِ واليومِ الأخير، وذاتِ الله، وخروجِ الدابّة، وعلمَ ما في الأرحامِ، ومعرفةَ المستقبل

(٤١) انظر السيوطي، ٢/٢ .

(٤٢) المرجع نفسه.

وساعةِ الموت(٣١/ ٣٤)... كلّها منوطٌ باللهِ وحدَه.

أمّا ما يمكن للعلماءِ معرفتُه فقد اختلفوا فيه : اختلفوا في صفاتِ الله التي تشبّه ذاتَ الله بالبَشر، كقوله: «الرحمنُ على العرشِ استوى»(٢٠/ ٥)، و«يبقى وجهُ ربّك»(٥٥/ ٢٧)، ويدُ اللهِ فوقَ أيديهم»(٤٨/ ١٠)، وغيرها. فمنهم مَن آمنَ بها كما هي، وفوَّضَ معرفتَها الى اللهِ ، كقولِ الإمامِ مالك عن الاستواء في آية «الرحمن على العرش استوى»، فقال : «ألاستواءُ معلوم، والكيفُ مجهول، والسؤالُ عنه بدعة، وأظُنك رجلَ سوءٍ. أُخرِجوه عنّي»[٤٣].

ومنهم من ذهبَ في تأويلِها حتى يليقَ معناها بذاتِ الله، ففسّروا مثلاً «الاستواء» بالعلوِّ المعنوي بالتدبير من غير معاناة[٤٤]، و «الوجه» هو ذات الله[٤٥]. و«اليد» قدرتَه[٤٦]. واختلفَ هؤلاءِ في التأويل، ونشأت عن خلافِهم الفِرَقُ في الإسلام، فكانتِ الجَهْمِيَّةُ والجَبرِيَّةُ والقدرِيةُ والمعتزِلةُ والصفاتية وعلماءُ الكلام على اختلافِ أنواعهم، وغيرُهم...

إلاّ أنّ مسلمي اليوم يرون في وجودِ المتشابِه حكمةً ما بعدَها حكمة، فيقولُ الشيخ صبحي الصالح مثلا : «لعلَّ اشتمالَ القرآن على المتشابِه وعدمِ اقتصارِه على المُحْكَمِ وحدَه، أن يكونَ حافزًا للمؤمنين على الاشتغالِ بالعلومِ الكثيرةِ التي تُقَدِّرُهم على فَهْمِ الآياتِ المتشابِهات، فَيَتَخلَّصونَ من ظلمةِ التقليد، ويقرؤونَ القرآنَ متدبِرينَ خاشِعين»[٤٧].

---

(٤٣) السيوطي، الاتقان ٢/ ٦ .

(٤٤) المرجع نفسه ٢/ ٧، البرهان ٢/ ٨٠ – ٨٢ .

(٤٥) المرجع نفسه ٢/ ٧، البرهان ٢/ ٨٢ .

(٤٦) الاتقان ٢/ ٧ و٨ .

(٤٧) الشيخ صبحي الصالح، مباحث... ص ٢٨٦، عن البرهان ٢/ ٧٥ .

سادساً - الإقحـــام

ثمَّ قامَ أيضا من بين المسلمين من يتعرّضُ للقرآنِ، بعدَ إصلاحه وجمعه وضبطِه، ويعبّرون عن مواقفِهم بتعابيـرَ مثل: التحريفِ والتصحيفِ والتبديلِ والإقــحامِ والزيادة والنقـصان... وغـيرها. فكان مـنهم مَنْ قَبِلَ بالقـرآن على وجوهه ومنهم مَنْ رَفَضَ منه كثيرًا من السور والآيات.

فالمعتزلة، التي ترى في اللهِ الصلاحَ المطلق، ترفضُ أن يكونَ في القرآنِ شتائمَ ولعنات، كما هو الحال في عَدَاوة النـبي محمّد وأبي لهب وأمرأتِه حمّالةِ الحطب، والوليدِ، وأبي جهل، وغيرهم[٤٨]. فهذه الشتائم لا تليق بالوحي بحالٍ من الأحوال، فرفضوها، وقالوا بأنّ اضافاتٍ بشريّةً حدثتْ في القرآن[٤٩]

والعَجارِدَةُ أنكرتْ أن تكونَ ســورةُ يوسف من القرآن، وتقولُ بانّ هذه السّورة، في حـقيقتِـها، قصّــةٌ غراميّةٌ لا تليقُ بـالوحي، ولا يُعْقَلُ أن تكونَ من صلبِ القرآن[٥٠] فهي بالتالي اضافةٌ بشريّةٌ على كلامِ الله.

والعُبَادِيّة يشتكون من عثمان ويتّهمونَه بتصحيف القرآن وتحريفِه من أجلِ غاياتٍ سياسيّةٍ معروفة[٥١]. وكذلك بعضُ شيعةِ علي بن أبي طالب، وقد كانوا أكـثر تهجّـماً على القرآن، فـاتهّموا عـثمانَ بحـذفِ كلٍّ ما يمتّ إلى عليٍّ

(٤٨) Goldziher, Dogme, p. 163

(٤٩) Noldeke, Geschichte des Qorans, II, 94

(٥٠) انظر الشهرستاني، الملل والنحل ٩٥، Goldz., Dogme, 162.

(٥١) Massignon, Hallaj, 242 et n° 7.

بصلة، وقالوا بنظريّة «التبديل في القرآن»[٥٢].

ربّما يكونُ انتـقادُ الفِرَقِ لمصـحف عثمان واصـلاحِ الحَجّاجِ مُغـرضًا، لمآربَ سياسيّـةٍ ومصالحَ شخصيّةٍ، ولكنَّ النَّقْـدَ الصحيحَ لا بدّ له من أن ينظرَ في الأسسِ التاريخيّة التي، بالكشفِ عنهـا، قد تكونُ جارِحَةً في حقِ كلامِ الله، ولكن لا بدّ منها لأجلِ حقّ الله:

فمن حـقِّ اللهِ أن يَسْأَلَ حـفّاظَ وحيـهِ عن تبديلِ الآياتِ الـذي جرى في السُوَر: فلماذا وُضعتْ، مثلاً، آية ٦١ في سورة ٢٤ في الموضِع الذي هي فيه، فيمـا هي في السورة ٤٨ آية ١٧ في مكان آخـر؟ ويبدو أنّ هذه الأخـيرة هي الأصح!!! ولماذا آية ٤ في سورة ٧٠، وهي بدون نظم ولا قـافيـة، بل لكأنّـها تفسيرٌ للآية الـسابقة!!! وكذلك آية ٣٨ في سورة ٤٢ فهي إقحام على النّصّ زادها عثمان لتبريرِ خـلافته على حسابِ عليّ[٥٣]. وكذلك آية ١٤٤ في سورة ٣، فهي أيضا مقحمة، لا محرّفة فقط، كما يدّعي «دِي سَاسِي» و « وِيل».

ثمّ لئن كانتْ سورةُ «النّورَين» حُـذفتا من القرآن لأنّهما شيـعيّةً، فلماذا حذُفـتْ سورتَا «الحَـفْدِ» و «الخَلْع»، وهمـا من مصـحَفَي أُبيّ بن كـعب وابن مسـعود، خِيـرةِ القرّاءِ، و أجلّ الصحـابة!!! ثمّ إنَّ آيةَ الرجمِ، وقد أكّدَها عـمر وحدَه، هل يؤخَـذُ بها، والشاهدُ علـيها رجلٌ واحدٌ، فـيما اتّفـقَ المسلمون على وجوب إثباتِ الآيةِ من شهودٍ عديدين!!! إلخ...

ألحقيـقةُ، إنّ مصحفَ الحَـجاج لم يَسْلَم من التُّهَمِ والرَفض. فـاختلافُ المسلمين فيه خـيرُ دليل. وما إيجادُ نظريّاتٍ، مـثل «تعدّدِ القراءات»، والتمـييز بين «المُحْكَمِ والمـتـشَـابه»، وبين «الناسِخ والمنسـوخ»، ورفـضِ بعضِ السـوَرِ والآيات... إلاّ تبريرٌ لِمَا لم يُفْلِحْ فيه الحَجّاج.

---

(٥٢) Nöldeke, G.d.Q. II., 94 ...

(٥٣) Casanova, Mohammed et la fin du monde, p. 151.

خاتمة الفصل السّادس

لنا على إصلاحات الحجّاج بعضُ الملاحظات : لماذا أتلفَ مروان بنُ عبد الملك مصحفَ حفصة؟ ألِـ «خشيةِ أن يكونَ فيها ما ليسَ في المصحف العثماني؟»[٥٤]!!! ولماذا لم يبقَ بين أيدينا اليومَ أيّةُ نسخةٍ من مصحف عثمان؟ وهو ما يقوله المسلمون أنفسهم: «إنّ الباحثَ ليتساءل: أينَ أصبحتِ المصاحفُ العثمانية الآن؟ ولن يُظفرَ بجوابٍ شافٍ على هذا السؤال»[٥٥].

وثَمّةَ روايةٌ تقول «بأنَّ المصحفَ المتداولَ إنّما هو مصحفُ الحَجّاج وجمعُه وترتيبُه ... وأنّ الحَجاجَ قد جمعَ المصاحفَ المتداولةَ ومصاحفَ عثمان وأبادَها»[٥٦]، وهي نظريةُ كازانوفا الذي «جعلَ الحَجّاج بن يوسف الثقفي أوّلَ جامعٍ للقرآن»[٥٧]. وردَّ الشيخُ صبحي بقوله: «ان كازانوفا لا يتورّعُ عن المجازفةِ بإلقاءِ حكمٍ صبيانيٍ لا يوافقُه عليه عاقلٌ بين الناس»[٥٨].

لا يعنينا هذا الخلاف كثيرًا بقدر ما يعنينا السؤالُ الدائم: لماذا أتلفَ الحَجاجُ مصحفَ عثمان؟ لو كانَ مصحفُ الحَجاج موافِقًا لمصحفِ عثمان لَمَا تجرّأ الحَجّاجُ على ذلك. علماً أنّ في الإتلافِ صعوباتٍ كثيرة، إنْ لجهةِ قدسيّةِ المصاحف، وإنْ لجهةِ ندرة الوَرَقِ و الرِقاع، وإنْ لجهةِ انتشارِ مصحفِ عثمان

(٥٤) انظر بلاشير، مقدمة القرآن (بالفرنسية)، ص ٧٠.

(٥٥) الشيخ صبحي، مباحث...، ص ٨٧، دروزة، القرآن المجيد، ٨٣ .

(٥٦) محمد عزّة دروزة، القرآن المجيد، ص ٨٣ .

(٥٧) كازانوفا، المرجع المذكور (بالفرنسية) ، ص ١٢٧ .

(٥٨) الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٨٨ .

في البـلاد الإسلامـيّة... فلو لم يكن تَعَـادُلٌ بين صعـوبات الإتلافِ من جـهة، وأهميّةِ الأسبـابِ الداعيةِ إليه، من جهةٍ ثانية، لَمَا تجـرّأ الحَجّاجُ على مثلِ هذا العملِ الكبير.

ثمّ هل إتلافُ الحجاجِ كـانَ بسببِ ضبطِ مصحفِ عثـمان وحسب ؟ أي هل كانتْ عـمليّةُ الإعـراب والإعجـام هي الداعيـةُ لهذا الاصلاح فـقط!!! ليسَ الأمرُ كمـا يبدو. بل هناكَ سببٌ جوهـريٌّ، هو اختلافُ المصاحفِ بعـضِها عن بعض. والخلافُ كان واضِحا جدًا، بل هو، كـما يقول ابن الخطيب، «تَناقضاتٌ واضِحةٌ فاضِحة»[٥٩].

وهناك أكثرُ من خلافٍ وتناقـضات: هناك، مثلاً، «آياتُ المائدةِ ويوسف والزّخرف والحديد، لم يقـرأْ بها أحدٌ من القرّاء، بل القراءةُ المشهـورة هي كما غيّرَها الحجّاج»[٦٠]. ليس الخلافُ، إذاً، وَقفاً على بعضِ كلماتٍ، بل هو أبعدُ من ذلك، هو الآن في مجالِ صحّةِ وجودِ بعضِ الآيات وبعضِ السّور.

وأخيراً، كـيف صحّحَ الحَجّاجُ مـصحفَ عثمان، واقـتضى لتصحـيحه إتلافُـه ؟ ثم استـبـقى فيـه غـوامضَ لا حَصْـرَ لهـا؟ هذه الغوامضُ رأى لهـا المسلمون حلاً فـي القراءاتِ السبع أو العشرِ أو الاربَعَ عَـشَرة. وهكذا، إنّ في الأمر عَوْداً على بَدء: لقد خَلَّصَ عثمانُ من «الأحرفِ السبعة» إلى حرفٍ واحد، وخَلَّصَ الحَجّاجُ من «الحـرفِ الواحد» إلى إصلاحِه وتنقيـحه، ثمّ هذا التنقيحُ والاصلاحُ أفضيا إلى غموضٍ أعظم. وهذا الغموضُ أوجدَ «القراءاتِ». وهكذا.

***

يبدو، بعـدَ كلّ هذا الغموض، أن مـعجزةَ القـرآن تكمن، لا في المصحفِ وإعجـازِه، بل في الرضوخِ إلى هذا الغـموض. إنّ التـسليمَ بما فعلَهَ الحَـجّاج،

---

(٥٩) ابن الخطيب، الفرقان، ص٧١.

(٦٠) المرجع نفسه، ص٥٠ – ٥٢ في الحواشي.

ومن قَبْلِهِ الخليفةُ مَروانُ بنُ عبد الملك، ومن قَبْلِهِ عثمانُ وعُمَر وأبو بكر، هو أمرٌ يدخلُ في عالمَ المعجزات من بابه الواسع.

قد لا يحتاجُ الله، لاعلانِ رسالتِه وانزالِ وحيه، الى مثل هذه المعجزة الكلاميّة، بقدرِ ما يحتاجُ الى عقولٍ تتقبّلُ هذه المعجزةَ وترضخ لها. واذا ما كانَ الإنسانُ بحاجةٍ الى تجسّدِ اللهِ وظهورِه ليتمكّنَ من إيمانه، فهو، في الوقت نفسه، لا يسعُه أن يقرّرَ الشكلَ الذي به يتجسّدُ الله. والمسلمون، هم الآخرون، جسّدوا اللّه، ولكن في كتاب منزلٍ، أزليٍّ أبديٍّ مُحكم.

ولمّا كان الكتابُ عرضَةً للتحريف والتصحيف والزيادة والنقصان والإقحام والتبديل ودسّ الشياطين...، عوّضَ المسلمون عنه بأنْ ردّوا الاعتبارَ إلى حاملِ الرسالةِ والوحي، فرفعوا محمّدًا الى مُقَامٍ يكادُ يكونُ إلهيًا. جعلوه فوقَ البَشَرِ. وأقاموا له الذكرى والاحتفالاتِ والأعياد، في الوقتِ الذي قالَ النبيّ عن نفسِه بانّه بشر كسائرِ الناس، وبأنّ الاعيادَ والاحتفالاتِ الطقسيةَ هي إحياءٌ لمراسِمِ الوثنيين وعبّادِ الأصنامِ والمشركين.

الفصل السابع

معجزة إعجاز القرآن

أولاً - إعجاز لغة القرآن

ثانياً - إعجاز أسلوب القرآن

ثالثاً - الحكم للغة أم للقرآن؟

رابعاً - معجزات القرآن في العلوم



مقدّمة الفصل السّابع

في إيمان المسلمين، إنّ «المعجزَة أمرٌ خارقٌ للعادة، مقْرُونٌ بالتحدِّي، سالِمٌ عن المعارَضة. وهي، إمّا حِسّيّة، وإمّا عقلية. وأكثرُ معجزاتِ بني إسرائيل كانتْ حسّيّةً، لِبَلادَتِهِم، وقِلّةِ بصيرتِهم. وأكثرُ معجزاتِ هذه الأمّة عقليةٌ، لِفَرْطِ ذَكائِهم، وكمالِ أفهامِهم؛ ولأنَّ هذه الشريعةَ، لمّا كانتْ باقيةً على صفحاتِ الدهرِ الى يومِ القيامة، خُصَّتْ بالمعجزةِ العقليّة الباقيةِ، ليراها ذُوو البصائر...

«انّ معجزاتِ الأنبياءِ انقرضتْ بانقراضِ أعصارِهم، فلم يشاهِدْها إلاّ مَنْ حَضَرَها. ومعجزةُ القرآنِ مستمرّةٌ الى يومِ القيامة، وخَرْقُه العادةَ في أسلوبِه وبلاغته وأخبارِه بالمغيبات؛ فلا يمرُّ عصرٌ من الأعصارِ إلاّ ويَظهرُ فيه شيءٌ ممّا أخبَر بِهِ أنّه سيكونُ، يدلّ على صحةِ دعواه»[1].

لقد جاءَ القرآنُ معجزةً في كلِ شيء : فهو معجزةٌ في تحدِّيه الأنسَ والجنَّ على أن يأتوا بمثلِه، أو بمثلِ سورةٍ منه. ومعجزة في بلاغته، وفي أخبارِه عن المستقبل وعن قَصَصِ الأوّلين وعن الضمائر من غير أن يَظْهَرَ ذلك منهم بقولٍ أو فعل. ومعجزة في ما يحتويه من النَظْمِ والتأليفِ والترصيفِ. ومعجزة في التأليفِ الخاصِّ بكلِ علمٍ بحيثُ نجدُ فيه كلَّ فَنٍ في مرتبتِه العُليا في اللفظِ والمعنى. ومعجزة في نَظْمِه وصحّةِ معانيه وتوالي فصاحةِ ألفاظه. ومعجزة في علم البيان الذي يُحتَرزُ به عن الخطأ في تأديةِ المعنى وعن تعقيدِه. ومعجزة في صَرْفِ الناس عن معارَضَتِه. ومعجزة في التئامِ كَلِمِه وَوُجُوهِ

(١) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ٢/١١٦ – ١١٧ .

إيجازِه المخالِفةِ لأساليب كلامِ العرب، ولم يوجدْ قَبْلَه ولا بَعْدَهُ نظيرٌ له[٢].

نشأ علمُ الإعجازِ منذ القدم، ووضعَ فيه المسلِمون الكتبَ، منها ما وصلَ إلينا، ومنها ما لم يصل. وقد يكونُ الجاحظُ (+٢٥٥هـ) أوّلَ من وَضَعَ بحثًا فيه، في كتابٍ أسماه «نَظْمُ القرآن»، أشارَ اليه في كتابِ«الحيوان»؛ ثمّ محمّد بن يزيد الواسطي (٣٠٦ هـ) وضعَ كتابًا في «إعجاز القرآن»، لم يصلْ الينا؛ ثم الرمّاني (+٣٨٤ هـ) وضع كتاباً في «الإعجاز»؛ والقاضي أبو بكر الباقلاني (+٤٠٣ هـ) في «إعجاز القرآن»؛ وعبد القاهر الجرجاني (+٤٧١هـ) في «دلائلِ الإعجاز».

وللمسلمين المعاصرين أيضا أبحاثٌ عديدة في هذا العلم، وأخصّهم السيّد محمّد رشيد رضا، والإمام الشيخ محمّد عبده، وسيّد قُطب في كتابه «التصوير الفني في القرآن»، والدكتور مصطفى صادق الرافعي في «إعجاز القرآن»... وغيرهم. وقد ركّز هؤلاء، بالإضافةِ إلى ما عني به الأقدمون، على سحرِ أسلوبِ القرآن وجَرْسِه وإيقاعِه وموسيقاه وفنِّه التصويري. كما ركّز غيرُهم على إعجازِ القرآن في العلومِ الحديثة، كعلم الطبِّ وعلم الفلكِ... وغير ذلك ممّا يشكّل موضوعَ هذا الفصل.

(٢) السيوطي، الاتقان، ٢/١١٨ - ١٢٢، حيث يسرد آراء المحدثين، أمثال : ابن عطية، والمراكشي، والاصبهاني، والامام الرازي، وابي بكر الباقلاني، والزملكاني، والنظام، وغيرهم ...

أولاً – إعجاز لغة القرآن

في معتقد المسلمين، إنّ القرآن نزلَ بلفظِه وحرفِه ومعناه، أي بلغتِه وأسلوبِه وعلومِه. إلاّ أنّ منهم من يقولُ بانّ اللهَ أنزلَ المعنى على جبريل، وجبريل لَقّنَه محمّدًا بلغتِه وأسلوبه المَلَكيّين؛ ومنهم من يقولُ بانّ النبيّ صاغَ معانيه بلغتِه وأسلوبه المُضَريّين؛ ومنهم مَن يقولُ بانَ اللهَ صاغَه بلغتِه وأسلوبه الإلهيّيَن.

وهذا الخلاف، على قِدَمِه، لا يُعْتَدُّ به، لأنّ ما في القرآن هو من عندِ الله، «كلٌّ من عند ربِّنا»[٣]، لا اختلافَ فيه[٤]، ولا عِوَج[٥]؛ ولا يسعُ أحداً أن يغيّرَ فيه حرفًا واحدًا، اذ «لا تبديل لكلماتِ الله»[٦] و «لا مبدِّلَ لكلماته»[٧]...ثمّ إنّ اللهَ أنزَلَ القرآنَ بلسانٍ عربيٍّ مبين[٨].

بسبب ذلك، أثبتَ الامامُ الشافعي، وابنُ جرير، وأبو عبيدة، والقاضي أبو بكر الباقلاني، وأبو فارس عدمَ وقوعِ شيءٍ في القرآنِ من غيرِ لغةِ العرب. وقد شدّدَ الشافعي النكيرَ على القائلينِ بذلك. وقال أبو عبيدة إنّما أُنزلَ القرآنُ

---

(٣) سورة ال عمران ٣/٧، انظر : القصص٢٨/٥٣.

(٤) سورة النساء ٤/٨٢.

(٥) سورة طه. ٢٠/١٠٧ ، انظر : ٢٠/١٠٨ ، ١/١٨

(٦) سورة يونس ١٠/ ٦٤ ، انظر : ٢٣/ ٦٢، ٣٥/ ٤٣، ٤٨/ ٢٣ ...

(٧) سورة الانعام ٦/ ١١٥، الكهف ١٨/ ٢٧، انظر : ٦/ ٣٤ ...

(٨) انظر: ١٦/ ١٠٣ ، ٢٦/ ١٩٥؛ ١٢/ ٢ ، ٣٩/ ٢٨ ، ٤٢/ ٧ ، ٤٣/ ٣، ٢٠/ ١١٣؛ ١٣/ ٣٧؛ ٤٦/ ١٢؛ ٦/ ٩٢؛ ١٤/ ٤؛ ٤٢/ ٧؛ ١٩/ ٩٧؛ ٤٤/ ٥٨...

بلسانٍ عربي مـبين، فمَن زعمَ أنّ فيهِ غيـرَ العربيةِ فقـد أعظَمَ القول. وقال ابنُ أوس: لو كانَ فيه من لغةِ غير العَربِ شَيءٌ لتوهَّمَ متوهِمٌ أنّ العربَ إنّما عجزتْ عن الإتيانِ بمثلِه، لأنّه أتى بلغاتٍ لا يعرفونها»[٩].

ولئن وقَع في القرآنِ ألفاظٌ من الفـارسيّةِ والحَبَشيّةِ والنَـبَطيّةِ وغيرها. فانّ ذلك، بحسبِ ابن جـرير، من «توارُدِ اللغات، فتكلّمتْ بهـا العربُ والفرسُ والحبشة بلفظٍ واحد»[١٠]. وقالَ غيرُه : «كلُّ هذه الألفاظ عـربيّةٌ صرفَة، ولكن لغةُ العـربِ متّـسعـةٌ جداً»[١١]. وقالَ أبو المـعالي عزيزي بـن عبدِ الملـك: «إنّما وجدتْ هذه الألفاظُ في لغةِ العربِ لأنّها أوسـعُ اللّغاتِ وأكثرُها ألفاظاً، ويجوز أن يكونوا (أي العـرب) سـبقـوا إلى هذه الألفـاظ»[١٢]. وقال آخـرون: «بأنّ الكلماتِ اليسيرةَ غير العربية لا تُخرِجه عن كونِه عربياً»[١٣].

إلاّ أنّ بعضَ المسلمين رأى في القرآن مئاتِ الكلمـاتِ من غيرِ لغةِ العرب. وقد أخرجَ ابنُ جرير عن أبي ميـسرة التابعي الجليل قال : «في القرآن من كلِّ لسان»[١٤]. ومثله قال سَعيد بنُ جُبـير، ووَهَب بن منبّه، وغيرهما... وفي رأيهم إنّ الحكمةَ من وقوعِ هذه الألفاظِ فيـه، «أنّه حوى علومَ الأوّلين والآخِرين، ونبأَ كلِّ شـيء. فلا بدّ أن تقعَ فـيه الإشارةُ إلى أنواعِ اللّغاتِ والألسنِ ليُـتِمَّ إحاطتَه بكلِّ شـيء؛ فاختبرَ له من كلِّ لغةٍ أعذبَها وأخفَّها وأكثرَها استعمالاً للعرب»[١٥].

وقد صـرَّح ابنُ النقيب بجَوازِ وجـودِ ألفاظٍ أعجمـيةٍ في القرآن، فـقال: «من خصائصِ الـقرآنِ على سائرِ كتبِ اللهِ المنزَلةِ التي نزلتْ بلغـةِ القومِ الذين

---

(٩) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن ١/ ١٣٥ – ١٣٦ .
(١٠) المرجع نفسه ١/١٣٦ .
(١١) المرجع نفسه.
(١٢) المرجع نفسه.
(١٣) المرجع نفسه.
(١٤) السيوطي، الاتقان ١/١٣٦ .
(١٥) المرجع نفسه.

أُنزلتْ عليهم، لم ينزل فيها شيءٌ بلغةِ غيرهم، والقرآنُ احتوى على جميع لغاتِ العرب، وأُنزل فيه بلغاتِ غيرهم من الرومِ والفرس والحبشة شيءٌ كثير»[١٦]... فالنّبيُّ العربيُّ مرسَلٌ إلى العربِ وإلى كلِّ أمّةٍ، وعقيدتُه يجب أن تُبلَّغ لجميعِ النّاس، فلا بدّ من أن يكون في كتابِه من لسانِ كل أمّة.

أمّا السيوطي فلا مانع عندَه من أن تكون بعضُ الألفاظ أعجميةً وقعتْ للعربِ فعرّبتها بألسنتِها وحوّلتْها عن ألفاظِ العَجَمِ الى ألفاظِها، فصارتْ عربيّةً، ثم نزلَ القرآنُ وقد اختلطتْ بكلامِ العرب. فمَن قالَ إنّها عربيّة فهو صادق، ومَن قالَ أعجميةٌ فصادقٌ أيضا[١٧]. ثمّ يسرد السيوطي حوالي مائة لفظة في القرآن هي من لغاتٍ متعددة، فارسيّةٍ وهنديّة، وحبشيّةٍ، وقبطيّةٍ، ونبطيّةٍ، وسريانيّةٍ، وعبرانيّةٍ، وبربريّةٍ، ويونانيّةٍ، وروميّة...[١٨].

أمّا ما جاءَ في القرآن من غيرِ لغة الحجازِ المَضَريّة فكثير. وقد قال أبو بكر الواسطي، في كتابِهِ «الإرشاد في القراءاتِ العشر»: ما «في القرآن من اللغاتِ خمسون لغة: لغة قريش وهذيل وكنانة وختم والخزرج وأشعر ونمير وقيس وغيلان وجرهم واليمن وأرد شنوءة وكندة وتميم وحمير ومدين ولخم وسعد العشيرة وحضرموت وسدوس والعمالقة وأنمار وغسان ومذحج وخزاعة وغطفان وسبأ وعمان وبنو حنيفة وثعلب وطيّ وعامر بن صعصعة وأوس ومزينة وثقيف وجذام وبلى وعذرة وهوازن والنمر واليمامة»[١٩].

وفي السيوطي سردٌ واسعٌ من الألفاظِ العربيّةِ غيرِ الحجازيّة[٢٠]،

---

(١٦) المرجع نفسه .

(١٧) السيوطي، الاتقان، ١/١٣٧ .

(١٨) انظر السيوطي، الاتقان، ١/١٣٧ – ١٤١ .

(١٩) السيوطي نقلا عن الواسطي، الاتقان، ١/١٣٥ .

(٢٠) انظر السيوطي، الاتقان ١/١٣٣ – ١٣٥ حيث ينقل بعض الالفاظ .

وكذلـك عند ابن الجوزي في كـتابه «فنون الأفنان في القـرآن بلغة هـمدان». وقال ابن عبد البـرّ في «التمهيد»: «قول من قال نزلَ بلـغةِ قريش معناه عندي الأغلب، لأنّ غيـرَ لغةِ قريش مـوجودةٌ في جمـيعِ القراءات»[٢١]. وقال الشيخ جمالُ الدين بن مالك: «أنزلَ اللهُ القرآنَ بلغةِ الحجازيّين إلاّ قليلاً»[٢٢].

واذا شِئـنا المقارنةَ بين لغـات قريش وسـائر لغاتِ العـرب لطالَ الكلام، ولكن، إثباتا لهذا الموضوع الخطيـر، لا بدّ من الإشارة إلى بعض الفروقات، إنْ من جهة الإدغـام والفكّ، وإنْ من جهةِ اعتـمادِ النصب في المنقَطِع (أي النصب في الاستثناء بعد إلاّ)، وإنْ من جهةِ الفتح والإمالَة، وإنْ من جهة الهمزِ وعدمه، أو التثقيلِ والتفخيم، أو الإخفاء والإقلاب، أو المدّ والقصـر... الى غير ذلك[٢٣].

***

وبالنتيـجة، إنّ القولَ بانّ القرآن نزلَ بلسـانٍ عربي مُبين، وبلغةٍ عـربيّةٍ قرشيّةٍ صافيةٍ خالصةٍ، هو قولٌ جـزافٌ، يحوم حولَه كثيرٌ من الشبهات. ولئن سلّمنا بقـول الواسطي بانّ «كـلامَ قـريش سهلٌ لـينٌ واضـحٌ، وكلامَ العـرب وحشيٌّ غريب»[٢٤]، فانّ ذلك يجـعلنا نتساءل عن مـدى فصاحةِ كـلام القرآن وبلاغته اللغويّة لما فيه من غير لغة قُريش.

ولكثـرةِ وجـودِ لغاتٍ عـربيّـةٍ عـديدةٍ في القـرآن، راحَ بعضُ المسلمين والمستشرقين يقاربون بين لغةِ القرآن ولـغةِ الشعر الجاهلي. فعلى أساس هذا الشعر نسطيعُ فَهْمَ بعضِ ما في القـرآنِ من غرائب اللغة. ومن هنا نتساءل مع الإستاذ الحداد: «أنَزَلَ القـرآنُ بلغةِ نَجْدٍ؟ أم جُمِعَ بلغةِ نجـدٍ؟ أم قُرِئ بلغةِ نجد

---

(٢١) عن السيوطي، الاتقان، ١/ ١٣٥ .

(٢٢) المرجع نفسه .

(٢٣) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، انظر الصفحات التالية : ١/ ٨٣– ٨٩، / ٨٩/ ٩٠ ،١/ ٩١–٩٤ ، ١/ ٩٤–٩٦، ١/ ٩٦– ٩٨ ، ١/ ٩٨–٩٩، ١/ ١٣٥...

(٢٤) السيوطي، نقلا عن «الارشاد «للواسطي، ١/ ١٣٥ .

على خلافِ المتواتر؟ وإذا نَزَلَ بلغـةِ قريش فكيفَ نقرأُ بلغةِ نجد؟ أو بلغـةٍ غير قرشـيّة؟ أمِنَ الأمـانَةِ كتـابةُ القـرآنِ بلغةٍ لم ينزلِ بهـا؟ أم آلف النبي، أو آلف الصحابة من بعده، بين لغةِ القرآن ولغـةِ الشعر الجاهلي التي كانتْ لغةَ الأدبِ والكلامِ الجميل؟ كلّها أسـئلةٌ وشبهاتٌ يحار فيـها المؤرّخ الأديب. وقد استنتج بعضُهم من ذلك شبهةً على صحّةِ لغةِ القرآن وعلى صحّة إعجازها»[٢٥].

***

في كل حـال، إنّ المعجزة هي في كـلّ حرفٍ من حروفِ القـرآن. بل كلُّ حـرفٍ منقَطِعٍ هو، في ذاته، مـعجـزة. والدليلُ، في رأي المسلمين من «فـواتِح السُوَرِ» الواردة في سبعٍ وعشرين سورة. وهي الـ «ن» في سورة القلم، والـ «ق» في سـورة ق، والـ «حم» في سُــوَرِ الأحـقـاف، والجـاثيـة، والدخـان، والزخرف، والشورى، وفصّلتْ، وغافر، والـ «ص» في سورة ص، و«يس» في سورة يس، و«ألم» في سُوَرِ السجدة، ولقمان، والروم، والعنكبوت، و «طسم» في سورة الـقصص، و«طس» في سورة الـنمل، و«طم» في سورة الشـعراء، و«طه» في سورة طه، و «كهيعص» في سـورة مريم، و«ألر» في سُوَرِ الحجر وإبراهيم والرّعد ويوسف وهود ويونس، و «المص» في سورة الأعراف. كلُّ حرفٍ من هذهِ الحروف فيـه، بحسب إجماعِ المفسّرين، مـعجزةٌ لا يعلَم مرادَه إلاّ الله. فكيفَ بنا بالكـلمات والألفـاظ والتعـابيـر والأسلوب والصّوَر الفنّيّـة كلّها!!!

---

(٢٥) الاستاذ الحداد، القران والكتاب، ٢ / ٣٢٣ .

ثانيًا – إعجاز أسلوب القرآن

في إيمان المسلمين، إنّ القـرآنَ معـجَزٌ في بيـانِه وبديعه، أي في نَظـمِه وتأليفِه ورصـفِه، وفصاحتِـه وبلاغتِه، وصُوَرِه وتعابـيرِه، وإيجازِه وإطنابِه، وتشابـيهه واسـتعـاراتِه، وحقـيقتـه ومجـازِه، وكنايتِه وتعـريضِه، وخَـبَرِه وإنشـائه، وشعـرِه ونثـرِه، ووزنِه وفَواصِـله، وجُمَلِه ومـفـرداته، وسِحـرِه وموسيقـاه، واختيارِ حروفِه ووجـوهِه وضمائرِه ، ومقدَّمِه ومـؤخَّرِه، وعامِّه وخاصِّه، ومُجمَلِه ومبيَّنِه، وقَصَصِه وأمثالِه، وأقسامه وأجزائه[٢٦]...

بهـذا الأسلوب المعجـز في كلِّ شيء، «تحدّى القـرآنُ فصـحـاءَ العـرب بمعارضتِه لهم، وطاَولهم في المعارضـة، ولكنّهم انهزَموا أمامَ تحدِّيه، وأعلنوا عجزَهم عن تقليدِه، لأنَّه يَعـلو ولا يُعلى، وما هو بقولِ بَشر»[٢٧]، و «لا ريبَ أنّ العربَ المعاصرين للقرآنِ قـد سُحِروا، قبلَ كلِّ شيءٍ، بأسلوبه الذي حاولوا أن يعـارضُوه، فـما اسـتطاعوا، حـتى إذا فهـموه أدركـوا جَمَـالَه، ومَسَّ قلوبَهم بتأثيرِه»[٢٨]. وهذا الجانبُ الـفنيُّ الخالصُ كان «كـافيـاً لإثباتِ فكرةِ الإعـجاز وخلودِ القرآنِ بأسلوبه الذي يَعلو ولا يُعلى... فما إعجازُ هذا الكتاب الكريم إلاّ سحْرُه. ولقد فعَلَ سِحرُه هذا فِعلَه في القلوب»[٢٩].

---

(٢٦) هذه كلّها أبواب بيانيّة عالجها المسلمون مطوّلاً في موضوع "إعجاز القرآن".

(٢٧) الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٣١٣.

(٢٨) المرجع نفسه، ص ٣٢٠.

(٢٩) المرجع نفسه، ص ٣٢٠ – ٣٢١.

١. لقد سُحِرَ المسلمون في معرفة **«الوجوه والنظائر»**[٣٠] لمّا وجدوا «الكلمةَ الواحدةَ تنصرفُ إلى عشرينَ وجها وأكثر وأقلّ، ولا يوجد ذلك في كلامِ البشر»[٣١]. ومن أمثلةِ ذلك : «الهُدَى» فهو يأتي على سبعةَ عشَرَ وجهًا[٣٢]، و«السّوء» وهو يأتي على أوجهٍ عديدة[٣٣]، والصلاة، والرحمة، والفتنة، والرّوح، والقضاء، والذكر، والدّعاء.. وغير ذلك[٣٤].

٢. وسُحِروا بالقرآن **«يستعيرُ»** ألفاظَه من عالَمِ الإنسان إلى عالَمِ الأشياء، فيَجعلُ، مثلاً، الصبحَ يتنفّسُ في قوله: «والصبحُ اذا تنفّس»[٣٥]. ويجعلُ القذفَ والدمغَ للحقِ والباطل في قوله: «بل نَقذفُ بالحقِ على الباطِل، فيدمغُه فاذا هو زاهِق»[٣٦]. و«يَجعلُ لجهنم شخصيةً آدميّةً لها انفعالاتٌ وجدانيّة، وخَلَجاتٌ عاطفية، فهي تَشهَقُ شهيقَ الباكين، وهي تَغضبُ وتثور، وهي ذاتُ نَفْسٍ حادّةِ الشعور»[٣٧] في قوله: «اذا أُلْقُوا فيها (في جهنم) سَمِعوا لها شهيقًا وهي تَفور، تكادُ تَمَيَّزُ من الغيظِ»(٦٧/٧-٨).

٣. وسُحِروا بالقرآنِ ينزع **«التشابيه»** من أمورٍ مختلفةٍ مجموعةٍ بعضها الى بعض، فيقول مثلاً: «كَمَثَلِ الحمارِ يحملُ أسفارًا»(٦٢/٥). وسِحْرُ هذا الكلام في القرآن هو في حرمانِ الحمارِ من «الانتفاعِ بأبلغِ نافعٍ مع تحمّلِ التعبِ في استصحابِه»[٣٨]. ويقول أيضا: «إنّما مَثَلُ الحياةِ الدنيا كماءٍ أنزلناه

---

(٣٠) الوجوه اللفظ المشترك الذي يستعمل في عدة معان، والنظائر هي الالفاظ المتواطئة المترادفة التي معناها واحد في مواضع كثيرة، انظر الاتقان، ١٤١/١.

(٣١) المرجع نفسه .

(٣٢) المرجع نفسه.

(٣٣) المرجع نفسه.

(٣٤) انظر ذلك في المرجع نفسه.

(٣٥) سورة التكوير ١٨/٨١. انظر: الشيخ صبحي، مباحث ... ص ٣٢٤ .

(٣٦) سورة الانبياء ١٨/٢١. المرجع نفسه .

(٣٧) الشيخ صبحي الصالح، مباحث ... ، ص ٣٢٥ .

(٣٨) الشيخ صبحي الصالح، مباحث... ص ٣٢٢ نقلا عن السيوطي، الإتقان ٤٢/٢ - ٤٣ .

من السماء... لم تغنِ بالأمس»(١٠/ ٢٤)؛ يقول الشيخ صبحي في سحر هذا القول: «إنّ فيه عشرَ جُمَل وقعَ التركيبُ من مجموعها، بحيث لو سقطَ منها شيءٌ اختلّ التشبيه، فـ «تمّ لهذا المشهد القرآني من الإعجاز بالألفاظ الجامدةِ ما لا يتمّ من الإبداعِ بالريشة والألوان»[٣٩].

٤. وسُحِروا بالقرآن يستعملُ **«المَجازَ اللّغوي»** الذي فيه يكونُ اللفظُ في غير ما وُضِعَ له، مثل قوله: «يجعلونَ أصابعَهم في آذانِهم من الصواعقِ حَذَرَ الموت»(٢/ ١٩). ويستعملُ أيضاً **«المجازَ العقلي»** الذي يكون أحدُ طرفَيهِ حقيقيّا دونَ الآخر، مثل قولِه: «وأمُّه هاويهْ»(١٠١/ ٩). واعتبر المسلمون أنّه «لو سقَطَ المجازُ من القرآنِ لسقطَ منه شَطْرُ الحَسَن»[٤٠].

٥. وسُحِروا بالقرآن يستعملُ **«الكناية»** لأجل الرمزِ والإيماء، قَصْدَ تحاشي كلامٍ لا يجملُ فيه التصريح. فاذا أرادَ، مثلا، التعبيرَ عن التناسلِ والمعاشَرَةِ الزّوجيّة ومضاجعةِ الأزواج، استعملَ لفظةَ «الحَرْث» في قوله: «نساؤكم حَرْثٌ لكم، فأتوا حَرْثَكم أنّى شِئتم»(٢/ ٢٢٣). ومن قبيلِ الخفَرِ أيضاً، قال عن النّساء: «هنَّ لِباسٌ لكم وأنتم لِباسٌ لهنّ»(٢/ ١٨٧). ويبدو أنّ «الكناية»، في نظر المسلمين، هي «من أبلغِ الأساليب»[٤١]...

ولكن، إذا كان اللهُ يَسْتَعْفِفُ في ذِكر النساءِ والنِكاح والمضاجَعةِ في هذه الآيات، فلماذا هو يستعمل، في أمكنةٍ أخرى كثيرة، لفظةَ «النِّكاح»، مثلا، وهي

ومن هذا القبيل الآيات : «فاصدع بما تؤمر» (الحج ٩٤)، «فوجد فيها جدارا يريد ان ينقضّ فأقامه» (الكهف٧٧)، و «واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرّقوا» (٣/ ١٠٣)، وتركْنَا بعضَهم يومئذ يموج في بعض (الكهف ٩٩) ...إلخ.

(٣٩) مباحث في علوم القرآن، ص ٣٢٢ – ٣٢٥ ، نقلا عن السيوطي في الاتقان ٢/ ٤٢ – ٤٣. وهو يستفيض في اظهار سحر هذه الآية وإعجازها البياني الى درجة أنِ اعتبر السيوطي وبلغاء المسلمين مقصّرين فيما بيّنوه في القرآن وفصاحته.

(٤٠) انظر السيوطي، الاتقان ٢/ ٣٦ – ٤٦ ...

(٤١) الشيخ صبحي ، مباحث... ص ٣٣٠ .

تعني، عند العرب، لا التزويجَ وحسب، بل «الوطء» غالباً. وبهذا المعنى فسّر الأزهري آيةَ «الزاني لا ينكح إلاّ زانية أو مُشركة، والزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مُشرِك»(٢٤/٣)، فقال: «أصلُ النكاح في كلامِ العرب الوطء، وقيل للتزوّجِ نكاح، لأنّه سبب الوطء المباح»[٤٢]. وهو أيضا تفسير الجوهري، وسبيعة، وغيرهم[٤٣].

ونتساءل أيضاً: لماذا لم يتورّع اللهُ من ذكرِ «حبِّ الشهوات من النساء»(٣/١٤)، و«اعتزال النساء في المَحيض»(٢/٢٢٢)، ومراودةِ النساء للفتيان(١٢/٣٠)، ومسّ النساء(٢/٢٣٦)، ونكاح ما طاب للرجال منهنّ (٤/٣)، وملامستهنّ قبل الصلاة خشيةَ النجاسة، وان لم يكن ماء للتطهير فبالتراب(٤/٤٣)، وذكر عورات النساء، وإظهارها للطفل(٢٤/٣١)، وذكر الذين يأتون الرجال شهوةً من دون النّساء(٧/٨١)، ووطء النساء (٤٨/٢٥)، والرفث إليهنّ(٢/١٨٧)، والدخول بهنّ(٤//٢٣)، إلخ... فهل هذه التعابير هي من العفّة في شيء حتى لم يستعملِ اللهُ لها بعضَ «الكناية»؟!!

٦. وسُحِرَ المسلمون بما في أسلوبِ القرآن من **«إيجاز»**. والإيجاز هو جمعُ المعاني الكثيرة بالألفاظِ القليلة. وقد شدّدَ الجاحظُ على هذه المعجزة القرآنية، ويستشهدُ، لأجل حجّته، بوصفِ خمرةِ أهلِ الجنّة : « لا يُصَدَّعُونَ عنها ولا يُنزِفُون»(٥٦/١٩)، أي: لا يَحصل لهم منها صُداعٌ ولا ذهابُ عقلٍ؛ ويقول: «هاتان الكلمتان جَمَعَتَا جميعَ عيوبِ خمرِ أهلِ الدنيا». ويدلّ على الإيجاز، أيضاً، في قول القرآن عن فاكهة الجنّة» «لا مَقطوعةٍ ولا مَمْنوعَةٍ» (٥٦/٣٣)، أي: لا مقطوعة بزمن ولا ممنوعة بثمن؛ فيقول: «جَمَعَ القرآن، بهاتينِ الكلمتين، جميعَ تلك المعاني»[٤٤].

---

(٤٢) لسان العرب، ٢/ ٦٢٥ مادّة : «نكح».

(٤٣) انظر لسان العرب، ٢/ ٦٢٥ – ٦٢٦ . ترد لفظة نكاح ٢٥ مرّة.

(٤٤) عن الرافعي، في تاريخ اداب العرب ٢/ ٥٢ حاشية

٧. وسُحِر الجرجاني ببعضِ **الصُّوَر الجَمالية الفنيّة**، ويستشهدُ بقول القرآن: «واشتعلَ الرأسُ شَيْبًا»(١٩/٤)، وقوله: «فجّرْنا الأرضَ عيوناً» (٥٤/١٢)[٤٥]، فيرى في هذا الكلام كلَّ أنواعِ الاستعارةِ والشمولِ والاسناد.

٨. وسُحِرَ الرافعي **بموسيقى** القرآن في ترتيب حروفه «باعتبارٍ من أصواتِها ومخارجِها، ومناسبةِ بعض ذلك لبعضِه مناسبةً طبيعية في الهمْس والجهْر، والشِّدّة والرّخاوة، والتّفخيم والتّرقيق، والتّفشّي والتّكرير»[٤٦]، ويعطينا من القرآن هذا المثل: «ولقد أنذَرَهُم بَطْشَتَنا فَتَمَارَوا بالنُّذُر» (٥٤/١٢)، ويدعونا الى التأمّل في موسيقاه وجماليّاته، فيقول : «تأمّل هذا التركيب، وأنعِمْ ثمّ أنعِمْ على تأمّله، وتذوّقْ مواقعَ الحروفِ، وأجْرِ حركاتها في حسّ السَمْع، وتأمّلْ مواضِعَ القَلْقَلَةِ في دالِ «لَقَدْ»، وفي الطاء من «بَطشَتَنا»، وهذه الفَتْحَات المتوالية فيما وراءِ الطاء الى واو «تَمَارَوا» مع الفصْلِ بالمدّ، كأنّها تثقيلٌ لخفّةِ التّتابع في الفَتحات إذا هي جَرَتْ على اللّسان، ليكونَ ثِقْلُ الضَّمّةِ عليه مستخفّاً بعد، ولِتكونَ هذه الضَّمّةُ قد أصابتْ موضعَها، كما تكونُ الأحماضُ في الأطعمة»[٤٧].

هذه الموسيقى في ألفاظ القرآن وحروفِه، كما يلاحظُ الرّافعي على ذلك أيضاً، «لم تُعْرَفْ قطّ في كلامٍ عربيٍّ غيرِ القرآن. وبها انفردَ نَظمُه، وخرجَ ممّا يطيقُه الناس»[٤٨]. «هذا النّظْمُ، كما يقول صبحي الصالح، يشبه السحرَ، وهو الذي ألّفَ العربَ، على تعاديهم، وكوّن منهم أمّةً واحدةً، تطربُ لِلَحْنٍ واحدٍ، تجتمعُ عليه قلوبُها في الأرض، بينما ترتفعُ به أرواحُها في السماء»[٤٩].

---

(٤٥) أنظر مباحث في علوم القرآن للشيخ صبحي الصالح، ص ٣١٥.

(٤٦) الدكتور مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، ٢/٢٢٥ .

(٤٧) الرافعي، نفس المرجع، ٢/٢٣٩ .

(٤٨) المرجع نفسه ، ٠٢٢/٢٦٠ .

(٤٩) الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٣١٩ .

٩. أمّا سيّدُ قطب فسُحِرَ **بالتصوير الفنّي** الذي «هو الأداةُ المفضَّلَة في أسلوبِ القرآن». هذا التصوير «يُعبّرُ بالصّورةِ المحسّة المتخيّلة عن المعنى الذهني والحالةِ النفسية، وعن الحادث المحسوس والمشهَدِ المنظور، وعن النموذَجِ الإنساني والطبيعةِ البشرية. ثمّ يرتقي بالصّورةِ التي يرسُمها فيمنحها الحياةَ الشاخصة، أو الحركةَ المتجدِّدة. فإذا المعنى الذهني هيئةٌ أو حركةٌ، وإذا الحالةُ النفسيةُ لوحةٌ أو مشهَدٌ، واذا النموذَجُ الإنساني شاخِصٌ حيٌّ، وإذا الطبيعةُ مجَّسمَةٌ مرئيّةٌ الى درجة يَنسى المستمِعُ أنّ هذا كلامٌ يُتلى، وَمَثَلٌ يُضرب، وحادِثٌ يَقع. إنّها الحياةُ هنا، وليستْ حكايةَ الحياة... بهذا ندرِكُ موضِعَ الإعجازِ في تعبير القرآن»[٥٠].

ويتوقّف الشيخُ صبحي الصالح، للدلالةِ على معجزة إعجاز القرآن، على ما تعلّم في مقالةِ «الفنِّ والجمال»، فيرى «هذه الموسيقى الداخليةَ تنبعثُ في القرآن، حتى من اللفظة المفردة في كل آية من آياته، فتكاد تستقلّ –بجَرسْها ونَغَمها– بتصويرِ لوحةٍ كاملةِ اللّونِ زهيّا أو شاحبا، وفيها الظلُّ شفيفا أو كثيفا»[٥١].

ويستدلُّ الشيخ، من آيات كثيرة، على جَمَال الحروفِ القرآنيّة في مواقعها، فيستهويه، مثلاً، «هَمْسُ **السّينِ** المكرَّرَةِ في قولِ القرآن «فلا أُقسِمُ بالخُنَّسِ، الجَوَاري الكُنَّسِ، واللّيلِ إذا عَسْعَسَ، والصُبحُ اذا تَنَفَّسَ»(٨١/ ١٥–١٨). وتقع في نفسه الرهبةُ وهو يسمَعُ «صوتَ **الدالِ** المنذِرَةِ المتوعِّدَة، مسبوقةً بالياءِ المشبعةِ في لفظة «تَحِيدُ» في قوله: «وجاءتْ سكرةُ الموتِ بالحق: ذلك ما كنتَ منه تَحِيد»(٥٠/ ١٩). ويُضْرَبُ بالذّعرِ لدى سَماعه كلمةَ «زُحْزِحَ» تُصَوِّرُ مشهدَ الإبعادِ والتنحية بكلِّ ما يقعُ في هذا المشهد من أصوات «في قوله: «فَمَنْ زُحزِحَ عن النّار وأُدخِلَ الجنَّةَ، فقد فَاز»(٣/ ١٨٥).

---

(٥٠) سيّد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص ٣٣...

(٥١) مباحث في علوم القرآن، ص ٣٣٤.

ويستولي عليه القَلَقُ وهو يَقرأ هَاءَ السكْتِ في سورةِ الحَاقَـةِ «ما أغنى عَنِّي ماليَهْ، هَلَكَ عني سُلطانِيَهْ»(٧٩/٢٩). وَيأخذُه من الغيظ مثلَ مـا يأخذُ جهنمٌ حين يتسمَّعُ لفظَ «تَمَيَّزُ من الغَيْظِ»(٦٧/٨). وتنقبضُ شفتاه استقباحًا واستهجَانًا عندما يسمَعُ القرآن يقولُ «ويُسْقَى (الكافر) من ماء صديد يَتَجَرَّعُه»(١٤/١٧). ويكاد يُكَبّ على وجهِهِ ومِنخارِه لسَماعِه «فَكُبْكِبُوا فيها هُم والغاوون»(٢٦/ ٩٤)... الى ما هنالك من ألفاظٍ وحروفٍ وكلماتٍ تعبّر عن لوحة كاملة[٥٢].

واذا كان هذا شأن الحروف فكيفَ بكَ بالآياتِ والسُّوَرِ الكاملةِ التي، اذا ما قرأها المؤمن، «يوقظ نَسَقُها الرائعُ قلبَهُ، ويهزّ إيقاعُها العجيبُ مشاعرَه»[٥٣]. ولئن كان الجنُّ سُحِروا بما سمِعوا من القرآنِ، فكيف بالعَرَب!!! ألواقعُ، بنظرِ الشيخ صبحي، «إنّ القرآنَ نسيجٌ واحدٌ فـي بلاغتِه وسحرِ بَيانه، إلاّ أنّه متنوعٌ تنوُّعَ موسيقى الوجودِ في أنغامِه وألحانه»[٥٤]. و«إنْ هو إلاّ أسلوبٌ يؤدّي غرضَه كاملاً غيرَمنقوصٍ، يلينُ أو يشتدّ، ويهدأ أو يهيج! ينسابُ انسيابا كالماء اذ يسقي الغراس، أو يعصفُ عَصفا كأنّه صَرْصَرٌ عاتيةٌ تُبهرُ الأنفاس»[٥٥].

(٥٢) الشيخ صبحي، مباحث...، ص ٣٣٥– ٣٣٦.

(٥٣) المرجع نفسه، ص ٣٣٦.

(٥٤) المرجع نفسه، ص ٣٣٤ .

(٥٥) المرجع نفسه ص٣٤٠ ،

ثالثًا – الحكمُ للّغة أم للقرآن؟

إذا كان الأمرُ، كما يقولُ الشيخ الدكتور صبحي الصالح، «إنّنا نجعلُ القرآنَ حكَمًا على قواعِدِ اللغة والنَحْوِ، ولا نجعلُ القواعِدَ حكَمًا على القرآن»[٥٦]، فأنّنا، بهذا المنطق، فَقَدْنَا القاعدةَ التي عليها نُرسي نظريّاتِنا في إعجاز القرآن وبلاغة القرآن وفصاحتِه. وعلينا أن نسأل، والحالةُ هذه، ما هو الفرقُ، في القرآن، بين "الفصيحِ والأفصح"؟ وكيف هو؟ و«لِمَ لمْ يأتِ القرآنُ جميعُه بالأفصح"[٥٧]؟ على ما تساءَل الشيخُ عزُّ الدين بن عبد السلام. والجواب عند الصدر موهوب الجزري: «إنّه لو جاءَ القرآنُ على ذلك لكانَ على غيرِ النمطِ المعتادِ في كلامِ العرب»[٥٨]. أي، إنّ القرآنَ تحدّى العربَ، لا في أفصَحِه وحسب، بل في فَصيحه أيضا...

إلاّ أنّنا نقول: إذا كان لا يسعنا الحكم على القرآن من قواعِد اللغة، أفلا يسعنا الحكم على القرآن بالقرآنِ نفسه؟! ألواقع، إنّ القرآن لا يستوي كلُّه في درجةٍ واحدةٍ من الفصاحة والبلاغة. وفيه نجدُ تراكيبَ غيرَ صحيحة: فبعضُه يضحّي بالمعنى مُراعاةً للفاصلة[٥٩]، وبعضُه يتقدَّمُ على بعض، وبعضُه يختلف في مرجع الضمائر الى ما تضمر عنه، وبعضه يقيِّد بالتّخصيصِ ما قد جرى

(٥٦) الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٢٥٨.

(٥٧) السيوطي الإتقان، ٢/١٢٣.

(٥٨) المرجع نفسه.

(٥٩) الفاصلة في القرآن هي قافية الآيات المسجّعة، وهي توازي قافية الشعر. ولكنّ المسلمين ابتغوا لها هذه التسمية ابعادا عن الشعر.

تعميمُه... وعندنا، على كل ذلك، أدلّة من القرآن نفسه :

١. ففي ما **تقدّم وتأخّر** في القرآن من كلماتٍ وآيات، نجدُ قولَه: «أنزلَ على عبدِه الكتابَ، ولم يَجعلْ له عِوَجًا قَيّما»(١٨/ ١)؟ فيما الصحيح: أنزلَ على عبدِه الكتابَ قَيّما، ولم يجعلْ له عِوَجًا. فالكتاب هو القيّم وليس العِوَج.

ونجدُ أيضاً قوله: «فقالوا: أرِنَا اللهَ جَهرةً»(٤/ ١٥٣)، والصحيح، كما قال ابنُ عباس وابنُ جرير: قالوا جهرةً: أرِنا الله. أي: إنّ سؤالَهم كانَ جهرة، وليس الله.

ومن ذلك قوله: «أفرأيتَ مَنِ اتّخذَ إلهَه هواه»(٢٥/ ٤٣)، والمعنى الصحيح: من اتّخَذَ هواهُ إلهَه، لأنّ من اتّخذَ إلهَه هواه فهو غيرُ مذموم.

وقوله: «فضحكتْ فبشّرناها»(١١/ ٧١)، والصحيح : فبشّرنَاها فضحكتْ.

وقوله: «ولولا كلمةٌ من ربّكَ لكانَ لزامًا وأجَلٌ مسمّى»(٢٠/ ١٢٩)، والصحيح: ولولا كلمةٌ وأجَلٌ مسمّى لكان لزاما.

ومنه: «يسألونك كأنّك حَفِيّ عنها»(٧/ ١٨٧)، والصحيح: يسألونك عنها كأنّك حفيّ.

ومنه قوله: «فلا تُعجبُك أموالُهم ولا أولادُهم إنّما يُريد اللهُ ليعذّبَهم بها في الحياةِ الدنيا»(٩/ ٥٥)، والصحيح: لا تعجبُك أموالُهم ولا أولادهم في الحياةِ الدنيا، إنّما يريدُ الله ليعذبَهم بها في الآخرة.

الى ما هنالك من أمثلة في القرآن، على هذا النمط، وقد رأى لها المسلمون ألفَ تفسير وتفسير، إثباتا لمعجزة الإعجاز في الكتاب العزيز[٦٠].

(٦٠) انظر السيوطي، الاتقعان٢/ ١٣-١٦ .

٢. وفي القرآن أيضا **شبهةٌ في مرجعِ الضمائر** الى أصحابها. فيحتارُ القارئ في المعنى المقصود:

ففي قوله، مثلاً: « إليهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَيِّبُ، والعملُ الصالحُ يَرْفَعُهُ» (٣٥/ ١٠). إنّ الضمير في «يرفعه» إمّا يعود الى ما عاد اليه ضمير «إليه» وهو الله، وإمّا يعود الى «العمل». والمعنى في كلتا الحالتين: ان العملَ الصالح هو الذي يرفعُه الكَلِمُ الطيّب، أو أنّ الكَلِمَ الطيب، وهو التوحيد، يرفعُ العملَ الصالح، لانه لا يصح العمل الاّ مع الايمان[٦١].

وفي قوله أيضا : «أنِ اقذفيهِ في التابوتِ، فاقذفيه في اليمّ»(٢٠/ ٣٩). إنّ الضمير في «اقذفيه» الثانية يرجِعُ الى التابوت، وفي الأولى يرجع الى موسى. وعلى ذلك يعلّق الزمخشري: «رجوعُ بعضِها (أي الضمائر) اليه (أي الى موسى) وبعضِها إلى التابوت، فيه هجنة»[٦٢].

وفي قوله: «ولا تَسْتَفْتِ فيهم منهم أحدًا»(١٨/ ٢٢). ضمير «فيهم» لأصحابِ الكهف، وضمير «منهم» لليهود. وهذا غير جائزِ.

٣. وفي القرآن **كلامٌ يبيّنه كلامٌ آخر في زمنٍ آخر** وآياتٍ أخرى لاحقة. مثل قوله: « وجوهٌ يومئذٍ ناضرة الى ربّها ناظرة»(٧٥/ ٢٢)، وهو دالّ على جواز الرؤية. ثمّ يقول: «لا تدركه الأبصار»(٦/ ١٠٣)، وهو دالّ على نفي الرؤية. وغير ذلك كثير، على ما يقول السيوطي[٦٣].

٤. وفي قراءة القرآن تستوقفنا **غراباتٌ** كثيرةٌ، منها:

لماذا جاءت لفظةُ «أَحَد» في صيغةِ النكرة، ولفظةُ «الصَمَد» في صيغة

---

(٦١) انظر السيوطي، الاتقان ٢/ ١٩ .

(٦٢) انظر السيوطي، الاتقان ١/ ١٧٨ ...

(٦٣) انظر السيوطي، الاتقان ٢/ ١٨ – ٢٠ .

التعريف، في قوله: «هو الله أحد، الله الصمد»(١١٢/ ٢)؟

ولماذا جاءت لفظةُ «خالِصَــة» مؤنّثة، ولفظةُ «محرَّم» مـذكّرة، في قوله: «ما في بطونِ هذه الأنعام خالِصــة لذكورنا ومُحرّم على أزواجنا»(٦/ ١٣٩). إلاّ أنّ المفسّرين رأوا لهـا حجّة، وهي ان «مُحرّم» ترجع الى «مــا»، و«خالصة» ترجع الى «الأنعام». فهل هذا صحيح؟

ولماذا أجاز القــرآنُ التأنيثَ في مكانٍ، ولم يُجزْه في مكان آخــر، في مثل قوله: «إعجــازُ نَخْلٍ خَاوية»(٦٩/ ٤)، و«إعجاز نخل مُــنْقَعِر»(٥٤/ ٢٠). وفي «إنّ البقَر تشَابَه علينا»(٢/ ٧٠). وحجّة التــذكير عند المفسرين هو أنّ «جنسه تشابَه علينا»[٦٤]. وفي قوله «السمــاءُ منفطِر»(٧٣/ ١٨)، وفي مكان آخر: «اذا انفطرتِ السماء»(٨٢/ ١). وفي قولــه: «جاءتْها ريحٌ عاصفٌ»(١٠/ ٢٢)، وفي مكان آخرٍ: و«لسليمان الرّيحُ عاصفةٌ»(٢١/ ٨١)... إلى غير ذلك.

٥. ثمّ أيّهمــا أصحّ؟ قوله: «أدخلوا البابَ سُجَّـدًا وقولوا حِطَّة»(٢/ ٥٨)، أم قوله في مكان آخر: «قولوا حطّةٌ وادخلوا البابَ سُجَّدا» (٧/ ١٦١).

وقوله: «ما أُهِلَّ بِهِ لغير الله»(٢/ ١٧٣)؟ أم قوله في مكان آخر: «ما أُهِلَّ لغيرِ اللهِ به»(٥/ ٣؛ ٦/ ١٤٥؛ ١٦/ ١١٥)؟

وقــوله: «يكون الدِّينُ للــه»(٢/ ١٩٣)؟ أم قــوله في مكان آخــر: «يكونُ الدينُ كله لله»(٨/ ٣٩)؟

وقوله: «ولن تمسَّنا النارُ الاّ أيامًا مــعدودة»(٢/ ٨٠)؟ أم قوله في مكان آخر: «أيّاما معدودات»(٣/ ٢٤؛ ٢/ ١٨٤ و٢٠٣)؟

وقوله: «إنّ هدى الله هو الهدى»(٢/ ١٢٠؟) أم قوله في مكان آخر: «إنّ الهدى هدى الله»(٣/ ٧٣)؟

---

(٦٤) تفسير الجلالين لى ٢/ ٧٠.

وقوله: «قولوا: آمّنا بالله ومـا أنزِلَ إلينا»(٢/ ١٣٦)؟ أم قوله في مكان آخر: «... وما أُنزِلَ علينا»(٣/ ٨٤)؟

وقـوله: «ولا تقتلوا أولادكم مـن إملاق»(٦/ ١٥١)؟ أم قـوله في مكان آخر: خشيةَ إملاق»(١٧/ ٣١)؟

٦. وإذا أردنا العودةَ الى نظريةِ «**المحكم والمتشابِه**» في القرآن، فلا بدّ لنا من التساؤل: ما هي الحكمةُ في وجود المتشابه؟ «فإنْ كان ممّا يُمكِنُ علمُه، فله فوائد، منهـا الحثّ للعلماء على الـنظر؛ وإنْ كان ممّا لا يمكن علمـه، فله فوائد، منها ابتلاء العباد بالوقوف عنده»[٦٥].

ولكن كيف ينسـجم «ابتلاءُ العباد» مع عقيدة الإعجاز؟ وإذا كان المتشابه -ومعظم القرآن عليه- للخاصّة دون العامّة، فكيف يخاطب الله العامّة؟ وكيف تعمل العامّـة لتستفيـد من كلام الله العزيز؟ إنّها شبـهة أخرى تطعن بأهداف الوحي والنبوّة.

٧. وإذا أردنا العودةَ الى «**الناسخ والمنسوخ**» في القرآن، فلا بدّ لنا من القول بأنّ القرآنَ انفرد، دون سـائرِ الكتب المنزلة، بهذه النظرية الخطيرة. ولم يكن النسخ -بحـسب معـناه- إبدالَ آيةٍ بآية فحـسب، بل هناك نَسْخٌ بطريقـةِ النسيـان بدون ابدال. ولهذا كـان النّبيّ يصلّي: «أللهم ارحمني بالـقرآن، أللهم ذكّرني منه ما نسيت، وعلّمني ما جهلت»[٦٦].

وأخرج الطبراني عن ابن عمـر أنّ النبي أقرأ رجلَين سورةً، فكانا يقرآن بها، فقاما ذاتَ ليلةٍ يصلّيان، فلم يقدرا منهـا على حرف، فأصبحا غادِيَين على رسولِ الله، فـذكرا له ذلك، فـقال: «انّهـا مِمّـا نُسِخَ -أي رُفِعَ- فَالْهَـوَا عنها». وكذلك رُوي عن أبي موسى الأشعري: «نزلتْ سورةٌ نحو (سورةِ) براءة. ثم

---

(٦٥) السيوطي، ٢/ ١٢ .

(٦٦) عن دروزة، القرآن، ص ٧١ .

رُفِعَتْ. وروَى البخـاري عن أنَس أنّه أُنْزل في قصة أصحاب بئر مـعونة قرآنٌ قرأناه. ثم رُفِعَ»[٦٧]. ورُوي عن عمر قوله: «لا يقـولنّ أحدكم أخذتُ القرآنَ كلَّه. وما يدريه ما كلّه! فقـد ذَهَبَ منه قرآنٌ كثير»[٦٨]. وعن عبد الرحمن بن عوف قال عن آية في الجـهاد: «أسـقِطَتْ في ما أُسـقِطَ من القرآن»[٦٩]؛ وعن عائشة قالت عن آية «إنّها كانت قبل أن يغيِّرَ عثمانُ المصاحف»[٧٠].

وسؤالُنا هنـا: هل من الإعجاز في شيء أن يذهبَ «كـثيـرٌ من القرآن»؟ وأن «يُرْفَعَ منه الـكثـيـر»؟ وأن «يُنْسَخ»؟ أو «يُنْسَى منه الـكثـيـر»؟ هل يصحُّ النَّسخُ، حقّـاً، في كتابِ الله المنزَل؟ وهل يبـقَى القرآن، مع هذا النَّسخِ، معـجزةً في إعجازه؟ أين هو الإعجـاز في كل ذلك ؟ وأيّ إعجازٍ هو أنْ نجدَ الناسـخَ، في بعضِ السـور، يتقـدّمُ على المنسـوخ؟ كمـا هو الحالُ في آيةِ ٢٣٤ من سـورة البقرة التي تَنسَخ ما بعدها آية ٢٤٠؛ وآيةِ ٥٠ من سورة الأحزاب التي تنسخُ ما بعدها آية ٥٣؟

٨. ومنْ غريبِ القـرآن في إعجازِه أن تَرى **المَعاني تختلِطُ** علينا من أجلِ مراعاةِ الفاصلة، أي القافية المسجّـعة، وأن ترى اللغةَ تُحرَّفُ مُخالِفةً للاصول من أجلِ مراعاة الرَوِيّ والإيقاع. والأمثال على ذلك عديدة:

لماذا يقـدِّم القرآنُ مـا هو مـتأخِّـرٌ في الزمـان، في قوله: «فللهِ الآخـرةِ والأولى»(٥٣/ ٢٥)؟ ولولا مراعـاة الفاصلة لكان عليه أن يُقدّم «الأولـى» كما في قوله في مكانٍ آخر: «له الحمدُ في الأولى والآخرة»(٢٨/ ٧٠). وفي تقديمِ هارون على موسى في قوله: «بربِّ هارون وموسى»(٢٠/ ٧٠).

وفي تقديمِ الضمير على ما يفسّـره في قوله: «فأوجسَ في نفسِه خِيفَةً

---

(٦٧) الاتقان، ٢/ ٥٢ .

(٦٨) السيوطي، الاتقان ٢/ ٢٥ .

(٦٩) المرجع نفسه.

(٧٠) المرجع نفسه،٢/ ٢٥ .

موسى»(٢٠/٦٧). والأصحّ تقديمُ الفاعلِ موسى؛ فيُقال: فأوجسَ موسى...

وفي حذف الفعل غير المجزوم في قوله: «والليلِ إذا يَسْرِ»(٨٩/ ٤٠). والأصح: إذا يسري.

وفي حذف ياءِ الإضافة في قوله: «فكيفَ كان عذابي ونُذرِ (٥٤/١٦)، و«كيف كان عقابِ»(٤٠/ ٥). والأصحّ: ونُذري، وعقابي...

وفي صرفِ الممنوعِ من الصرّفِ في قولِه: «قَواريرًا قواريرًا (٧٦/ ١٥). والأصح: قواريرَ قواريرَ.

ولماذا يستغني القرآنُ بالمفردِ عن الجمع في قوله: «واجعلنا للمتّقينَ إماماً»(٢٥/ ٧٤)؟ والأصح: «أئمّة»، كما في قوله: «وجعلناهم أئمّةً يهدون» (٢١/٧٣). وفي قوله: «إنّ المتّقين في جنّاتٍ ونَهْرٍ»(٥٤/ ٥٤). والأصحّ: «وأنهَار». وقد جعلها مفردة مراعاة للفاصلة..

ولماذا يستغني بالمثنّى عن المفرد في مثل قوله:«ولمن خَافَ مُقامَ ربّه جنّتان»(٥٥/٤٦). والأصح: كما قال الفرّاء «جنّة».

ولماذا أيضا يستغني بالمثنى عن الجمْع في قوله: «ومن دونهما جنّتان»(٥٥/ ٦٢) والاصح: «جنّات».

ثمّ أيضا لماذا الاستغناء بالجمع عن المفرد في قوله: «لا بَيْعَ فيهِ ولا خلال»(١٤/ ٣١)؟ والأصحّ: خلّة، كما في قوله في مكان آخر: «لا بيع فيه ولا خلّة»(٢/ ٢٥٤).

ومن غرائب القرآن أيضا: وقوعُ مفعولٍ موقعَ فاعلٍ، في مثلِ قوله: «حجابًا مستورا»(١٧/ ٤٥). والأصح: ساتِرًا. وفي قوله: «و«كان وعدُه مَأتِيًا»(١٩/ ٦١)، والأصح: آتيًا.

ووقوعُ فاعلٍ موقعَ مفعولٍ، في مثلِ قوله: «عِيشةً راضية»(٦٩/٢١)، والأصح: مرضيّة. وفي قوله: «ماءٌ دافق»(٨٦/٦)، والأصح: مدفوق.

ومن غرائبه أيضاً وقوعُ حرفٍ مكان غيره، في مثل قوله: «بانَّ ربَّكَ أوحَى لها»(٩٩/٥) بدل «إليها».

وحذف الفاعل ونائبه، في مثل قوله: «وما لأحدٍ عنده من نعمة تُجزَى»(٩٢/١٩)، والأصح: يُجزَى عليها.

واستعمالُ صيغةِ المستقبل بدل صيغة الماضي، في مثل قوله: «فريقًا كذَّبتُم وفريقًا تقتلون»(٢/٨٧)، والأصح: «قتلتم».

وتغييرُ بنيةِ الكلمة، في مثل قوله: «طورسينين» (٩٥/٢)،و«آل ياسين» (٣٧/١٣٠)، والأصح: طور سيناء، والياس.

***

بعد هذا، هل يصحّ القول: «إنّ القرآن العظيم لا تنقضي عجائبه»[٧١]. وهل نصدّق بأنّها «ابتلاء للعباد»[٧٢]؟ ولئن سلّمنا بنظرية «الفصيح والأفصح»! فأين أصبحَ قولُ اللّه الجازم الحازم بأنّه أنزل القرآن «بلسان عربيّ مُبين»[٧٣]؟ وكيف نفهم القولَ بأنّ اللّهَ أنزله: «قرآنا عربيا غير ذي عِوَجٍ(٣٩/٢٨)؟ ولئن سلّمنا أيضاً بنظريّة "القرآن هو الحَكَمُ على اللّغةِ وقواعدِها لا العكس"! فأين هي القواعد الصحيحة والأسسُ الصالحة التي عليها نعتمد لنحكمَ على معجزة الإعجاز في القرآن؟!!

---

(٧١) المرجع نفسه، ٢/١٠٣.

(٧٢) المرجع نفسه،٢/١٢.

(٧٣) أنظر: ١٦/١٠٣؛ ٢٦/١٩٥. وانظر أيضاً: ٣٩/٢٨؛ و١٨/١...

اللبنانيّة للسنَّة، والإمام محمّـد شمس الدين رئيس المجلس الشيعي الأعى. قال الأوّل: "إنّ لدينا الـنّظامَ الكاملَ الصـالحَ لعـمـارة الكون وتنظيم الحـيـاة البشريّة"(٧٧). وقال الثـاني: في الإسلام "يوجَد نـظامٌ حياتيٌّ كـامل، لا يَتركُ مجـالاً لأيٍّ نظامٍ آخر، ولا يَدَعُ منفذًا للشـعورِ بالحاجـةِ الى تنظيمِ جانبٍ من جوانب الحيـاة، لأنّ الشريعةَ الإسلاميـةَ بقواعدِها الكليّةِ العامّـة وبالفقهِ الذي بُني على أصلَيها الكبيرَين (الكتاب والسنّة)، شامِلـةٌ مستوعِبةٌ لكلِ ما تقضي به سنّة الحياةِ من نُظُمٍ وأحكام»(٧٨).

يكفـينا، للدلالة على مـعـجزات القـرآن نقْلُ مـثلِ هذا الكلام لمسـؤولَين معاصـرين كبيرَين في عـالَمَي الإسلام، السنّة والشيعـة. فهما، في النتـيجة، يمثّلان المفهوم الإسلاميّ الحديث. هذا وإنّ الشيخ حسن خالد يتخطّى المعقولَ ليؤكّـد لنا بـ"أنّ نجاحَ الإنسـان في الوصول إلى الـقمر لا يَنبـغي أن يُدْهِشَ مُسلِماً اطّلَعَ على ما في القرآنِ من آياتٍ مُحْكَمَات"(٧٩).

وقد يأتي يومٌ نبـيّنُ فيه ما بيّنه المسلمـون من علوم في القرآن. إذ هي، أيضاً، معجزة من معجزاته.

---

(٧٧) الشيخ حسن خالد، آراء ومواقف، ص ١٤٥.

(٧٨) الشيخ محمد مهدي شمس الدين، العلمانية، بيروت ١٩٨٠، صـ ٨٦.

(٧٩) الشيخ حسن خالد، آراء ومواقف، ص ٢٩١، في مـوضـوع "الإسلام وغزو الفضاء"، بمناسبة وصول الإنسان إلى القمر، نقلاً عن جريدة الجريدة، في ١٩٦٩/٨/٧.

رابعاً – معجزات القرآن في العلوم

في إيمان المسلمين، إنّ "المعارف العلميّة الحديثة تسمح بفهم بعض الآيات القرآنيّة التي كانت بلا تفسيرٍ حتّى الآن" (٧٤). والقاعدة التي يبني عليها المسلمون نظريّتهم هذه، "أنّ العلم والقرآن صنوان لا يفترقان. وأنّه، مهما تجدّد العلم، وتقدّم في الاختراع والاكتشاف، نجد بأنّ القرآن الكريم قد تخطّاها علمياً، وعقائدياً، وفكرياً، وتربوياً" (٧٥). والمبدأ الذي ينطلقون منه هو هذا: "كلّما اكتشف العلماء شيئاً وُجد مذكوراً في القرآن" (٧٦). والحجّة الدّامغة هي في أنّ القرآن هو كلام الله. وكلام الله غنيّ بما لا يُحَد. والإنسان يعجز عن سبرِ غور غنى هذا الكلام الإلهي الذي لا يُحَدّ.

والعلوم في القرآن كثيرة وشاملة كلّ باب. هي في علم الفلك والهيئة،، علم الفيزياء والكيمياء، وعلم الطبّ، وعلم الحساب والهندسة، وعلوم الصناعة والحِيَل والفلسفة والأخلاق والاجتماع والسياسة والتشريع وما إلى ذلك. وفضلُ العالَم الغربي الذي يقوم بالاختراعات والاكتشافات، أنّه يدلّنا، بما يخترع ويكتشف، على ما في القرآن ممّا يَختَرِع ويكتشِف. وبالتالي، إنّ العلماء المعاصرين يؤكّدون لنا مصدرَ القرآن الإلهي وغنى الإسلام.

هذا الغنى أشار إليه كلٌّ من الشيخَين: حسن خالد مفتي الجمهوريّة

(٧٤) حمصي، توضيحاً لما جاء عند موريس بوكاي، ص ٢٧٧.

(٧٥) الأميري، الإشارات العلميّة في القرآن، ص ١١.

(٧٦) د.محمّد رشاد خليفه، صاحب الإعجاز العددي، عن حمصي،ص ٢٨١.

هؤلاء المذهولون جمّدوا اللّه. وسيّجوا حوله. وصنعوا به كما يشاؤون. وطالبوه بما يرغبون. وعمّلوه ما يريدون له أن يعمل. وكان اللّهُ لهم مطواعاً، وخاضعاً لهم، بل كان في عبّهم وجَيبهم، رهنَ استعمالهم له. هؤلاء المتديّنون المذهولون، هم، حقّاً، سببٌ مباشَرٌ لكلّ جحودٍ وكفرٍ وإلحاد. وليس عليهم أن يضعوا مسؤوليّة الإلحاد على سواهم. فهم سببه وعلّته.

هؤلاء صوّروا اللّهَ على قدر عقولهم. فكان اللّهُ، معهم، مقاتلاً، ومعتنٍ بهم دون سواهم. وجعلوا أنفسَهم مدافعين عنه ومجاهدين ومقاتلين في سبيله، وصنّفوا الناسَ بالنسبة إليه، بين مؤمنين، وكافرين، ومشركين، وأهل كتاب، وأهل ذمّة، وفاسقين... فيما هولا يميّزُ أحداً عن أحد، بل هو نفسُه يهتمّ بالأشرار والأبرار سواء، ويذهب وراء الخاطئين لأنّهم أكثر حاجةً إليه.

وبعد هذا، هل من حقّ لنا في اعتبار أنفسنا راشدين في إيماننا، فلا نعود نحتاج إلى رسل وأنبياء وكتب ومعجزات وشرائع منزلة!!! أيجوز لنا ذلك ونحن نتطلّع إلى ذواتنا، حيث حرّيتنا هي الدليل على اللّه. وهي التي، بحفاظنا عليها، نؤكّد على عظمة خالقها. ويومَ يُفقدنا اللّهُ حرّيتَنا يكون قد قضى على نفسه لا محالة. فحريّتنا في البحث عن اللّه واللّه الذي يحفظ لنا هذه الحرّيّة صنوان. بعد هذا، فمن أين تدخلُ المعجزات إذاً!!! ومن أجل أي هدف يقول بها القائلون!!! أليس للقضاء على اللّه وعلى الحرّيّة معاً!!!

خاتمة البحث

في النهاية، لا بدّ من قولة حـقّ، بل قولة إيمان: ليس من شأن أي دين في العالم أن يقوم على مـعجزات وخوارق: اليهـوديّ ليس يهوديّاً لأنّ موسَى صنع معجزات وعجائب. والمسيحيّ لا يتبع المسيح لأنّ المسيح اجترح عجائب، وعلّم ما علّم، وأنزل على الأرض إنجيلاً. وكـذلك على المسلم ألاّ يكون مـسلماً بسبب ما يجده في القرآن من معجزات. ألمعجزات ليست ركناً من الدين.

ولئنْ كـان ثمّـةَ معـجزات فـهي من قَـبـيل الرّحمـة بأناس تعـذّبهم الأمراض والآلام. وليس للّه فـيها غـير مـقصد غـير رحمـته. فهـو لا يتدخّل ليقضي على نـظام الكون الذي أبدعه أحسن إبداع. ولا يتدخّل ليـتحدّى العلمَ، وينقض مـا قرّره. ولا يحـرم الإنسانَ من حـرّيّة أوجـدَها هو له؛ وتكاد تكون مطلقة، وتنفي اللّهَ نفسَه، وهو الذي أوجد الإنسان ليبحث عن كلّ شيء.

ومن حقّ الإنسان الذي خلقـه اللّهُ حرّاً، أن يقفَ بوجه اللّه رافـضاً أو قابلاً. وعلى هذا جزاؤه. وبهذا مجده وفـخره وسعادته. والمذهولون بمعجزاتٍ إلهيّة، يرونَها تـتحدّى الكونَ والعلمَ والمألوف، قد لا يعرفون اللّه حقّ مـعرفته. وهم لا يبحثون عنه في أي مكان. ولا يقدّرون ما خلق من بدائع. ولا يحترمون ما زرع فيهم من حرّيّة وعقل وميل إلى البحث المستمرّ ونزعة نحو التطوّر.

المصادر والمراجع

١) ألإبياري (إبراهيم)، تاريخ القرآن، دار الشروق بيروت سنة ١٩٦٤م.
الأشيقر (محمّد علي)، لمحات من تاريخ القرآن، مطبعة النعمان، كربلاء بدون تاريخ.
أبن أبي الاصيبع (محمد)، بديع القرآن، مكتبة النهضة بمصر، القاهرة، سنة ١٩٥٧ م.
لاصفهاني (الراغب)، المفردات في غريب القرآن، اعداد محمّد احمد خلف الله، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة سنة ١٩٧٠م.
٥) الآصفي (علي محمّد)، دراسات في القرآن الكريم، مكتبة النجاح، النجف ١٣٨٠ هـ.
الألوسي (محمود)، روح المعاني، المطابع المنيرية القاهرة ١٣٤٥ هـ.
إبن الانباري، البيان في غريب القرآن، دار الكاتب العربي، القاهرة، سنة ١٩٦٩م.
ألباقلاني (القاضي أبو بكر)، إعجاز القرآن، جزءان، بهامش كتاب الاتقان في علوم القرآن للسيوطي، المكتبة الثقافية بيروت ١٩٧٣ م.
الببلاوى (محمد علي)، التعريف بالنبي والقرآن الشريف، القاهرة، سنة ١٩٢٧م.
١٠) ألبخاري، صحيح البخاري، ٩ أجزاء في ثلاثة مجلّدات، مطابع الشعب (بدون تاريخ)
بدوي (أحمد أحمد)، من بلاغة القرآن، مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٠م.
ألبغدادي (الحسين)، معالم التنزيل، مطبعة المنار، القاهرة ١٣٤٥هـ
بلاشير، القرآن، نزوله، تدوينه، ترجمته، وتأثيره، عربّه رضا سعادة، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٧٤م.
ألبنا (أحمد الدمياطي)، اتحاف فضلاء البشر بالقراءات الاربع عشر، القاهرة، سنة ١٣٥٩
١٥) بن بني (مالك)، الظاهرة القرآنية، مكتبة دار العروبة، القاهرة سنة ١٩٥٨م.
ألبهي (الدكتور محمد)، من مفاهيم القرآن في العقيدة والسلوك، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٠
ألبوطي (محمد سعيد)، من روائع القرآن، ط-٢، مكتبة الفارابي، دمشق ، سنة ١٩٧٠م.
ألبيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، في مجموعة من التفاسير، ٦ مجلّدات، دار احياء التراث العربي، بيروت، سنة ١٣١٧ هـ.
ألترمذي، ألجامع الصحيح، أو «سنن الترمذي»، مطبعة البابي، القاهرة، سنة ١٩٣٧ م.
٢٠) ألتستري (سهل)، تفسير القرآن العظيم، مطبعة السعادة، القاهرة، سنة ١٩٠٨ م.
إبن تيميّة (أحمد)، الاكليل في المتشابه والتنزيل، المطبعة العامة، القاهرة، سنة ١٣٢٣هـ

إبن تيمية (أحمد)، مقدمة في أصول التفسير، دار القرآن الكريم، الكويت (بدون تاريخ).
ألثعالبي (عبد الرحمن)، ألجواهر الحسان في تفسير القرآن، ألجزائر، سنة ١٣٢٣ هـ.
ألجديلي (محمد)، نظرات حديثة في التفسير، المكتب التجاري، بيروت، سنة ١٩٦٣م.
٢٥) ألجرجاني (عبد القاهر)، دلائل الاعجاز، ط ٢ مطبعة المنار، القاهرة، سنة ١٣٣١ هـ. (نشر السيد محمد رشيد رضا).
جلال الدين المحلي، وجلال الدين السيوطي، قرآن كريم، تفسير الجلالين، مكتبة الملاح. دمشق، (بدون تاريخ).
جملة مؤلّفين، القرآن، نظرة عصرية جديدة، المؤسسة العربية، بيروت، سنة ١٩٧٢م.
جمال (أحمد محمد)، مع المفسرين والكتاب، دار الكتاب العربي، القاهرة، سنة ١٩٥٤.
إبن جني (المحتسب)، في تبيين وجوه شواذ القراءات، المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية، القاهرة، سنة ١٣٨٦ هـ.
٣٠) ألحداد (الاستاذ)، القرآن والكتاب، جزءان، لا دار نشر، ولا تاريخ، في سلسلة «دروس قرآنية».
ألحداد (")، نظم القرآن والكتاب، الكتاب الاوّل: اعجاز القرآن، لا دار نشر، ولا تاريخ.
حسين (محمد الخضر)، بلاغة القرآن. المطبعة التعاونية، دمشق ١٩٧١م.
أبو حيان الأندلسي، التفسير الكبير، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٢٨ هـ.
إبن الخازن الشيخي، لباب التأويل في معاني التنزيل، في مجموعة من التفاسير، ٦ مجلّدات، دار احياء التراث العربي، بيروت، سنة ١٣١٧ هـ.
٣٥) ألخطيب (عبد الكريم)، اعجاز القرآن، دار الفكر العربي، القاهرة، سنة ١٩٦٤م.
الخطيب (")، التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر العربي، القاهرة. بدون تاريخ.
ابن الخطيب (محمد)، أوضح التفاسير، ط٦، المطبعة المصرية، القاهرة، سنة ١٩٦٤م.
خلف الله (محمد وسلام)، ثلاث رسائل في اعجاز القرآن، دار المعارف بمصر، القاهرة، سنة ١٩٥٥م.
ألخوئي (أبو القاسم)، البيان في تفسير القرآن، ط٢، مطبعة الآداب ، النجف، سنة ١٩٦٦م.
٤٠) ألداني (أبو عمرو)، المحكم في نقط المصاحف، مديرية احياء التراث القديم، دمشق، سنة ١٩٦٠م.
ألداني، المقنِع في رسم القرآن الكريم(مخطوط)،الجامعة الاميركية، بيروت.
الداني، التيسير في القراءات السبع، نشر وتحقيق «برتزل»، الاستانة، سنة ١٩٣٠م. سلسلة المكتبة الاسلاميّة، ٢.
إبن أبي داود (أبو بكر)، كتاب المصاحف، المطبعة الرحمانيّة، القاهرة، سنة ١٩٣٦م.
درّاز (الدكتور محمد عبد الله)، ألنبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، ط٢، دار القلم،

الكويت، سنة ١٩٧٠م.
٤٥) دروزة (محمّد عزّة)، القرآن المجيد، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، بدون تاريخ.
الدومي (أحمد عبد الجواد)، مبعوث الازهر الشريف بلبنان، الاسلام منهاج وسلوك، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، دون تاريخ.
الديب (محمد السباعي)، البيان في اعجاز القرآن، مطبعة صبيح، القاهرة، سنة ١٩٦٠م.
الذهبي (محمد حسين)، التفسير والمفسرون، دار الكتب الحديثة، القاهرة، سنة ١٩٦١م.
الرازي (فخر الدين)، التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، المطبعة البهية، القاهرة، ١٩٣٨.
٥٠) الرافعي (الدكتور مصطفى صادق)، اعجاز القرآن، والبلاغة النبويّة، ط ٩؛ دار الكتاب العربي، بيروت، سنة ١٩٧٣م.
رضا (محمد رشيد)، تفسير المنار، ط٨، مطبعة المنار، القاهرة سنة ١٣٤٦هـ.
الزجّاج، إعراب القرآن، الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية، القاهرة، سنة ١٩٦٣م.
أبي زرعة (الامام عبد الرحمن بن زنجلة)، حجّة القراءات، تحقيق سعيد الافغاني، مؤسسة الرسالة، ط٢، بيروت، ١٩٧٩م.
الزرقاني (عبد العظيم)، مناهل العرفان، مطبعة شبرا، القاهرة،١٣٥٩ هـ.
٥٥) الزركشي (محمد بن بهادر)، البرهان في علوم القرآن، ٤ أجزاء، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، دار احياء الكتب العربية، سنة ١٩٥٧م القاهرة.
الزمخشري، الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل، مطبعة محمد مصطفى، القاهرة، ٣٥٤ هـ (٤ أجزاء)
الزنجاني (أبو عبد الله)، تاريخ القرآن، ط٣، مؤسسة الاعلمي، بيروت سنة ١٩٦٩م.
السجستاني، غريب القرآن، المطبعة الرحمانية، القاهرة، ١٣٤٢ هـ.
أبو السعود، ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم، ٢ج، مطبعة بولاق القاهرة ١٢٧٥
٦٠) السيوري (مقداد)، كنز العرفان في فقه القرآن، تبرين، ١٣١٤هـ.
السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن)، الاتقان في علوم القرآن، جزءان في مجلّد واحد، المكتبة الثقافية، بيروت، سنة ١٩٧٣م.
السيوطي (المتوكلي)، في ما ورد في القرآن باللغة الحبشية والفارسية والهندية والتركية والزنجية والنبطية والقبطية والسريانية والعبرانية والبربرية، مكتبة القدسي والبدير، دمشق، سنة ١٣٤٨ هـ.
السيوطي، معترك الاقران في اعجاز القرآن، دار الفكر العربي، القاهرة، سنة ١٩٦٩ م.
شاهين (عبد الصبور)، تاريخ القرآن، دار الكاتب العربي، القاهرة، سنة ١٩٦٦م.
٦٥) شحاتة (دكتور عبد الله محمود)، تاريخ القرآن والتفسير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة ١٩٧٢م.

ألشرباصي (أحمد)، قصة التفسير، دار الجيل، بيروت، ط٢، سنة ١٩٧٨م.
ألشريف الرضي، تلخيص البيان في معجزات القرآن، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٩٥م.
شيخ أمين (الدكتور بكري)، التعبير الفني في القرآن، دار الشروق، بيروت، سنة ١٩٧٣م.
ألصابوني (محمد علي)، التبيان في علوم القرآن، دار الارشاد بيروت سنة ١٩٧٠ م.
٧٠) ألصالح (الدكتور الشيخ صبحي)، مباحث في علوم القرآن، ط ١١، دار العلم للملايين، بيروت، سنة ١٩٧٩ م.
صبيح (محمد)، بحث جديد عن القرآن، ط٦، دارالثقافة العامّة القاهرة، بدون عنوان.
ألصعيدي (عبد المتعال)، النظم الفني في القرآن، مكتبة الاداب، القاهرة، سنة ١٩٥٠ م.
ألطبرسي، مجمع البيان، طهران، سنة ١٣١٤هـ.
ألطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، المطبعة الاميرية القاهرة، ١١٣٢
٧٥) ألطوسي (أبو جعفر)، التبيان في تفسير القرآن، المطبعة العلمية النجف، سنة ١٩٥٧م.
ألظافر (نصير الدين)، حسن الايجاز في ابطال الاعجاز، المطبعة الانجليزية الاميركانية، القاهرة، بدون تاريخ.
عبد الجبار (القاضي)، تنزيه القرآن عن المطاعن، المطبعة الجماليّة، القاهرة، ١٣٢٩هـ
عبد الرحمن (عائشة)، التفسير البياني للقرآن، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٦٢م.
عبد الرحمن (")، القرآن والتفسير العصري، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٧٠م.
٨٠) عبدو (محمد)، تفسير جزء عم، مطبعة مصر، القاهرة، ١٣١٤ هـ.
أبو عبيده (معمر بن المثنى)، مجاز القرآن، مكتبة الخانجي، القاهرة سنة ١٩٥٤ م.
ألعدوي (محمد مخلوف)، عنوان البيان في علوم التبيان، مطبعة المعاد، القاهرة، ١٣٤٤
إبن العربي، أحكام القرآن، مطبعة السعادة، القاهرة ١٣٣١ هـ.
ألعزوزي (محمد العربي)، دليل مباحث علوم القرآن المجيد، دار الانصاف بيروت ١٩٥٦ م.
٨٥) ألعسكري (الحسني)، تفسير العسكري، تبريز، سنة ١٣١٤ هـ.
عطاء (عبد القادر)، التفسير الصوفي للقرآن، دار الكتب الحديثة القاهرة سنة ١٩٦٩م.
ألعطار (الدكتور داود)، موجز علوم القرآن، مؤسسة الاعلمي، بيروت، ط٢، ١٩٧٩
ألعكبري، إملاء ما مَنّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جمع القرآن، المطبعة الميمنيّة، القاهرة، سنة ١٣٢١ هـ.
ألعلوي، عبد الله، تفسير القرآن، طهران، سنة ١٣٥٢ هـ.
٩٠) ألغزالي (جواهر القرآن)، مطبعة محيي الدين الكردي القاهرة، سنة ١٣٢٩ هـ.
ألغزالي (محمد)، نظرات في القرآن، ط٣، دار الكتب الحديثة القاهرة، سنة ١٩٦٢م.
جفرى (آرثر)، مقدمتان في علوم القرآن، مكتبة الخانجي القاهرة، سنة ١٩٧٢م.

ألفراء، معاني القرآن، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٥م.
ألفيض الكاشاني، الصافي في تفسير القرآن، طهران، سنة ١٣٧٤هـ.
٩٥) قبيسي (الدكتور محمد)، تدوين القرآن الكريم، الوثيقة الاولى في الاسلام، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨١ م. ١١٦ ص.
بن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، سنة ١٣٧٣ هـ.
إبن قتيبة، تفسير غريب القرآن، تحقيق السيد أحمدصقر، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٧٨
ألقرطبي، الجامع لاحكام القرآن، دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٣٥ م.
ألقطان (منّاع)، مباحث في علوم القرآن، الدار السعودية للنشر، الرياض، بدون تاريخ.
١٠٠) قطب (سيّد)، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، بيروت. بدون تاريخ.
قطب (سيّد)، في ظلال القرآن، دار احياء الكتب العربية، القاهرة سنة ١٩٥٣م.
لقيسي (قاسم محمد)، تاريخ التفسير، المجمع العلمي العراقي، بغداد، سنة ١٩٦٦م.
إبن قيّم الجوزيّة، التبيان في أقسام القرآن، المكتبة التجارية الكبرى القاهرة، ١٩٣٣
ابن قيّم الجوزيّة، كتاب الفوائد المشوق الى علوم القرآن وعلم البيان، القاهرة، ١٣٢٧ هـ.
١٠٥) ابن كثير(اسماعيل)، تفسير الحافظ ابن كثير، مطبعة المنار، القاهرة، ١٣٤٣هـ.
لاشين (د. عبد الفتاح)، البديع في ضوء اساليب القرآن، دار المعارف، القاهرة. ١٩٧٩.
لاشين، المعاني في ضوء اساليب القرآن، ط٣، سنة ١٩٧٨م.
لاشين، البيان في ضوء اساليب القرآن، سنة ١٩٧٧م.
ألمبرّد، ما اتّفق لفظه واختلف معناه في القرآن المجيد، القاهرة، ١٣٥٠هـ.
١١٠) مخلوف (دكتور عبد الرؤوف)، الباقلاني وكتابه اعجاز القرآن، دراسة تحليلية نقدية، دار مكتبة الحياة، بيروت، سنة ١٩٨١ م.
مكّي (أبو محمد بن ابي طالب القبس)، العمدة في غريب القرآن، تحقيق يوسف عبد الرحمن المرعشلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨١ م.
ألنحاس (أبو جعفر)، الناسخ والمنسوخ في القرآن،مطبعةالسعادة، القاهرة، ١٣٧٢ هـ.
ألنسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣١٧ هـ.
ألنمر (د. عبد المنعم)، علوم القرآن الكريم، دارالكتاب اللبناني. بيروت، ١٩٧٩
١١٥) ألنيسابوري، غرائب القرآن وغرائب الفرقان، المطبعة الاميرية، القاهرة، سنة ١٣٢٣ ه
ألواحدي (علي)، أسباب النزول، مؤسسة الحلبي، القاهرة ١٩٦٨م.
BLACHERE,R., Introduciton au Coran,Ed. Besson et Chantemerle' Paris1959
BLACHERE, Régis, Le Coran; Coll. Que sais-je?; P.U.F." Paris 1977
CASANOVA, P., Mohammed et la fin du monde; Paris, 1911 - 1913; 2 fasc.
١٢٠) ENCYCLOPEDIE DE L'ISLAM, Leyde, Plusieurs articles : Arabe, Arabya, Kur'an, Madina, Meckke, Muhammad, Djazirat al- Arab.......

فهرس كتاب عالم المعجزات